خزائن الكتب القديمة

خزائن الكتب القديمة

في العراق

منذ أقدم العصور حتى سنة ١٠٠٠ للهجرة

تأليف

كوركيس عوّاد



دار الرائد العربي

بيروت ـ لبنان

الطبعة الثانية
١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م

أجازت طبعه دائرة الرقابة العامة
ودائرة الشؤون الثقافية العامة
بوزارة الثقافة والاعلام العراقية

دار الرائد العربي - بيروت - لبنان
ص.ب : ٦٥٨٥ - تلكس : LE ٤٣٤٩٩ رائد

المقدمة

كان الباعث لي على وضع هذا الكتاب ، اعتقادي بأنّ الأقدمين قد وضعوا حجر الأساس للثقافة والحضارة ، اللتين نرى ثمارها قد بلغت في عصرنا من النضج والاكتمال مبلغاً بعيداً . ولا يشك امرؤ في أنّ مبعث الثقافة والحضارة في كل عصر وأوان هو العلم . ولا يقوم علم إلاّ على مؤلفاتٍ تدوّن ومعلومات تكتنز في أسفار ، يتألف من اجتماع شملها وانضمام بعضها إلى بعض ، ثروة أدبية وعلمية زاخرة ، يطلق عليها اسم « خزانة كتب » أو « دار كتب » أو غير ذلك من الأسماء .

و « العراق » ، الذي عُرف بتاريخه الحافل المديد ، الذي ابتدأ بفجر حياة الانسان ، وتعاقبت فيه الامم والدول اُلوف السنين ، كان في جملةٍ من عصوره ، مناراً تهتدي بهديه الامم والاقوام الاخرى ، ودليلا أميناً تتعقب خُطاه في مضمار الرقي والعمران .

وكان من أظهر مظاهر رقيه في معارج المدنية ، عنايته بخزائن الكتب ، التي كانت — وما تزال — تقام في بلدانه المختلفة .

ولقد أسعفتنا الآثار وكتب التاريخ وغيرها ، بأخبار جملةٍ من هاتيك الخزائن القديمة ، ولازمت جانب الصمت عن كثير أخرى غيرها .

فرأينا أن نستقصي ما انتهى إلينا من أخبار تلك الخزائن ، منذ أقدم العصور التاريخية حتى مطلع العصور الحديثة ، مستندين في كلّ خبرٍ نورده أو إشارة ندوّنها إلى أوثق المصادر وأثبتها .

لقد اجتمع لدينا من أخبار هذه الخزائن القديمة شيء كثير ، حملنا على أن نجمعه بين دفتي هذا السفر، ليسهل الرجوع إليه .

وكنا فيما مضى قد نشرنا أقساماً ونبذاً من هذا الكتاب في بعض المجلات العراقية ، كمجلة « سومر » و « البيان » و « النجم » و « منبر الاثير » و « الاعتدال » و « الغري » .

ولسنا ندّعي أننا أحطنا علماً بأخبار جميع خزائن كتب العراق ، منذ العصر السومري إلى المائة الثامنة للهجرة . وإنما ذكرنا منها ما أُتيح لنا الوقوف على خبره وصفته في ما بين أيدينا من مراجع .

وإننا نتلقى بسرور واغتباط عظيمين ، كل نقد وتنبيه ، يكشف لنا النقاب عن أمر خزانة عراقية قديمة فاتنا ذكرها ، أو يضيف أخباراً أخرى إلى ما أوردناه . ففي مثل هذه التعقيبات والاستدراكات يكتمل البحث ويستتم مناحيه .

ولقد راعينا في إيراد المراجع ، ذكر اسم المرجع كاملاً حين وروده للمرة الاولى في كتابنا ، ومختصراً فيما بعد ذلك . ويمكن معرفة أول ذكره في الكتاب من مراجعة فهرست أسماء الكتب بآخر المجلد .

بغداد كوركيس عواد

الباب الاول

مباحث تمهيدية

تمهيد

قال حكماء الناس قديماً قولاً مأثوراً ، لايتبدل بتبدل الأزمان ولا يتغير بتعاقب العصور ، وهو ان « الكتاب خير صديق للانسان » .

فلقد كان « الكتاب » وما زال الرفيق الأمين لمن يبتغي العلم وينشد الحقيقة ويتوخى الفائدة .

ولم يكن شكل الكتاب ولا حجمه في الأزمنة الخالية بالوجه الذي نراه فيه اليوم ، لأن البشر كانوا يكتبون في بدء حضاراتهم على « الطين » و « الحجر »، ثم اخذوا بمرور الزمن يتخلصون شيئاً فشيئاً من عبء احمال تلك الكتب الثقيلة ، فاستعاضوا عن الطين والحجر بمواد أخف منها وزناً وأصغر حجماً . وأهم ما اتخذوه لهذا : أوراق « البردي » ، وجلود الحيوانات ولا سيا ما كان يُعرف منها بـ « الرق » وظلوا على هذا دهراً طويلا ، حتى تيسّر لهم صنع « الكاغد » أي « الورق » وهو كما يعلم الكل ، مادة خفيفة الحمل ، حسنة المنظر ، لا تشغل حيزاً كبيراً ، ولا تكلف ثمناً باهظاً .

وصناعة الورق ، ابتدأت ككل صناعات البشر ، بوجه ساذج ثم أخذت في التحسن والتقدم إلى الامام خطوة فخطوة . فأصبحنا نرى صنوف الورق الفاخر الصقيل الذي لم يكن أسلافنا الأقدمون يحلمون به .

ولا شك في انه ، بعد أن صار الورق في هذه الكثرة العظيمة ، وانتشر فن الطباعة في انحاء المعمورة كافة ، أدّى ذلك كله الى ازدياد نُسخ الكتب

وتوفرها في أيدي طبقات الناس في مقابل ثمن زهيد يبتاعونها به . وهذا لايعدّ شيئاً مذكوراً إذا قيس بأثمان الكتب المخطوطة التي كان الناس قديماً يدفعونها. فالورق حينذاك كان مادة ثمينة عزيزة المنال ، وأجرة النسخ ــ وهو عمل صعب ــ كانت تقتضي نفقة كثيرة لايقوم بها إلا من أُوتي حظاً حسناً من الثروة .

ومع ذلك كله ، فقد عُرف الأقدمون بحبهم للكتب وولعهم بها ، سواء أكانت مكتوبة على الطين أو الحجر أو البردي أو الرق أو الورق . وعُنوا بجمعها واختزانها في خزائن . فخزائن الكتب ليست من مبتكرات العصور الأخيرة ، بل هي مما توصل اليه البشر منذ عهد بعيد يسبق الميلاد بقرون عديدة ، على ما سنجيء بذكره في هذا الكتاب .

* * *

وخزائن الكتب القديمة في العراق ، بعضهـا يرقى الى أزمنة ما قبل الميلاد ، وبعضها يعود الى الفترة التي امتدت بين الميلاد وظهور الاسلام . وبعضها ــ وهو الأوفر ــ نشأ في العصور الاسلامية . وأقول بتعبير أدلّ ، نشأ في العصر العباسي وفي ما بعده .

وتلك الخزائن ، كان بعضها في القصور الملوكية ، أو المعابد القديمة ، أو الديارات والكنائس ، أو الجوامع والمساجد ، أو المدارس والرُبُط ، أو البيوت الخاصة . ومن ثمة يمكننا تقسيمها إجمالاً الى نوعين :

الأول : الخزائن العامة ، وهي التي يباح غير واحد من الناس الرجوع الى كتبها أو النقل عنها ، كالخزائن التي في المدارس والديارات والجوامع والمساجد ودور العلم الاخرى .

الثاني : الخزائن الخاصة ، وهي التي كان يُعنى بجمعها أفراد من الناس ، رغبةً منهم في العلم أو التشجيع على طلبه ، وذلك كخزائن كتب الملوك والأمراء والوزراء والعلماء وغيرهم من صنوف الناس .

وقد ردّد التاريخ ذكر كثير من هذه الخزائن بنوعيها . وسبيلنا في هــذا

الـكتاب أن نصف ما أُتيح لنا الوقوف على خبره وصفته من الخزائن القديمة في العراق ، سواء أكانت عامة أو خاصة ، مستقين تلك الأخبار - كما قلنا في المقدمة - من أوثق المراجع وأثبتها ، فلا نروي خبراً ولا نورد كلاماً إلا دعمناه بالمراجع ليركن القارىء الى مانسوقه في هذا الموضوع .

وقد راعينا في سياقة أخبار هذه الخزائن التسلسل الزمني ، على قدر الامكان ، مبتدئين بالأقدم فالأقدم . ورأينا أن نصدّر الكلام على تلك الخزائن بفصول تمهيدية نتناول فيها بالبحث أخباراً عن الـكتب ، كالوِراقة والوراقين ، وبيع الـكتب وشرائها ووقفها ، وما يصيبها من آفات ورزايا كالحرق والغرق والدفن وغسل كتابتها وغير ذلك مما يعود في الغالب الى العصور الاسلامية ، لضياع مثل هذه الاخبار المتعلقة بالـكتب التي سبقت زمن الميلاد .

ـــــــ o ـــــــ

٨

الوراقة والوراقون

عرّف أبو سعد السمعاني لفظ الورّاق ، بقوله : « الورّاق ، بفتح الواو وتشديد الراء في آخرها القاف : هذا اسم لمن يكتب المصاحف وكتب الحديث وغيرها . وقد يقال لمن يبيع الورق ، وهو الكاغد ببغداد ، الوراق أيضاً »[١]

وفي كتب اللغة : « (و) الورّاق أيضاً (مورّق الكتب) كما في العباب . وفي الصحاح : رجل ورّاق وهو الذي يورّق ويكتب ، (وحرفته الوراقة) بالكسر »[٢]

فالذي يؤخذ من هذين النصين ، ان عمل الورّاق كان « النسخ » و « بيع الورق». ولكن يفهم من أقوال بعض المؤرخين ، كابن النديم[٣] واليعقوبي[٤] وابن الجوزي[٥] وابن زولاق[٦] وياقوت الحموي[٧] ، ان للوراقة معنى أوسع ، فهي تعني أيضاً من يجلد الكتب ومـن يبيعها . فسوق الورّاقين ببغداد ، هي السوق التي تباع فيها الكتب .

فالوراقة بمعناها الشامل ، كانت تقوم في العصور الاسلامية ، على أمور أربعة :

الأول : النسخ ، وما يتبعه من تزويق وتصوير وتذهيب.

الثاني : بيع الورق وسائر أدوات الكتابة كالأقلام والحبر وغير ذلك .

---

(١) الأنساب للسمعاني (ظهر الورقة ٥٧٩ من طبعة مرجليوث . ليدن ١٩١٢) .

(٢) تاج العروس للسيد مرتضى الزبيدي (٧ : ٨٦) وما هو بين قوسين من كلام الفيروزابادي صاحب القاموس المحيط ، والباقي لشارحه الزبيدي .

(٣) الفهرست لابن النديم (ص ١١٦ طبعة فلوجل في ليبسك سنة ١٨٧١ = ص ١٦٩ طبع القاهرة سنة ١٩٢٩) .

(٤) البلدان لليعقوبي (ص ٢٤٥ طبعة دي‌غويه . ليدن ١٨٩٢) .

(٥) مناقب بغداد (ص ٢٦ طبعة محمد بهجة الاثري . بغداد ١٣٤٢ هـ).

(٦) اخبار سيبويه المصري لابن زولاق (ص ١٨ طبع القاهرة ١٩٣٣) .

(٧) معجم الأدباء (= ارشاد الأريب) لياقوت الحموي (٦ : ٥٦ طبعة مرجليوث) .

الثالث : تجليد الكتب

الرابع : بيع الكتب .

وسنتكلم في هذا الفصل على كل من هذه الامور الأربعة

أ — النسخ

كان نسخ الكتب عملاً مألوفاً بين الناس ، حين كانوا يجهلون أمر الطباعة التي لم يتوصلوا إليها إلا في المائة الخامسة عشرة للميلاد . ولقد امتد العمر بفن النسخ مئات سنين من العصور الاسلامية ، وشمل كثيراً من الأقطار التي عُرفت بميل أهلها إلى العلم والأدب .

ولقد أحرز العراق شهرة بعيدة في فن النسخ في مختلف أدوار تاريخه . غير أنه بعد الفتح العربي ، ولاسيما في أيام الدولة العباسية ، كان قد بلغ في ذلك مبلغاً لم يدانِه فيه أحد تقريباً ، بالنظر الى سعة التأليف ووفرته حينذاك .

كان لغير واحد من كبار الكتاب وأماثل الأعيان ، « وراق » يورّق له . فابن سعد ، مؤلف كتاب « الطبقات » ، المتوفى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) كان كاتب الواقدي[١] . وقد استخدم حُنين بن اسحق الطبيب المترجم النصراني الشهير في بغداد (٢٦٠ هـ — ٨٧٣م) وراقاً له يُعرف بالأزرق[٢] . وكان سندي بن علي يورّق لاسحق بن ابراهيم الموصلي المغني الموسيقي الشهير[٣] (٢٣٥هـ - ٨٤٩م) . وأبو جعفر أحمد بن محمد بن أيوب الوراق البغدادي (٢٢٨هـ — ٨٤٦م) ، كان يورّق للفضل بن يحيي بن خالد البرمكي[٤] . وكان أحمد بن أحمد بن أخي الشافعي وراقاً لابن عبدوس الجهشياري[٥] (٣٣١هـ - ٩٤٢م) . وعبدالله بن الفضل

---

(١) الفهرست (ص ٩٩ فلوجل = ١٤٥ مصر) .

(٢) عيون الانباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١ : ٨٧ و ١٩٧) .

(٣) الفهرست (١٤١ فلوجل = ٢٠٣ مصر) .

(٤) الأنساب (ظهر الورقة ٥٧٩) .

(٥) معجم الأدباء (١ : ٨١) .

الورّاق العاقولي ، وهو من أهل دير العاقول (٣٢٨هـ—٩٣٩م) كان وراقاً لعبد الكريم بن الهيثم[١] . ومثله أبوالقاسم عبدالوهاب بن عيسى الوراق البغدادي (٣١٩هـ-٩٣١م) فقد كان وراقاً للجاحظ[٢]. وأحمد بن محمد بن سعيد القرشي الوراق (٣٥٠هـ-٩٦١م) كان يورّق لابن فطيس الدمشقي[٣]. ومحمد بن سعيد بن هشام الحجري المعروف بابن ملساقة ، يورّق لافرائيم بن الزفان الطبيب اليهودي بمصر[٤]. وأبوالقاسم عيسى بن سليمان بن عبدالملك القرشي الوراق (٣١٠هـ — ٩٢٢ م) كان وراقاً لداود بن رشيد[٥].

وليس بوسعنا أن نستقصي أسماء من عُرِف من الوراقين . فهم من الكثرة بحيث يتعذّر علينا أن نلمّ بذكرهم جميعاً . وما نورده في هذا المقام ليس إلا أمثلة قليلة :

فمن ذلك ، ان القاضي أبا المطرف قاضي الجماعة بقرطبة (المتوفى سنة ٤٠٢هـ ـ ١٠١١م) ، « كان له ستة وراقين ينسخون له دائماً . وكان قد رتب لهم على ذلك راتباً معلوماً . وكان متى علم بكتاب حسن عند أحدٍ من الناس ، طلبه للابتياع منه وبالغ في ثمنه. فان قدر على ابتياعه وإلاّ انتسخه منه وردّه عليه »[٦]. وكان أبو المطرف هذا جمّاعة للكتب ، أحرز خزانة حافلة بالكتب في بلاد الأندلس .

ومما يُحكى عن محمد بن سليمان بن قطرمش البغدادي المولد، المتوفى سنة ٦٢٠هـ (١٢٢٣ م) ، ان والده « خلّف له أموالاً كثيرة ، فضيّعها في القمار واللعب

(١) الأنساب (وجه الورقة ٥٨٠) .
(٢) الأنساب (وجه الورقة ٥٨٠) .
(٣) معجم الأدباء (٢ : ٧٨) .
(٤) عيون الانباء (٢ : ١٠٥) .
(٥) الانساب (وجه الورقة ٥٨٠) .
(٦) الصلة في تاريخ أئمة الاندلس لابن بشكوال (١ : ٣٠٤ — ٣٠٥ طبع مدريد سنة ١٨٨٢) .

بالنرد ، حتى احتاج إلى الوراقة . فكان يورّق بأجرة بخطه المليح الصحيح المعتبر ، فكتب كثيراً من الكتب »[١].

وكان محمد بن عبدالله الكرماني النحوي الوراق (٣٢٩هـ ـ ٩٤٠م) ، « مليح الخط ، صحيح النقل ، يورق بالاجرة »[٢].

وكان قاضي الاسكندرية المعروف بابن الابخر ، المتوفى سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) ، « مفنناً عالماً فاضلاً غزير الفقه والنحو واللغة والحديث والادب وعلم الوراقة »[٣].

وممن اشتهر بالوراقة في العراق ، غير مَن مرّ بنا ذكرهم ، أبو عبد الله الوراق الجهني الواسطي ، المتوفى سنة ١٥٩ هـ (٧٧٥ م) ، فقد كان يكتب المصاحف بواسط[٤].

ونظيره أبو اسحق ابراهيم بن مكتوم السلمي الوراق ، وراق المصاحف ، كان يسكن بسرّ من رأى[٥].

وعلاّن الشعوبي الورّاق ، كان ينسخ في بيت الحكمة ببغداد[٦] ، وسيأتي بنا ذكره .

ومحمد بن عمر بن زنبور الوراق البغدادي، المتوفى سنة ٣٩٦هـ[٧] (١٠٠٥م).

وعمر الوراق البصري الحافظ ، الذي قدم بغداد وسكنها ومات بها سنة ٣٥٧هـ[٨] (٩٦٧م) .

---

(١) معجم الادباء (٧ : ١٤) ، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (ص ٤٧) .
(٢) معجم الادباء (٧ : ٢٠) ، وبغية الوعاة (ص٦٠) .
(٣) بغية الوعاة (ص ١٩٧) .
(٤) الأنساب (ظهر الورقة ٥٧٩) .
(٥) الأنساب (وجه الورقة ٥٨٠) .
(٦) الفهرست (١٠٥ فلوجل = ١٥٣ ـ ١٥٤ مصر) ، ومعجم الأدباء (٥ : ٦٦) .
(٧) الانساب (وجه الورقة ٥٨٠) ، وتاريخ بغداد او مدينة السلام لأبي بكر الخطيب البغدادي (٣ : ٣٥) .
(٨) الأنساب (وجه الورقة ٥٨٠) ، وتاريخ بغداد للخطيب (١١ : ٢٤٤) .

ومحمود بن الحسن الوراق الشاعر ، الذي مات في حـدود سـنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م)[١].

وياقوت بن عبد الله الرومي الأصل نزيل الموصل ، المتوفى بها سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) ، كان من أشهر الوراقين في زمنـه . قال سميّـه ياقوت الحموي : « ورأيت كتباً كثيرة بخطه يتداولها الناس ويتغالون بأثمانها ، بينها عدة نسخ من الصحاح للجوهري والمقامات الحريرية »[٢].

بل أن ياقوتاً الحموي نفسه ، المتوفى سنة ٦٢٦ هـ (١١٢٨ م) صاحب « معجم البلدان » و« معجم الادباء » وغيرهما من التآليف النافعة ، قد كان وراقاً يتعاطى النسخ بالأجرة وبيع الكتب[٣].

وذكر ابن النديم[٤] ، أسماء أربعة عشر رجلاً من الوراقين الذين كانوا يكتبون المصاحف بالخط المحقق والمشق وما شاكل ذلك . وأغلبهم من أهل العراق ، وقد أدرك بعضاً منهم .

ولقد كان العالم ، إذا قعد به الزمان ولم يجد ما يفي بأمور عيشه ، يعمد إلى الوراقة ونسخ الـكتب . روى ابن النديم عن يحيي بن عدي النصراني المتوفى سنة ٣٦٤ هـ (٩٧٤ م) قال :

« قال لي يوماً في الوراقين ، وقد عاتبته على كثرة نسخه ، فقال : من أي شيء تعجب في هذا الوقت ؟ من صبري ! قد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري ، وحملتها إلى ملوك الأطراف . وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى . وعهدي بنفسي وأنا أكتب في اليوم والليلة مائة ورقة وأقل »[٥].

---

(١) الأنساب (وجه الورقة ٥٨٠) ، وطبقات الشعراء لابن المعتز (ص ١٧٥ طبعة عباس اقبال . لندن ١٩٣٩) .

(٢) معجم الأدباء (٧ : ٢٦٧ — ٢٦٨) .

(٣) وفيات الاعيان لابن خلكان (٢ : ٣١٢ بولاق ١٢٧٥ هـ) ، وشذرات الذهب في اخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي (٥ : ١٢١) .

(٤) الفهرست (ص ٧ فلوجل = ١٠ مصر) .

(٥) الفهرست (ص ٢٦٤ فلوجل = ٣٦٩ مصر) .

قال القفطي في يحيى هذا : « وكان نصرانياً يعقوبي النحلة ، وكان ملازماً للنسخ بيده ، كتب الكثير من كلّ فنّ ، وكان يكتب خطاً قاعداً بيناً »[١].

وقد كان السري الرّفاء الشاعر الأديب الموصلي ، المتوفى سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) قد ناله من أذى أبي بكر وأبي عثمان الخالديين ، شيء كثير حتى « يقال إنه عُدم القوت فضلا عن غيره ، ودُفع إلى الوراقة فجعل يورّق شعره ويبيعه ، ثم نسخ لغيره بالاجرة ، وركبه الدين ، ومات ببغداد على تلك الحال »[٢].

ومثله أبو بكر الدقاق المعروف بابن الخاضبة، المتوفى سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٥م)، قال : « لما كانت سنة الغرق[٣] ، وقعت داري على قماشي وكتبي ، ولم يبق لي شيء ، وكانت لي عائلة : وكنت أورّق للناس فكتبت صحيح مسلم تلك السنة سبع مرات »[٤].

وذكر الثعالبي أن رجلاً من إحدى قرى نيسابور، يقال له أبو حاتم الوراق، ورق بنيسابور خمسين سنة . وهو القائل :

إنّ الوراقة حرفة مذمومة محرومة عيشي بهـا زمن
إن عشت عشت وليس لي أكل أو مُتّ مُتّ وليس لي كفن[٥]

وكان ابن الهيثم المهندس البصري ، المتوفى بعد سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) ، أعظم من اشتهر بعلوم الرياضيات والبصريات في عصره ، « يكتب في كل سنة

---

(١) اخبار الحكماء للقفطي (ص ٣٦١ طبعة ليبزيك ١٩٠٣) .
(٢) الأنساب (ظهر الورقة ٢٥٥) ، ومعجم الأدباء (٤ : ٢٢٧) ، ووفيات الأعيان (١ : ٢٨٣) .
(٣) يريد غرق بغداد . وكان ذلك في سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٤ م) . وقد اسهب بعض المؤرخين في وصفه . راجع : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (٨ : ٢٨٤ ـ ٢٨٦ طبع حيدرآباد) ، والكامل في التاريخ لابن الأثير (١٠ : ٦٢ ـ ٦٣ طبعة ترنبرغ في ليدن) .
(٤) المنتظم (٩ : ١٠١) ، ومعجم الادباء (٦ : ٣٣٦ ـ ٣٣٧) .
(٥) يتيمة الدهر للثعالبي (٤ : ٤٠٣ طبعة الصاوي بالقاهرة) .

أقليدس والمجسطي ويبيعها ويقتات من ذلك الثمن . ولم تزل هذه حاله إلى أن توفي »(١) .

وكان ابن الخازن الكاتب ، المتوفى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) ، « فريد عصره في الكتابة ، وكتب مالم يكتبه أحد ، فانه كتب فيما كتب خمسمائة نسخة من كتاب الله العزيز ، ما بين ربعة وجامع »(٢).

ومن النسّاخ الذين حفظ التاريخ ذكرهم ، أبو عمر الخزاز المعروف بابن حيويه ، المتوفى سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٢ م) ، كان « كثير الكتابة للحديث . كتب الكتب الكبار بيده ، كالطبقات والمغازي وغير ذلك »(٣) .

وأوضح الخطيب البغدادي أسماء هذه الكتب بقوله : « وكتب طول عمره ، وروى المصنفات الكبار ، مثل طبقات محمد بن سعد ، ومغازي الواقدي ، ومصنفات أبي بكر بن الانباري ، ومغازي سعيد الأموي ، وتاريخ ابن أبي خيثمة ، وغير ذلك »(٤) .

وكان الحسن بن شهاب العكبراوي ، المتوفى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٦ م) يقول: « كسبتُ في الوراقة خمسة وعشرين ألف درهم راضيّة . وكنت اشتري كاغداً بخمسة دراهم ، فأكتب فيه ديوان المتنبي في ثلاث ليالٍ ، وأبيعه بمائتي درهم ، وأقله بمائة وخمسين درهماً »(٥) .

وقال أبو بكر الداودي : سمعت أبا حفص بن شاهين ، المتوفى سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥م) ، وهو من الوراقين ببغداد ، يقول : « حسبت ما اشتريت من الحبر

---

(١) عيون الأنباء (٢ : ٩٠) ، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٣١٨ طبعة صالحاني . بيروت ١٨٩٠) .

(٢) وفيات الأعيان (١ : ٢٢٨) .

(٣) المنتظم (٧ : ١٧٠ ـ ١٧١) .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب (٣ : ١٢١) .

(٥) المنتظم (٨ : ٩٢) .

إلى هذا الوقت ، فكان سبعمائة درهم . قال الداودي : وكنا نشتري الحبر أربعة أرطال بدرهم . قال : وقد مكث ابن شاهين بعد ذلك يكتب زماناً »[١].

ومما ذُكر عن أبي سعيد السيرافي ، المتوفى سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) ، وكان قد تولى القضاء على بعض الارباع ببغداد ، انه « كان لا يخرج إلى مجلس الحكم ، ولا إلى مجلس التدريس في كل يوم ، إلا بعد أن ينسخ عشر ورقات يأخذ اجرتها عشرة دراهم قدر مؤونته ، ثم يخرج إلى مجلسه »[٢].

وذكر ياقوت أسماء غير واحدٍ من الورّاقين ببغداد ، كأبي بكر القنطري وأبي الحسين بن الخراساني[٣]، وغيرهما .

وأورد ابن الفوطي ترجمة لقوام الدين عبدالله بن عبد المؤمن بن الوجيه الواسطي البغدادي المتوفى سنة ٧ ٧ هـ (١٣٠٧ م) وقال فيه انه « نسخ الكثير من كتب الحديث والفقه »[٤] .

ولعل أوسع الورّاقين شهرةً وأبعدهم صيتاً وأوسعهم اطّلاعاً على أنواع الكتب ، أبو الفرج محمد بن اسحاق، المعروف بابن النديم، صاحب «الفهرست» وهو رجل من أهل بغداد ، كان وراقاً يبيع الكتب[٥]. مات في أواخر المائة الرابعة للهجرة .

وكان بين هؤلاء النساخ الوراقين طائفة اشتهرت بخفة اليد وسرعتها في الكتابة .

فذُكر عن ابن الأخوة العطار المتوفى سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) ، أنه

---

(١) المنتظم (٧ : ١٨٣) .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب (٧ : ٣٤٢) ، ومعجم الادباء (٣ : ٨٥) .

(٣) معجم الادباء (٣ : ١٠٥) .

(٤) تلخيص مجمع الالقاب لابن الفوطي (ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ من النسخة المصورة بخزانة كتب المتحف العراقي . والاصل ، وهو الجزء الرابع ، بخط المؤلف ، في الخزانة الظاهرية بدمشق) .

(٥) معجم الأدباء (٦ : ٤٠٨) .

« نسخ ما لا يدخل تحت الحصر ، وكان يكتب خطاً مليحاً ، وكان سريع القراءة والكتابة . قال محب الدين بن النجار : رأيت بخطه كتاب التنبيه في الفقه لأبي اسحق الشيرازي ، وقد ذكر في آخره أنه كتبه في يوم واحد ... وكان يقول كتبت بخطي ألف مجلد »[١].

وورد في ترجمة ابن عبد الدائم المقدسي ، المتوفى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) انه « كتب بخطه المليح السريع ،الا يوصف ، لنفسه وبالأجرة ، حتى كان يكتب إذا تفرّغ في اليوم تسع كراريس أو اكثر ، ويكتب الكراسين والثلاثة مع اشتغاله في يوم وليلة . وقيل انه كان يكتب القدوري (في الفقه) في ليلة واحدة ... وقيل انه كان ينظر في الصفحة الواحدة نظرة واحدة ويكتبها ، ولذلك يوجد الغلط فيما كتبه كثيراً . ولازم النسخ خمسين سنة ، وخطه لا نقط ولا ضبط ، وكتب على ما قاله فيَ شعره ألفي مجلدة »[٢].

ومما اشتهر عن ابن الفوطي المؤرخ البغدادي الكبير ، المتوفى سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٣ م) انه كان ذا « قلم سريع وخط بديع إلى الغاية . قيل انه كان يكتب من ذلك الخط الفائق الرائق أربع كراريس ويكتب وهو نائم على ظهره »[٣] . قال الصفدي : « أخبرني مَن رآه ينام ويضع ظهره إلى الأرض ويكتب ويداه إلى جهة السقف »[٤] .

وكان يحيي بن محمد الأرزني ، المتوفى سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤ م) ، « يخرج في وقت العصر إلى سوق الكتب ببغداد ، فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب الفصيح لثعلب ويبيعه بنصف دينار ، ويشتري نبيذاً ولحماً وفاكهةً ولا يبيت حتى ينفق ما معه منه »[٥] .

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (١ : ٢٦٨ بولاق ١٢٨٣ هـ) .
(٢) نكت الهميان في نكت العميان للصفدي (ص ١٠٠) ، وفوات الوفيات (١:٤٦).
(٣) فوات الوفيات (١ : ٢٧٣) .
(٤) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (٢:٣٦٥ طبع حيدراباد).
(٥) معجم الادباء (٧ : ٢٩١ ـ ٢٩٢) .

وكان كثير من النساخ يستخدمون في خزائن الكتب الخاصة والعامة . ورد في ترجمة أمين الدولة بن غزال (المائة السابعة للهجرة) ، انه « اقتنى كتباً كثيرة فاخرة في سائر العلوم ، وكانت النساخ أبداً يكتبون له . حتى انه أراد مرة نسخة من تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ، وهو بالخط الدقيق ثمانون مجلداً ، فقال : هذا الكتاب ، الزمن يقصر أن يكتبه ناسخ واحد . ففرقه على عشرة نساخ ، كل واحد منهم ثمان مجلدات ، فكتبوه في نحو سنتين ، وصار الكتاب بكماله عنده ».(١)

ويندر أن تخلو خزائن الكتب الكبيرة من ناسخ أو أكثر ، ينسخون الكتب المختلفة لتودع تلك الخزائن . فقد ذكر المقريزي ، ان خزائن الكتب في القاهرة كان فيها نساخ ينسخون.(٢) وأشار ابن خلدون الى ان الخليفة الحكم الأندلسي ، جمع بداره الحذاق في صناعة النسخ ، والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد(٣) . وكان الأمر على ما ذكرنا من وجود النساخ في كثير من الخزائن القديمة التي يطول بنا ذكرها .

ونشأ بين النساخ ، جماعة فاقوا أقرانهم بتجويد الخط وتحسينه والبلوغ به إلى أعلى مراتب الاتقان ، حتى صاروا لا يعدّون بين النساخ محترفي الوراقة . هؤلاء هم « الخطاطون » الذين كان يغالي الناس في إحراز ما تسطره أناملهم من بدائع الخط المنسوب وجميل القطع الفنية . ولبعض هؤلاء شهرة بعيدة في تاريخ الخط العربي ، كابن البوّاب وبني مقلة وياقوت المستعصمي وغيرهم .

* * *

لقد بحث غير واحد من الكتبة الأقدمين والمحدثين في موضوع الوراقة ، واختلفوا في أسلوبهم وتفاوتوا في غاياتهم .

---

(١) عيون الأنباء (٢ : ٢٣٦) .
(٢) الخطط (= المواعظ والاعتبار) للمقريزي (٢ : ٢٥٥ و ٣٣٤ ، طبعة النيل بالقاهرة ١٣٢٤ هـ) :
(٣) تاريخ ابن خلدون (= العبر) (٤ : ١٤٦ بولاق) .

فعقد ابن جماعة الكناني ، المتوفى سنة٧٣٣هـ (١٣٣٢م)، فصلاً طريفاً في هذا الموضوع ، زاده ناشره فائدة بتعليقاته النفيسة عليه[١].

وكتب ابن الحاج ، المتوفى سنة ٧٣٧هـ (١٣٣٦م) ، فصلاً قيماً في آداب الوراقة[٢]. تكلم فيه على ما ينبغي للوراق والناسخ والمجلد ، أن يتحلّوا به من صفات ومزايا .

ولم يفت العلامة ابن خلدون (٨٠٨هـ — ١٤٠٥م) ، أن يخص الوراقة بفصل من مقدمته الشهيرة[٣].

وأفرد طاش كبري زاده ، المتوفى سنة ٩٦٢هـ (١٥٥٤م) ، فصلاً في آداب كتابة المصحف وبيعه وتحليته بالفضة والذهب[٤].

وفي طليعة من كتب في موضوع الوراقة من المؤلفين المحدثين ، العلامة محمد كرد علي بك[٥]. والمستشرق الشهير آدم متز[٦]. والقاضي أحمد ميان أختر ، فقد عقد فصلاً نفيساً للغاية في هذا الباب[٧]. ومثله الشيخ عناية الله ، فقد بحث في الكتب وجمعها ومواد الكتابة في عصور الاسلام[٨] . وكلا الكاتبين من علماء الهند الأفذاذ .

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص ١٦٣ – ١٩٣ بتحقيق السيد محمد هاشم الندوي ، حيدر آباد ١٣٥٣ هـ) .

(٢) المدخل لابن الحاج (٤ : ٧٩ – ٩٢ المطبعة المصرية بالأزهر ١٩٢٩) .

(٣) مقدمة ابن خلدون (ص ٣٠٥ – ٣٠٦ ، بولاق ١٢٧٤ هـ) .

(٤) مفتاح السعادة ومصباح السيادة (٢ : ٢٣١ – ٢٣٤ ، حيدرآباد ١٣٢٩ هـ) .

(٥) خطط الشام (٦ : ١٩٥ – ١٩٦) .

(٦) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (١ : ٣٠٥ من الترجمة العربية لمحمد عبدالهادي أبي ريدة) .

(٧) The Art of Waraqat during the Abbasid Period, by Qazi Ahmadmian Akhtar. (Islamic Culture, IX, 1935; pp. 131-148.

(٨) Bibliophilism in Medieaval Islam, By Sh. Inayatullah. (Islamic Culture, XII, 1938; pp. 154 - 169).

وكتب الاستاذ اسماعيل فرج الموصلي، بحثاً حسناً في الوراقة والوراقين(١).

وللاستاذ حبيب زيات ، فصل عنوانه « الوراقة والوراقون في الاسلام » ، ذكرت مجلة المشرق(٢) البيروتية ، أنها ستنشره في الجزء الثالث من مجلدها الحادي والأربعين . ولكننا لم نقف عليه حتى ساعة طبع هذا الكلام ، فاكتفينا بالاشارة إليه .

ب - بيع أدوات الكتابة :

أفاض القلقشندي في ذكر أدوات الكتابة وصفة كل منها . وكلامه عليها من أنفس ما وقفنا عليه في المراجع القديمة وأوفاها بالمرام(٣).

ومن أهم ما وصفه من أدوات الكتابة « الدواة » . قال : إنها تصنع من بعض الأخشاب كالآبنوس والساسم والصندل ، أو من بعض المعادن كالنحاس الأصفر والفولاذ .

وقد أجاد في وصف « القلم » أي قلم القصب ، وهو ضروب ، منها البحري والفارسي والنبطي وغيرها .

ومما أحسن في وصفه من مواد الكتابة ، « المِدَاد » . فذكر أصنافه ومزايا كل منها ، وكيفية صنعها .

ولعل أهم أدوات الكتابة وأجلها شأناً ، هو « الورق » أي « الكاغد » ، وعليه العمدة في أسواق الوراقين .

ولسنا بصدد تاريخ صناعة الورق، وما طرأ عليه من تحسين على مدار العصور، فان ذلك لا يدخل في بحث الوراقة ، وإن كان عندنا الشيء الكثير من المعلومات في هذا الباب . والذي يهمنا ذكره في هذا الموضوع ، أن صناعة الورق كانت

---

(١) مجلة الجزيرة (الجزءان ١١ و ١٢ ، الموصل ١٩٤٦) .
(٢) أنظر غلاف الجزء الثاني من المشرق ، المجلد ٤١ لسنة ١٩٤٧ .
(٣) صبح الاعشى للقلقشندي (٢ : ٤٣٠ - ٤٧٧) .

قد انتشرت في كثير من بلدان الاسلام. وأول معامل الكاغد أنشئت في سمرقند، وكانت تنتج نوعاً نفيساً منه ، عرف بالكاغد السمرقندي[١]. ثم أنشئت له معامل في بغداد ودمشق وطرابلس الشام وشاطبة (في الأندلس) وغيرها من البلدان .

ولا مراء أن في كثرة هاتيك المعامل ووفرة ما كان يكتب من مجلدات ، دليلاً على أن بيع الورق كان تجارة رابحة ناجحة . وكلما كثر ما تنتجه المعامل من كاغد ، كثرت الكتب تبعاً لذلك ، وازداد انتشارها .

على أننا لا نملك من العلم ما ينبؤنا بوضوح عن الأسعار التي كانت تباع بها أدوات الكتابة في العصور الاسلامية ، ولا سيما الكاغد . فان المراجع القديمة قل أن تحفل بذكر مثل هذه المعلومات .

ج ـ تجليد الكتب :

ومما يدخل في موضوع الوراقة ، فن تجليد الكتب . ولسنا نغالي إذا ما قلنا ، ان هذا الفن قد بلغ الذروة من الاتقان في عصور الاسلام . ولم يكن المراد من تجليد الكتاب صيانته داخل جلد حسب ، بل كان يراد من الجلد ذاته أن يكون في بعض الاحيان قطعة طريفة يبدو عليها أثر الفن والذوق .

وفي المراجع التي بيدنا ، أخبار مختلفة في هذا الشأن . كما أن في دور التحف وخزائن الكتب العامة والخاصة في زمننا ، من الكتب ذات التجليد النفيس الفخم ما لا يدخل تحت حصر .

لقد كان تجليد الكتب في بدء أمره ساذجاً ، شأنه في ذلك شأن كل حرفة في أطوارها الاولى . وكان المجلدون قليلي التفنن في عملهم . قال ابن النديم في هذا الشأن : « وكانت الكتب في جلود دباغ النورة وهي شديدة الجفاف ثم كانت الدباغة الكوفية تدبغ بالتمر وفيها لين »[١].

---

(١) آثار البلاد واخبار العباد للقزويني (ص ٣٦٠ طبعة وستنفلد) .

(٢) الفهرست (٢١ فلوجل = ٣٢ مصر) .

فيؤخذ من هذا القول ، أن جلود الكتب كانت في قديم الزمن يابسة صلبة لسوء دبغها ، ثم حسّن الناس دباغتها وصقلها فجعلوها لينة ناعمة الملمس . وقد بلغ من تجويدهم في هذه الصنعة أنهم أدخلوا عليها الزخرفة والتزويق والتذهيب بأساليب مختلفة .

ورد في أحداث سنة ٣٠٩هـ (٩٢١م) ، وهي السنة التي اشتهر فيها أمر الحسين بن منصور الحلاج ، أن الوزير حامد بن العباس ، جدّ في طلب أصحاب الحلاج ، ومنهم ابن حماد والقنائي . وكبس دار ابن حماد « فأُخذت منه دفاتر كثيرة ، وكذلك من منزل القنائي . فكانت مكتوبة في ورق صيني وبعضها مكتوب بماء الذهب مبطنة بالديباج والحرير ، مجلدة بالأدم الجيد »(١).

ولقد كان البشاري المقدسي (المائة الرابعة للهجرة) ، مؤلف « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ، ممن أحرز نصيباً وافراً في فن التجليد . وقد أشار إلى ذلك غير مرة في كتابه هذا ، قال : « وباليمن يلزقون الدروج ويبطنون الدفاتر بالنشا . وبعث إليّ أمير عدن مصحفاً أجلده ، فسألتُ عن الأشراس بالعطارين ، فلم يعرفوه ، ودلّوني على المحتسب وقالوا عساه يعرفه . فلما سألته قال : من أين أنت ؟ قلت : من فلسطين . قال : أنت من بلدة الرخاء ، لو كان لهم أشراس لأكلوه عليك بالنشا . ويعجبهم التجليد الحسن ، ويبذلون فيه الاجرة الوافرة . وربما كنتُ أُعطى على المصحف دينارين »(٢).

وذكر ابنُ النديم أسماء سبعة ممن اشتهر بتجليد الكتب إلى زمنه(٣). وأحدهم كان يجلد الكتب في خزانة الحكمة ببغداد ، وسيجيء بنا ذكره .

ونقل الجاحظ في كتاب « فخر السودان على البيضان » قولهم : « وثلاثة أشياء جاءتكم من قبلنا ، منها : الغالية ، وهي أطيب الطيب وأفخره وأكرمه .

(١) صلة تاريخ الطبري (حاشية الصفحة ٩٠ من طبعة دي غويه) .

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ص ١٠٠ طبعة دي غويه) . وقد لمح المؤلف الى اشتغاله بالتجليد في الصفحة ٤٣ و ٤٤ من كتابه أيضاً .

(٣) الفهرست (ص ١٠ فلوجل = ١٤ مصر) .

ومنها النعش ، وهو أستر للنساء وأصون للحرم · ومنها المصحف وهو أوقى لما فيه وأحصن له وأبهى وأهيأ » . [١]

ولقد عُني في عصرنا غير واحد من علماء الآثار، بدرس ما انتهى إلى علمهم من الاسفار المخطوطة التي جُلدت تجليداً نفيساً في العصور الاسلامية · ومن أشهر من صنّف في هذا الموضوع ، العلامة الآثاري فردريك ساره · فقد وضع كتاباً جليلاً في التجليد الاسلامي [٢]، ضمنه ٣٦ لوحاً تمثل فن تجليد الكتب العربي والفارسي · وهذه الصور منقولة عن مخطوطات محفوظة في متحف القيصر فردريك في برلين · وقد طُبعت الالواح المذكورة طبعاً أنيقاً فاخراً ، يمثل جلود الكتب ذاتها ، حتى ليكاد المرء حين يراها أن يلمسها بيده .

ونشر غيره من الباحثين كتباً وفصولا في فن تجليد الكتب في العصور الاسلامية [٣] وكلها ألسنة ناطقة بما بلغه الفنانون من درجات الرقي والتقدم في هذا الفن ·

---

(١) رسائل الجاحظ (ص ٦٧ ـ ٦٨ طبعة الساسي بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ) . وانظر : ثلاث رسائل للجاحظ (ص ٧١ طبعة فان فلوتن ، ليدن ١٩٠٣) .

(٢) Sarre (Fr.), Islamic Bookbindings. (London,1923).

(٣) راجع في هذا الصدد :

Miquel y Planas (R.), Restauracion del Arte hispano-àrabe en la decoracion exterior de los libros. (Barcelona, 1913).

Mehemet Aga-Oglu, Persian Bookbindings of the Fifteenth Century. (Michigan, 1935).

Gratzl (E.), Islamische Bucheinbande des 14 bis 19 jahrhunderts. (Leipzig, 1924).

وانظر الفصل الذي كتبه كراتزل في « أغلفة الكتب » ، في كتاب :

Pope (A.), Survey of Persian Art. (III, 1939; pp. 1975 1994).

وانظر أيضاً : الدكتور زكي محمد حسن في كتابيه : «كنوز الفاطميين (ص١٠٦ـ ١٠٩ ، القاهرة ١٩٣٧) و « الفنون الايرانية في العصر الاسلامي » (ص١٣٢ـ ١٣٨ ، القاهرة ١٩٤٠) .

د - بيع الكتب وشراؤها :

شأن الكتب ، شأن غيرها من السلع والأثاث ، تُباع وتُشرى . وهذا الأمر في عصورنا الحديثة لا يحتاج إلى إبانة ولا دليل ، لأن المطابع التي تطبع ملايين النسخ من الكتب ، في مختلف الأمصار ، وبتباين اللغات ، دفعت بالناس إلى أن يجعلوا من بيع الكتب وشرائها تجارةً عظيمة منظمة ، فلا يخلو قطر من أقطار العالم من كتبيين يتعاطون بيع الكتب وشراءها .

ولما كان كتابنا يتناول أخبار الكتب وخزائنها في الأزمنة القديمة . كان لابد لنا من إيراد بعض أخبار بيعها وشرائها . نقول « بعض الاخبار » ، لأن الاحاطة بها غير ممكنة إن لم تكن مستحيلة ، لكثرة هاتيك الأخبار من جهة ، ولفقدان المراجع التي تتناول أمثال هذه الحوادث من جهة أخرى .

وسيرد في تضاعيف هذا السِفر ، أخبار شتى في بيع الكتب وشرائها ، لا موجب لايرادها هاهنا . وإنما نورد بعض الاخبار الاخرى مما لا سبيل لذكره إلا في هذا الفصل .

فما وقفنا عليه من هذا القبيل ، ما قاله ابن الأثير في حوادث سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) أن صلاح الدين الايوبي ، لما استولى على قصر العاضد لدين الله بمصر « كان فيه من الكتب النفيسة المعدومة المثل ما لا يعد . فباع جميع ما فيه »[١].

وذكر ابن الفوطي في أخبار سقوط بغداد بيد المغول سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) ما هذا نصه : « وكان أهل الحلة والكوفة والسيب ، يجلبون إلى بغداد الاطعمة ، فانتفع الناس بذلك ، وكانوا يبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة ، وصفر المطعم ، وغيره من الاثاث بأوهى قيمة ، فاستغنى بهذا الوجه خلق كثير منهم ».[٢]

وورد في ترجمة أبي مطرف القاضي بقرطبة ، وقد مرّ ذكره ، أنه « جمع من

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير (١١ : ٢٤٢) .

(٢) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة لابن الفوطي (ص ٣٣١ طبعة الدكتور مصطفى جواد بغداد ، ١٣٥١ هـ) .

الـكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس»[١]. وذكر حفيده « ان أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتب جدّه مدة عام كامل في مسجده في الفتنة في الغلاء ، وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية»[٢] .

ونظراً إلى ما للاتّجار بالكتب من سوق نافقة ، فقد أنشئت الحوانيت لبيع الكتب في كل بلد إسلامي . فذكر اليعقوبي في جملة كلامه على أرباض بغداد : « ... ثم ربض وضاح ، مولى أمير المؤمنين ، المعروف بقصر وضاح ، صاحب خزانة السلاح ، وأسواق هناك . واكثر من فيه في هذا الوقت[٣] الوراقون أصحاب الكتب ، فان به أكثر من مائة حانوت للوراقين»[٤] . ووصف ابن الجوزي سوق الوراقين ببغداد في زمنه (وفاته سنة ٥٩٧هـ -- ١٢٠٠م) بقوله : « إنها سوق كبيرة ، وهي مجالس العلماء والشعراء»[٥] . وأشار ابن الفوطي الى سوق الكتب ببغداد[٦] سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢٢ م) . وذكر المقريزي سوق الـكتبيين التي كانت في زمانه (وفاته ٨٤٥هـ ــ ١٤٤١م) بالقاهرة[٧].

كانت الكتب تباع في السوق بالمفرد أو بالمزاد . وكان القائم على بيعها يسمى المنادي[٨] . ولم تعدم الكتب من أناس يروّجون بيعها وشراءها . وقد عرف هؤلاء بدلالي الكتب ، ومن هؤلاء الدلالين . اسمعيل بن أحمد بن عمر بن أبي الأشعث السمرقندي ، المتوفى سنة ٥٣٦هـ (١١٤١م) ، ذكر ذلك ابن الجوزي في ترجمته[٩]. وأورد المؤرخون ترجمة رجل آخر من دلالي الكتب ، وهو أبو المعالي سعد بن علي الأنصاري الحظيري ، ثم البغدادي الوراق ، المعروف بدلال

---

(١) الصلة لابن بشكوال (١ : ٣٠٤) .
(٢) الصلة لابن بشكوال (١ : ٣٠٥) .
(٣) كان هذا في اواخر المائة الثالثة للهجرة (اوائل المائة العاشرة للميلاد) .
(٤) البلدان لليعقوبي (ص ٢٤٥) .
(٥) مناقب بغداد (ص٢٦) .
(٦) تلخيص مجمع الألقاب (ص ٢٥٤ ــ ٢٥٥) .
(٧) خطط المقريزي (٣ : ١٦٥ ـ ١٦٦) .
(٨) بغية الوعاة (ص ٩٧) .
(٩) المنتظم (١٠ : ٩٨) .

الكتب ، المتوفى ببغداد سنة ٥٦٨هـ[١] (١١٧٢م) .

ولم تكن حوانيت بيع الكتب محلاً تجارياً حسب ، بل كانت ملتقى الأدباء والشعراء والعلماء الذين كثيراً ما كانت تدور بينهم الأحاديث والمناظرات الأدبية . ذكر ياقوت أنه « كان بالرها وراق يقال له سعد ، وكان في دكانه مجلس كل أديب »[٢]. وأشار في ترجمة أبي الغنائم حبشي بن محمد الواسطي الضرير، المتوفى سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) انه كان يأتي سوق الكتب ببغداد في كل ليلة ، عشرين سنة[٣].

وكان المهلب يقول لبنيه : « يا بنيّ : إذا وقفتم في الأسواق ، فلا تقفوا إلا على من تبيع السلاح أو يبيع الكتب »[٤].

وكان الأقدمون في العصور الاسلامية ، لا يقتنون كتاباً ، إلا بعد تفحصه وإمعان النظر فيه ، خشية أن يكون فيه نقص أو تشويش . قال ابن جماعة : « وإذا اشترى كتاباً ، تعهد أوله وآخره ووسطه ، وترتيب أبوابه وكراريسه ، وتصفح أوراقه واعتبر صحته . ومما يغلب على الظن صحته إذا ضاق الزمان عن تفتيشه ما قاله الشافعي رضي الله عنه قال: إذا رأيت الكتاب فيه إلحاق وإصلاح فاشهد له بالصحة . وقال بعضهم : لا يضيء الكتاب حتى يظلم ، يريد[٥] إصلاحه »[٦].

---

(١) المنتظم (١٠ : ٢٤١) ، ومعجم الأدباء (٤ : ٢٣٢) ، ووفيات الأعيان(١ : ٢٨٦).

(٢) معجم الادباء (٢ : ٢٣) .

(٣) معجم الادباء (٣ : ٣) ، ونكت الهميان (ص ١٣٤) .

(٤) الفخري لابن الطقطقي (ص ٣ ، طبعة اهلورد) .

(٥) قوله يريد ، ضميره راجع الى بعضهم .

(٦) تذكرة السامع والمتكلم في ادب العالم والمتعلم : لابن جماعه الكناني (١٧٢-١٧٣ ، حيدر آباد ١٣٥٣ هـ) .

وقف الكتب

« وقف » الكتب ، من مستحسن الأفعال التي يُقدم عليها بعض الناس ، تقرباً إلى الله تعالى، واكتساباً للسمعة الطيبة والذكر الحسن، ومحافظةً على كتبهم من أن تتبدد وتتبعثر بعد وفاتهم .

وسيقف القارىء في مطاوي هذا الكتاب ، على أخبار شتى من هذا القبيل ، لا نرى موجباً لسردها الآن ، وانما نورد في هذا المقام بعض ما لم يرد ذكره في سياق الكتاب ، وكله ينطق بنبل هذا الموقف الانساني الذي يقفه جماعة من العلماء والادباء ، فأضحت كتبهم الموقوفة منهلاً صافياً لطلاب العلم .

من ذلك أن الطبيب أبا المجد بن أبي الحكم، المتوفى سنة وخمسمائة[1]، كان يتردد إلى البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي في دمشق ، فيأتي « ويجلس في الايوان الكبير الذي للبيمارستان ، وجميعه مفروش ، ويحضر كتب الاشتغال . وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية وكانت في الخرستانين[2] اللذين في صدر الايوان ، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون اليه ويقعدون بين يديه ، ثم تجري مباحث طبية ويقرىء التلاميذ ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات»[3] .

ومثل ذلك ما ذكر عن المهذب بن الدخوار الطبيب ، المتوفى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) ، فقد « وقف داره وكتبه على الأطباء »[4].

---

(١) كذا ما في عيون الأنباء (٢ : ١٥٥) .

(٢) الخرستان : الخزانة . (راجع في ذلك :
Dozy, Supplément aux Dictionnaires Arabes I. 362)

(٣) عيون الأنباء (٢ : ١٥٥) .

(٤) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : لابن تغري بردي (٦ : ٢٧٧ طبعة دار الكتب المصرية) .

وكان محمد بن أبي نصر الحميدي الأندلسي، المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥م) قد « وقف كتبه فانتفع الناس بها »(١) . ومثله الحسن بن ابراهيم المالقي النحوي، المتوفى سنة نيف وعشرين وخمسمائة ، فقد وقف كتبه بنيسابور(٢) .

وذكر ابن الجوزي في ترجمة أبي الحسن منتخب بن عبد الله الدوامي المستظهري ، المتوفى سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) انه « وقف كتباً على أصحاب الحديث ، منها مسند الامام أحمد بن حنبل »(٣).

ومما ذكره في ترجمة عبدالله بن أحمد بن حمدويه البزاز من أهل مرو،المتوفى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) انه « سافر إلى غزنة وأقام بها مدة ، واشترى كتباً كثيرة ، ورجع إلى مرو فبنى خزانة الكتب في رباط بناه باسم أصحاب الحديث وطلابه ،من خاصة ماله ، ووقف كتبه فيه »(٤).

وأشار ابن الجوزي أيضاً ، إلى أن علي بن عساكر البطائحي المقرىء ، المتوفى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) قد وقف كتبه(٥).

واستقصاء وقف الكتب أمر يطول . ففي كل عصر ومصر أخبار من هذا القبيل . ولن ننسى ما صنعه في عصرنا هذا ، جماعة من كبار العلماء والأعيان ، لا يتسع المقام لذكر جميعهم ، وانما نذكر منهم العلامة نعمان الآلوسي (المتوفى سنة ١٨٩٩ م) فقد وقف خزانته على المدرسة المرجانية ببغداد . ثم نُقلت بعدئذ إلى خزانة الأوقاف العامة ببغداد .

ومن أجلّ الخزائن التي وقفها أصحابها ، وأحفلها بأمهات الكتب النفيسة ، « الخزانة التيمورية » لصاحبها العلامة الكبير أحمد باشا تيمور (المتوفى سنة

---

(١) الكامل في التاريخ (١٠ : ١٧٣) .
(٢) بغية الوعاة (ص ٢١٥) .
(٣) المنتظم (٩ : ١٨٣) .
(٤) المنتظم (١٠ : ١١٣) .
(٥) المنتظم (١٠ : ٢٦٧) .

١٩٣٠) ، و « الخزانة الزكية » لشيخ العروبة أحمد زكي باشا (المتوفى سنة ١٩٣٤) . وكلتا الخزانتين مما تزدان بها اليوم دار الكتب المصرية في القاهرة .

ونظير ذلك ، خزانة الشنقيطي (المتوفى سنة ١٣٢٢ هـ) ، وخزانة الأمير عمر طوسون (١٩٤٤) ، وخزانة الأب أنستاس ماري الكرملي (١٩٤٧) . فقد وقفت الأولى على دار الكتب المصرية، والثانية على خزانة البلدية بالاسكندرية ، والثالثة على دير الآباء الكرمليين ببغداد .

حرق الكتب

لعلّ « الحرق » من أنكى البلايا التي تحيق بالكتب ، وأشدّها هولاً وأبلغها ضرراً على مرّ العصور والازمان فلقد التهمت النيران ألوفاً لا تحصى من المجلدات وأفنتها على بكرة أبيها . ولم تكن النار تجد إلى الكتب سبيلاً ، لو لم يعضدها في ذلك جهل الناس وغباوتهم وتعصبهم وإهمالهم .! ولو حاولنا استقصاء الاخبار الواردة في هذا الشأن،لطال بنا الكلام وتشعب ، هذا إلى تعذّره علينا ، لا سيما وإننا في فصل «تمهيدي» لا يسمح لنا إلا بايراد نتف من تلك الاخبار الكثيرة ، فنجتزىء بالقليل ، وبه يُستدل على الكثير .

من ذلك ، ما حصل في سنة ٥٩٥ هـ (١١٢١ م) من احتراق جامع اصفهان، فقد « كان فيه من المصاحف الثمينة نحو خمسمائة مصحف ، من جملتها مصحف ذُكر انه بخط أبي بن كعب »[١] .

ومثل ذلك ، احتراق خزانة سابور ببغداد . وسيرد وصف ذلك الحريق في كلامنا على هذه الخزانة الجليلة التي كانت تُعرف بـ « دار العلم » .

وممن احترقت كتبه ، فأصاب العلم باحتراقها خسارة فادحة ، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي الانصاري الاندلسي ، المعروف بابن الملقن ، المتوفى

---

(١) المنتظم (٩ : ٢٢٤) .

سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠١ م)، فقد ذكر مترجموه أنه «أكثر أهل زمانه تصنيفاً. وبلغت مصنفاته نحو ثلثمائة مصنف. وكان جمّاعة للكتب جداً، ثم احترق غالبها قبل موته. وكان ذهنه مستقيماً قبل أن تحترق كتبه، ثم تغير حاله بعد ذلك»[1].

وأشار ياقوت إلى ما صنعه أبو حيان التوحيدي بكتبه قائلاً: «وكان أبو حيان قد أحرق كتبه في آخر عمره لقلة جدواها، وضناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته. وكتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد، يعذله على صنيعه ويعرّفه قبح ما اعتمد من الفعل وشنيعه، فكتب اليه أبو حيان يعتذر من ذلك ... »[2]. ثم أورد ياقوت رسالة أبي حيان برمتها، ومنها يُستدل على أنه أحرق بعض كتبه بالنار، وغسل بعضها بالماء[3].

فأي ثروة أدبية كنا نحرزها، لو أن كتب أبي حيان سلمت كلها وانتهت الينا؟ فان هذه البقية الباقية منها، التي أبت إلا أن تفلت من ألسنة النار ومن فعل الماء، تدل على قيمة هذه المصنفات، وعلى عظم الخسارة بفقد أخواتها.

وقد منيت اللغة العربية بخسارة اخرى، بحرق كتاب «العين» المنسوب أصله إلى الخليل بن أحمد. فقد ورد في ترجمته، أنه «اشترى جارية نفيسة، ففارت ابنة عمه وقالت: والله لأغيظنه! وإن غظته في المال لا يبالي، ولكني أراه مكباً ليله ونهاره على هذا الكتاب. والله لأفجعنه به! فأحرقته. فلما علم، اشتد أسفه، ولم يكن عند غيره منه نسخة»[4].

وقد كاد أمر هذا الكتاب – بعد حرقه – يُطوى من صحيفة الوجود،

---

(١) شذرات الذهب (٧ : ٤٥) والضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي (٦ : ١٠٥).
(٢) معجم الادباء (٥ : ٣٨٦) وبغية الوعاة (ص ٣٤٩).
(٣) سيأتي موضوع «غسل الكتابة والكتب».
(٤) بغية الوعاة (ص ٢٤٥).

لولا أن الليث بن نصر بن سيار ، تلميذ الخليل، قد أقبل على حفظ هذا الكتاب في حياة مؤلفه ، فحفظ منه النصف . فلما مات أستاذه « أملى النصف من حفظه، وجمع علماء عصره وأمرهم أن يكملوه على نمطه . وقال لهم : مثلوا واجتهدوا . فعملوا هذا التصنيف الذي بأيدي الناس »[١].

وفي كتب التاريخ والأخبار ، حوادث جمة تدل على ما للتعصب من يد طولى في إحراق الكتب . ولقد ضاع كثير من الكتب بسبب الاختلافات المذهبية . فلا يقر قرار فرقة من الفرق إلا باتلاف كتب الاخرى . وليس في الاتلاف والافناء ما هو أقوى من النار ، فانها لا تبقي ولا تذر !

ومما ورد في كتاب إلى الخليفة القادر بالله ببغداد ، من السلطان محمود بن سبكتكين ، انه في سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م)، حارب الباطنية والمعتزلة والروافض فصلب منهم جماعة ، « وحول من الكتب خمسون حملاً ، ما خلا كتب المعتزلة والفلاسفة والروافض ، فانها أحرقت تحت جذوع المصلبين ، اذ كانت أصول البدع »[٢] .

ومما صار طعمة للنار ، كتب المانوية . فانه في نصف شهر رمضان من سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) « احرق على باب العامة[٣] صورة ماني وأربعة أعدال من كتب الزنادقة ، فسقط منها ذهب وفضة مما كان على المصاحف له قدر »[٤].

وللجهل ضلع قوية في هذا الأمر . وسيأتي بنا في تضاعيف هذا الكتاب ، ما صنعه الاعراب سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) بخزانتين من خزائن كتب البصرة. فقد عمدوا الى احراقها وازالتها من عالم الوجود[٥].

---

(١) بغية الوعاة (ص ٢٤٥) .
(٢) المنتظم (٨ : ٤٠) ، ومعجم الأدباء (٢ : ٣١٥) .
(٣) احد ابواب دار الخلافة ببغداد .
(٤) المنتظم (٦ : ١٧٤) .
(٥) انظر كلامنا عليهما . الأولى بعنوان « دار كتب بالبصرة » ، والثانية « دار كتب الوزير ابن شاه مردان بالبصرة » .

وسيرد وصفنا لحرق « خزانة عبد السلام الجيلي » في موضعه من الكتاب .

ومن حوادث الحرق الخطيرة التي جرت للكتب ، وهي ما يأسف لوقوعها كل محب للكتب متطلع اليها ، ما ذكره المقريزي وغيره من المؤرخين ، بصدد احتراق خزانة الكتب في قلعة الجبل بمصر ، قال : « وقع بها الحريق ، يوم الجمعة رابع صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة (١٢٩٢م) ، فتلف بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيء كثير جداً كان من ذخائر الملوك ، فانتهبها الغلمان وبيعت أوراقاً محرقة ظفر الناس منها بنفائس غريبة ما بين ملاحم وغيرها وأخذوها بأبخس الأثمان ».[١]

وقد وصف الاستاذ المؤرخ الكبير حبيب زيات[٢]، كيف احرقت خزانة دير صيدنايا قرب دمشق في القرن التاسع عشر للميلاد . وقد تظافر على حرقها التعصب والجهل . وهي لعمري حادثة يؤسف أشد الاسف لوقوعها في هذه الازمنة المتأخرة .

غرق الكتب

وغرق الكتب وتغريقها، مما ابتليت به الكتب في مختلف العصور . والاخبار التاريخية الواردة في هذا الشأن لا يمكن إيرادها بوجه الاستقصاء والحصر . والذي نذكره من النصوص انما هو للتدليل والتمثيل .

من ذلك ما أورده ياقوت في ترجمة أبي عمرو الهروي ، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

---

(١) خطط المقريزي (٣ : ٣٤٥) . وذكرت هذه الحادثة باختصار في النجوم الزاهرة (٨ : ٣٣) ، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (؛ : ٧٧٧ طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة) ، والبداية والنهاية في التاريخ لابن كثير (١٣ : ٣٢٧) .

(٢) راجع : مكتبة دير صيدنايا لحبيب زيات (المشرق ٢ [١٨٩٩] ص ٥٨٦ـ٥٩٠).
وخزائن الكتب في دمشق وضواحيها : له (ص ١١٧ـ١١٨ ، القاهرة ١٩٠٢) .
وخبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا : له (ص ٢٥٨ ـ ٢٦٠ ، حريصا ١٩٣٢) .

(٨٦٨ م) انه « اتصل بيعقوب بن الليث الامير ، نخرج معه إلى نواحي فارس ، وحمل معه كتاب الجيم ، فطغى الماء من النهروان على معسكر يعقوب ، فغرق الكتاب فيما غرق من المتاع »[1].

و « كتاب الجيم » هذا ، ذكره ياقوت قبيل هذا الخبر بقوله انه « صنف كتاباً كبيراً رتبه على المعجم ، ابتدأ فيه بحرف الجيم ، لم يسبق الى مثله ، أودعه تفسير القرآن وغريب الحديث . وكان ضنيناً به ، فلم ينسخه أحد واختزنه بعد وفاته بعض أقاربه ، فلم يُنتفع به »[2].

وهكذا طُويت صفحة هذا الكتاب وضاع كل أمل في العثور على نسخةٍ منه .

ومما حكاه ياقوت في ترجمة أبي العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى الربعي الموصلي الاصل البغدادي ، المتوفى سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦ م) ، انه دخل الاندلس، واتصل بالمنصور بن أبي عامر، فأكرمه واستوزره « وألف للمنصور كتباً منها : كتاب سماه الفصوص ، على نحو كتاب النوادر لابي علي القالي . واتفق لهذا الكتاب حادثة غريبة ، وهي ان أبا العلاء لما أتمه ، دفعه لغلام له يحمله بين يديه وعبر نهر قرطبة ، فزلت قدم الغلام، فسقط في النهر هو والكتاب. فقال في ذلك ابن العريف ، وكان بينه وبين أبي العلاء شحناء ومناظرات :

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيلٍ يغوص

فضحك المنصور والحاضرون . فلم يَرُعْ ذلك صاعداً ، وقال على البديهة مجيباً لابن العريف :

عاد إلى معدنه إنما توجد في قعر البحار الفصوص »[3].

وقد أشار بعض المؤرخين في ترجمة أبي بكر أحمد بن جعفر القطيعي ،

---

(١) معجم الأدباء (٤ : ٢٦٣) .
(٢) معجم الأدباء (٤ : ٢٦٢ ـ ٢٦٣) .
(٣) معجم الأدباء (٤ : ٢٦٦) .

المتوفى سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) انه « لما غرقت القطيعة[١] بالماء الأسود ، غرق بعض كتبه ، فاستحدث عوضها »[٢].

ومما ورد في ترجمة أحمد بن محمد ابن دوست البزاز ، المتوفى سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) قول الأزهري فيه : « رأيت كتبه كلها طرية ، وكان يذكر أن أصوله العتق غرقت »[٣].

وأخبار غرق الكتب أكثر من أن يحيط بها الحصر أو تتسع لسردها صحائف قليلة كهذه . ففي كل عصر ومصر نقف على أخبار وحوادث من هذا القبيل، وكلها يمثل ما حلّ بالكتب من رزايا وويلات. فمن أشهر الحوادث القديمة في هذا الشأن ،ما حصل ببغداد حين سقوطها بيد هولاكو سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م). فقد ذكر بعض المؤرخين ، ان المغول « رموا كتب مدارس بغداد في بحر الفرات[٤] ، فكانت لكثرتها جسراً يمرون عليها ركاباً ومشاةً . وتغيّر لون الماء بمداد الكتابة إلى السواد »[٥].

وقال ابن خلدون في هذا الصدد ، ان المغول « استولوا من قصور الخلافة وذخائرها على مالا يبلغه الوصف ولا يحصره الضبط والعد . والقيت كتب العلم التي بخزائنهم جميعها في دجلة، وكانت شيئاً لا يُعبّر عنه، مقابلةً في زعمهم بما فعله المسلمون لأول الفتح في كتب الفرس وعلومهم »[٦].

---

(١) ينسب الى « قطيعة الرقيق » وهي محلة في أعلى غربي بغداد . انظر : الأنساب (وجه الورقة ٤٥٩) ، وتاريخ بغداد للخطيب (٤ : ٧٣) ، والمنتظم (٧ : ٩٣)، ومعجم البلدان (٤ : ١٤١) .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب (٤ : ٧٣ ـ ٧٤) ، والمنتظم (٧ : ٩٣) .

(٣) المنتظم (٧ : ٢٨٤) .

(٤) يريد : نهر دجلة .

(٥) الاعلام بأعلام بيت الله الحرام : لقطب الدين النهروالي (ص ١٨١ ـ ١٨٢ طبعة وستنفلد . ليبسك ١٨٥٧) . ولا يخلو الخبر المنقول أعلاه من مبالغة .

(٦) تاريخ ابن خلدون (٣ : ٥٣٧) .

وقد أعاد ابن خلدون هذا القول في موطن آخر من تاريخه ، وزاد عليه أنهم رموها في دجلة ، مقابلةً لما فعله المسلمون « بكتب الفرس عند فتح المدائن »[١].

ومن الأحداث المتأخرة في غرق المخطوطات الشرقية ، ما ذكره جرجي زيدان في ترجمة السمعاني اللبناني ، المتوفى سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) قال انه « تولى العمل في مكتبة الفاتيكان ، يستخرج خلاصة ما فيها ، ويهذب الكتب الدينية الشرقية . وأظهر اقتداراً في الآداب الشرقية . فكلفه البابا أن يذهب إلى الشرق ينقب فيه عن الكتب والمخطوطات ويحملها إلى رومية . ففعل وتفقد ديور الشرق في مصر وسورية والعراق . وحمل ما وصلت اليه يده من الكتب الفلسفية واللاهوتية والتاريخية وغيرها ما لا تُعرف قيمته . يُقال انه حملها في ثلاث سفن ، ومن جملتها كتب قبطية وعربية من ديور القطر المصري ، فغرق منها اثنتان ، وكانت السفينة الباقية وحدها كافية لاعجاب أهل الفاتيكان »[٢] .

دفن الكتب

وهذه آفة أخرى من آفات الكتب ، مردّها الجهل ، أو التعصب ، أو قلة التدبير ، فأضاعت علينا طائفة كبيرة من التصانيف . وقد ندّد بعض كبار العلماء بسوء فعل من دفن الكتب ، وأنكروا عليه ذلك كل الانكار . ولا بأس بأن نورد كلام ابن الجوزي في هذا الصدد ، فهو على طوله ، يغنينا عن الاستشهاد بغيره من النصوص القديمة . قال : « ولقد ذاكرتُ بعض مشايخنا ما يُروى عن جماعة من السادات ، انهم دفنوا كتبهم . فقلتُ له : ما وجه هذا ؟ فقال : أحسن ما نقول أن نسكت ! يشير إلى أن هذا جهل من فاعله . وتأوّلت أنا لهم

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٥ : ٥٤٣) .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان (٣ ، طبعة سنة ١٩٣١ ، ص ٢٠٦) .

فقلت : لعل ما دفنوا من كتبهم ، فيها شيء من الرأي ، فما رأوا أن يعمل الناس به . ولقد روينا في الحديث ، عن أحمد بن أبي الحواري : انه أخذ كتبه فرمى بها في البحر وقال : نِعمَ الدليل كنتِ ، ولا حاجة لنا إلى الدليل بعد الوصول إلى المدلول. وهذا إذا أحسنا به الظن. قلنا : كان فيها من كلامهم ما لا يرتضيه، فأما إذا كانت علوماً صحيحة ، كان هذا من أفحش الاضاعة . وأنا وإن تأولت لهم هذا ، فهو تأويل صحيح في حق العلماء منهم ، لأنا قد روينا عن سفيان الثوري : انه قد أوصى بدفن كتبه ، وكان ندم على أشياء كتبها عن قوم . وقال: حملني شهوة الحديث ــ وهذا لأنه كان يكتب عن الضعفاء والمتروكين ــ فكأنه لما عسر عليه التمييز ، أوصى بدفن الكل . وكذلك من كان له رأي من كلامه ثم رجع عنه ، جاز أن يدفن الكتب التي فيها ذلك . فهذا وجه التأويل للعلماء . فأما المتزهدون الذين رأوا صورة فعل العلماء ودفنوا كتباً صالحة لئلا تشغلهم عن التعبد ، فانه جهل منهم ، لانهم شرعوا في إطفاء مصباح يضيء لهم مع الاقدام على تضييع مالا يحل . ومن جملة من عمل بواقعة دفن كتب العلم ، يوسف بن أسباط ، ثم لم يصبر عن التحديث ، فخلط، فعد في الضعفاء. أنبأنا عبدالوهاب بن المبارك ، قال : أخبرنا محمد بن المظفر الشامي ، قال : اخبرنا أحمد بن محمد العتيقي ، قال : حدثنا يوسف بن خالد الخلال ، قال : سمعتُ شعيب بن حرب يقول : قلت ليوسف بن أسباط : كيف صنعت بكتبك ؟ قال : جئت إلى الجزيرة ، فلما نضب الماء دفنتها حتى جاء الماء عليها ، فذهبتْ . قلتُ : ما حملك على ذلك ؟ قال : أردت أن يكون الهمّ همّاً واحداً . قال العقيلي : وحدثني آدم ، قال : سمعت البخاري قال : قال صدقة : دفن يوسف بن أسباط كتبه ، وكان بعد يغلب عليه، فلا يجيء كما ينبغي . وقال المؤلف : قلت : الظاهر ان هذه كتب علم ينفع ، ولكن قلة العلم أوجبت هذا التفريط الذي قصد به الخير ، وهو شر . فلو كانت كتبه من جنس كتب الثوري ، فان فيها عن ضعفاء ولم يصح له التمييز، قرب الحال إنما تعليله بجمع الهم ، هو الدليل على أنها ليست كذلك . فانظر إلى قلة العلم ،

ماذا تؤثر مع أهل الخير »(١).

ثم عاد ابن الجوزي إلى هذا الموضوع ، فلخص وأضاف ، وإليك ما قال :

« وفي الناس من غلب عليه قصر الأمل وذكر الآخرة ، حتى دفن كتب العلم . وهذا الفعل عندي من أعظم الخطأ وإن كان منقولاً عن جماعة من الكبار . ولقد ذكرت هذا لبعض مشايخنا فقال : أخطأوا كلهم . وقد تأولت لبعضهم بانه كان فيها أحاديث عن قوم ضعفاء ولم يميزوها ، كما روي عن سفيان (الثوري) في دفن كتبه ، أو كان فيها شيء من الرأي فلم يحبوا أن يؤخذ عنهم ، فكان من جنس تحريق عثمان رضي الله عنه للمصاحف ، لئلا يؤخذ بشيء مما فيها من المجتمع على غيره . وهذا التأويل يصح في حق علمائهم . فأمل غسل أحمد بن أبي الحواري كتبه(٢)، وابن أسباط ، فتفريط محض »(٣) .

غسل الكتابة والكتب

وغسل الكتابة ، أسلوب آخر من أساليب إبادة الكتب وإتلافها . وذلك ان بعض الناس كانوا يعدمون تآليفهم أو تآليف غيرهم ، فيغسلون كتابتها ، بأن يضعوا الكتب أو الأوراق المخطوطة في الماء مدةً من الزمن ، فينحلّ حبرها وتطمس كتابتها وتشوش معالمها . وذلك للتخلص مما فيها من أقوال وآراء لا يرغب في الابقاء عليها ولا في الاحتفاظ بها . فكان من يقدم على إتلاف تلك الكتابات ، إنما غرضه التبرؤ مما كتب أو التوبة إلى الله عما صنع ، أو تلافي ما فرط منه ، أو لدواعٍ اخرى مختلفة . من ذلك ما حكاه ابن حجر العسقلاني ، ان صدر الدين ابن الوكيل ، المتوفى سنة ٧١٦ هـ (١٣١٦ م) كان « إذا مرض

---

(١) صيد الخاطر : لابن الجوزي (ص ١٨ – ١٩ طبع القاهرة سنة ١٩٢٧).

(٢) سيأتي الكلام على « غسل الكتابة والكتب » في الفصل القادم .

(٣) صيد الخاطر (ص ١٣٩) .

غسل ما نظمه من الشعر »[١] ، فكأن منظوماته أشعرته بأنها تنافي المطالب الدينية ، وتحول بينه وبين رضا الله عنه .

ونظير ذلك ، ما قاله ابن الجوزي في ترجمة أبي سعد محمد بن علي بن المطلب، المتوفى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) انه « قال شعراً كثيراً ، إلا انه كثير الهجو . ثم مال عن ذلك واكثر الصوم والصلاة والصدقة ، وروى الحديث عن ابن بشران وابن شاذان وغيرهما . وغسل مسودات شعره وأحرق بعضها بالنار »[٢].

ومثله ما ذكره العسقلاني عن علي بن الحسن بن عبدالله بن الجابي ، المتوفى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) من أنه « كان قد أغري بالكيمياء ، وحصل فيها كتباً كثيرة جداً ، وكان يزعم أنها صحت معه . قال ابن الجزري : كان صاحبي، وكان يعرف الكيمياء معرفة تامة . ولما مات ، توجه الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية فاشترى منها جملة وغسلها في الحال ، وقال : هذه الكتب كان الناس يضلون بها وتضيع أموالهم ، فافتديتهم بما بذلته في ثمنها »[٣].

ولا يخفى أن ما كان يصبو اليه الكيمياويون في الأزمنة القديمة ، هو البحث عن الاكسير للتوصل به إلى استخراج الذهب من المعادن الخسيسة ، وهو أمل برّاق خلاّب لم تحققه الأيام !

والأخبار التي وقفنا عليها في موضع غسل الكتابة والكتب كثيرة مختلفة . من ذلك ما ذكره ياقوت الحموي ، في ترجمة المبارك بن المبارك أبي طالب الكرخي بن أبي البركات الفقيه الشافعي ، المتوفى سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) بقوله انه كان « أوحد زمانه في حسن الخط على طريقة علي بن هلال بن البواب. سمعت جماعة يحكون انه لم يكتب أحد قبله ولا بعده مثله في قلم الثلث ، حتى رأيت من

---

(١) الدرر الكامنة (٤ : ١٢٠) .
(٢) المنتظم (٩ : ٢٤) .
(٣) الدرر الكامنة (٣ : ٣٩).

يغالي فيه فيقول انه كتب خيراً من ابن البواب . وكان ضنيناً بخطه جداً ، فلذلك قل وجوده . وكان إذا اجتمع عنده شيء من تجويداته يستدعي طستاً ويغسله . فأما إذا استفتي فانه كان يكسر قلمه ويجهد في تغيير قلمه »[١].

ومما نقله ياقوت في ترجمة ابن الدهان الضرير الواسطي المعروف بالوجيه ، المتوفى سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) قوله : « وحدثني محب الدين محمد بن النجار قال : حضر الوجيه النحوي بدار الكتب التي برباط المأمونية[٢]، وخازنها يومئذ أبو المعالي أحمد بن هبة الله ، فجرى حديث المعرّي ، فذمه الخازن وقال : كان عندي في الخزانة كتاب من تصانيفه فغسلته . فقال له الوجيه : وأي شيء كان هذا الكتاب ؟ قال كان كتاب نقض القرآن[٣] . فقال له : أخطأت في غسله . فعجب الجماعة منه وتغامزوا عليه واستشاط ابن هبة الله وقال له : مثلك ينهى عن مثل هذا ؟ قال نعم ! لا يخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن أو خيراً منه أو دونه ، فان كان مثله أو خيراً منه ، وحاش لله أن يكون ذلك ، فلا يجب أن يفرط في مثله . وإن كان دونه ، وذلك مالا شك فيه ، فتركه معجزة للقرآن فلا يجب التفريط فيه . فاستحسن الجماعة قوله ، ووافقه ابن هبة الله على الحق وسكت »[٤].

ومما ورد في معجم الأدباء بهذا الصدد ، أن ياقوتاً ، سأل علي بن الحسن المعروف بشميم الحلي النحوي اللغوي الشاعر ، المتوفى سنة ٦٠١هـ (١٢٠٤م) ، كيف انه لم يصنف مقامات يدحض بها مقامات الحريري ، فقال له : « يا بني اعلم : ان الرجوع إلى الحق خير من التمادي على الباطل . عملت مقامات

---

(١) معجم الأدباء (٦ : ٢٣٠) .

(٢) سيأتي الكلام عليها في هذا الكتاب .

(٣) نظنه يريد به كتاب « الفصول والغايات في معارضة السور والآيات » للمعري . وقد طبع بعضه في القاهرة .

(٤) معجم الأدباء (٦ : ٢٣٥) .

مرتين ، فلم ترضني ، فغسلتها ، وما أعلم ان الله خلقني إلا لأظهر فضل ابن الحريري ... »[١].

وفي إيراد مثل هذه النصوص، ما يميط اللثام عن أغلب الدواعي لغسل الكتب ، وفي ما نقلناه بعض تلك الدواعي ، وهناك غيرها . من ذلك ما كتبه كمال الدين الأدفوي في ترجمة محمد بن محتوق الشيباني النصيبي الشاعر ، المتوفى سنة ٧٠٧هـ (١٣٠٧ م) قال : « وحضر مرة الشيخ بهاء الدين القفطي من إسنا ، فتوجه النصيبي اليه ، وعرّفوا الشيخ عنه انه فاضل ، فصار يسأله عن لغةٍ ، فيذكر شيئاً من عنده ويستشهد عليه بشعره ، فيكتب الشيخ ما يقوله ، الى ان اجتمعت عنده كراريس . فلما قصد التوجه جاء اليه وقال : يا سيدنا ، لا تعتمد على هذه الكراريس ، فاني ارتجلتها ، فشق على الشيخ وغسلها »[٢].

ومن أقدم الأخبار الواردة في غسل الكتابة ، ما رواه القاضي أبو علي المحسن التنوخي ، المتوفى سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) عن أبيه ، في معرض كلامه على المنجمين وما قد يتأتى لهم من توفيقات وكشوف ، قال : « هذا أبي ، حوّل مولد نفسه السنة التي مات فيها فقال لنا : هي سنة قطعٍ على مذهب المنجمين ، وكتب بذلك إلى بغداد إلى أبي الحسن بن البهلول القاضي صهره ينعى نفسه اليه ويوصيه ، فلما اعتل أدنى علة وقبل أن تتحكم علته ، أخرج التحويل ونظر فيه طويلاً ، وأنا حاضر ، فبكى وأطبقه واستدعى كاتبه وأملى عليه وصيته التي مات عنها وأشهد فيها من يومه ، فجاءه أبو القاسم غلام زُحل المنجم فأخذ يطيب نفسه ويورد عليه شكوكاً فقال : يا أبا القاسم ، لستَ ممن يخفى هذا عليه فأنسبك إلى غلطٍ ، ولا أنا ممن يجوز عليه هذا فتستغفلني . وجلس فواقفه على الموضع الذي خافه ،

---

(١) معجم الأدباء (٥ : ١٣٢) .

(٢) الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد : للأدفوي (ص ٣٥٤ ، القاهرة ١٩١٤) .

ثم قال له أبي: دعني من هذا، بيننا شك في أنه إذا كان يوم الثلاثاء العصر لسبع بقين من الشهر فانه ساعة قطع عندهم؟ فأمسك أبو القاسم واستحيا منه أن يقول نعم، فأمسك أبو القاسم غلام زحل لأنه كان خادماً لأبي . وبكى أبي طويلاً، ثم قال: يا غلام، الطست ! فجاءه به فغسل التحويل وقطعه ، وودع أبا القاسم توديع مفارق . فلما كان في ذلك اليوم العصر بعينه مات كما قال »[١].

وقد كان « غسل الكتابة » يعبر عنه أحياناً بلفظ « محو الكتابة » . قال المروذي في كتاب القصص : « عزم حسن بن البزاز وأبو نصر بن عبد المجيد وغيرهما ، على أن يجيئوا بكتاب المدلسين الذي وضعه الكرابيسي ، يطعن فيه على الأعمش وسليمان التيمي . فمضيت اليه في سنة أربع وثلاثين (ومائتين) فقلت : أن كتابك ، يريد قوم أن يعرضوه على أبي عبدالله[٢] ، فأظهر أنك قد ندمت عليه . فقال : ان ابا عبدالله رجل صالح ، مثله يوفق لاصابة الحق . قد رضيت أن يعرض عليه ، لقد سألني أبو ثور : أن أمحوه ، فأبيت ... »[٣].

ومما يحسن ذكره من النكت الداخلة في هذا الباب ، ما ورد في ترجمة علي بن عيسى الربعي النحوي ، المتوفى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) ، انه ألف فيما ألف « كتاب شرح سيبويه » الا انه غسله ، وذاك أن أحد بني رضوان التاجر ، نازعه في مسألة ، فقام مغضباً وأخذ شرح سيبويه وجعله في اجانة وصب عليه الماء وغسله وجعل يلطم به الحيطان ويقول : لا أجعل أولاد البقالين نحاة »[٤].

---

(١) نشوار المحاضرة للتنوخي (١ : ٢٦٩ طبعة مرجليوث . القاهرة ١٩٢١) .

(٢) هو الامام أحمد بن حنبل .

(٣) ترجمة الامام أحمد (١٦٤ - ٢٤١ هـ) من تاريخ الاسلام : للذهبي . (ص ٢٨ بتحقيق أحمد محمد شاكر . القاهرة ١٩٤٦) .

(٤) معجم الأدباء (٥ : ٢٨٤) .

ونقل ابن الجوزي في ترجمة أبي غالب شجاع بن شجاع الذهلي الحافظ ، المتوفى سنة ٥٠٧ هـ (١١١٣ م) انه « كان مفيد أهل بغداد والمرجوع اليه في معرفة الشيوخ . وشرع في تتمة تاريخ بغداد ، ثم غسل ذلك قبل موته بعد أن أرّخ بعد الخطيب »[١].

(١) المنتظم (٩ : ١٧٦) .

الباب الثاني

خزائن كتب العراق قبل الميلاد

دور السجلات (Archives)

لا شك في أن « خزائن الكتب »، لم تكن في أول أمرها ، على النحو الذي نعهده اليوم من تبويب وتنسيق وفهرسة وبناءٍ خاص بها . بل كانت ، ككل شيء ، يبدأ ساذجاً ، ثم يطرأ عليه التحسين ، وينال من عناية القوم والتفاتهم ما يسمو به إلى درجات الكمال .

وخزائن الكتب العراقية ، التي سبق إنشاؤها زمن الميلاد ، مما ينطبق عليها هذا القول . فلقد كانت حينذاك مجموعاتٍ من المدوّنات الرسمية ، والنصوص الدينية ، والقطع الأدبية والتاريخية ، وما يتعلق بالحياة اليومية من بيع وشراء وما إلى ذلك .

كانت هذه المدونات تُجمع في مواضع معلومة من « المعابد » و « القصور الملوكية » وبعض دُور الخاصة . ويطلق عليها « دور السجلات » أو « بيت الرُّقُم » .

وكان أمر الثقافة عند البابليين منوطاً بالكهنة ، الذين يستمدون علمهم من « نَبـو » مبتدع الكتابة والرسائل وصنوف أبواب المعرفة ، وسيد « بيوت الألواح » (أي الكتب) ، والمراد بذلك « خزائن الكتب » .

يحتوي المعبد عادةً ، على حجرةٍ تضم مجموعةً من الألواح ، أو ما يُطلق عليه اسم « خزانة كتب المدرسة » ليستعملها تلامذة الكهنة . وما عدا هذه الخزانة المدرسية ، حجرة أوسع تخزن فيها مجاميع الألواح المكتوبة ، التي فيها مدونات الرُّقى والكهانة والفأل ونصوص دينية وسحرية شتى .

ومن مشتملات المعبد ما نسميه بِـ « ديوان السجلات » ، فيه تجمع الوثائق المتعلقة بشؤون المعبد ، كقوائم الأوقاف والحاصلات العائدة له . هذا إلى نسخ من المناشير والأوامر الملوكية ، والمراسلات مع الملوك الأجانب ، وجداول بالضرائب ، والقرارات القضائية ، والوثائق الرسمية من مختلف الصنوف(١).

وربما كان الكاهن هو خازن كتب المعبد . ومن واجباته أن يُعنى بحفظ الألواح ، وأن يستعيض عن الألواح المهشمة أو الطامسة الكتابة بألواح جديدة سليمة الكتابة . ومما عليه أيضاً ، أن يهتم – كما هي الحال في خزّانة الكتب في العصور الحديثة – بتوسيع الخزانة ، بالحصول على نسخ الوثائق القديمة من الخزائن الاخرى ، أو بايفاد النساخ إلى المدن البعيدة لينسخوا له الألواح ويأتوا بها إليه(٢).

إن جميع ما في هاتيك الدور التي أسميناها بِـ « دُور السجلات » ، مكتوب بالقلم المسماري على رُقُم الطين . والطين من أقدم المواد التي اتّخذت للكتابة عليها في العراق . فلم يكن الناس في تلك العصور الغابرة على علم بصناعة الورق !

وبوسعنا الآن أن نقول ، انه لم يكن « معبد » من المعابد السومرية والبابلية والآشورية ، يخلو من مثل هذه السجلات(٣) . وما قلناه عن « المعابد » نقوله عن « القصور الملوكية » . ففي كل قصر « دار للسجلات » تجمع فيها ما يرد إلى القصر من رسائل ، وما يتعلق به من حسابات وأخذ وعطاء وغير ذلك مما يصعب تحديد مضامينه .

---

(١) Budge (E. A. W.), Babylonian Life and History. (London, 1925; p. 199-200).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٠١) .

(٣) Jastrow (M.), Did the Babylonian Temples have Libraries ? (JAOS. , XXVII¹ , 1906 ; pp. 147-182. ref. p. 149).

وما « دور السجلات » هذه ، إلا « خزائن كتب » من الطراز القديم !

ولكن علم الآثار ، لم يتوصل بعدُ إلى معرفة « جميع » المعابد والقصور الملوكية القديمة في مدن العراق الدارسة ، ليتسنى لنا إيراد ثبتٍ كامل بدور السجلات التي هي بمثابة خزائن كتب تلك العصور كما ذكرنا .

وما عُرف منها حتى الآن ليس إلا جزءاً ضئيلاً مما يؤمل أن يكون . ومهما يكن من أمرٍ ، فان العلماء الآثاريين قد أتيح لهم أن يكشفوا النقاب عن جملة خزائن قديمة كانت مطمورة تحت الثرى !

وهذه « الخزائن » التي عثروا عليها ، سنعنى بوصفها واحدة فواحدة ، في هذا الباب من الكتاب ، معوّلين في ما نسطره على أهم مصنفاتهم في هذا الموضوع .

خزانة نُفر (١)

نُفَّر ، وتعرف في المصادر الافرنجية باسم « نِپر » Nippur ، مدينة دائرة ، كانت على نحو مائة ميل من جنوب مدينة بابل ، على ضفاف النهير المسمى بشط النيل الذي يستمد من الفرات قرب بابل .

وقد نقب في أطلال هذه المدينة الآثاري الشهير پترس، يشاركه رهط من العلماء الأميركيين الأثبات ، وهم : هلپرخت (H. V. Hilprecht) وهرپر (R. F. Harper) ودينلي (J. Dyneley) وپرنس (J. D. Prince) وهينس (J. H. Haynes). وكان البدء بالتنقيب فيها سنة ١٨٨٩ وقد عثروا في سياق ذلك على نيف وألفين من ألواح الطين .

---

(١) عقد العلامة پترس فصلا في صفة هذه الخزانة . راجع :
Peters (J. P.), The Nippur Library. (JAOS., XXVI, 1905; pp. 145-164).

وفي سنة ١٨٩٠ استأنف بترس وهينس أعمال الحفر ، فأسفر بحثهما عن العثور على نحو ٨٠٠٠ لوح .

وفي سنة ١٨٩٣ عاد هينس إلى نفر ، واستأنف العمل حتى شباط سنة ١٨٩٦ ، فكشف خلال هذه المدة ، التي تربو على اثنين وثلاثين شهراً ، زهاء عشرين ألف لوح .

وفي سنة ١٨٩٨ عين هلبرخت مديراً للتنقيبات في نفر ، وأعاد هينس عمله الذي كان قد تركه قبل اكماله حين عودته إلى أميركة سنة ١٨٩٦ . وقد كانت مكافأته على جهده العظيم ان اكتشف « خزانة كتب معبد أنليل » وهي التي اشتملت على ٢٣٠٠٠ لوح يرقى تاريخها إلى السنين ٢٧٠٠ ـ ٢١٠٠ ق . م .

لقد غنمت جامعة بنسلفانية الأميركية من تنقيباتها في نفر ، خلال تلك الأعوام ، ما يربو على خمسين ألف لوح وقطعاً آثارية شتى كثيرة من مختلف الأزمنة .

وخزانة نفر ، التي يرجع الفضل الأكبر في الكشف عن خباياها ، إلى العالم هينس[1] ، ضمت في ما ضمت ، كل ما كان يدرس في مدارس ذلك العصر من موضوعات . ولكنها لم تقتصر على ذلك حسب ، بل احتوت على تآليف علمية ولويحات ذات مدلولات دينية وكتب مختلفة للمراجعة .

وفي طليعة ما يذكر من المكتشفات في هذا الباب : الألواح الرياضية وألواح علم الفلك والطب والتاريخ واللغة . ويليها التسابيح والصلوات والأدعية والتعاويذ والنصوص الاسطورية والتنجيمية .

وأبرز كتب المراجعة في هذه الخزانة ، الجداول التاريخية الثمينة التي تذكر أسماء الملوك ، وما جرى من الحوادث المهمة في كل سنة ، وجداول الضرب (في علم الحساب) ، وجداول للالفاظ المترادفة في اللغة ، والأسماء الجغرافية للجبال والبلدان ، وأسماء الأحجار والنباتات ، والمواد التي تصنع من الخشب ،

---

(١) Budge, Rise and Progress of Assyriology. (London, 1925; p. 249).

وغير ذلك . ومما ينبغي علمه ان كل ما ذكرناه من هذه المحتويات ربما لا يتعدى جزءاً واحداً من اثني عشر جزءاً من الخزانة بكاملها ، لأن ما عرف منها هو كل ما تيسر التنقيب عنه واستخراجه حتى الآن .

و « الكتب » الموضوعة للدرس والمراجعة والمطالعة العامة ، كانت تتألف في العموم من لويحات الطين غير المطبوخ ، وتلك اللويحات تنضد فوق الرفوف ، وأحياناً كانت تودع في الخوابي . وكانت تلك الرفوف تصنع من الخشب أو من الطين . ورفوف الطين كانت تبنى بناءً ساذجاً بالآجر إلى علو نحو من عشرين انجاً عن مستوى الأرض ، وكان عرضها ، أعني عرض الرف ، يبلغ نحو قدم ونصف قدم .

وللحيلولة دون تسرب الرطوبة في الكتب الهشة ، كانت الرفوف الطين تغطى بحصير ، أو تقير بطبقة من القار(١).

وبعد نقل الالواح المكتشفة من خزانة نفر إلى أميركة ، أكب علماء الآثار العراقية على فحصها ودرسها ، فخرجوا منها بفوائد ثمينة لا تحصى . وأتاحت لهم الظروف الحسنة التي تلابسهم أن ينشروا كثيراً من نصوصها القديمة في الادب والدين واللغة والتاريخ والعلوم الاخرى ، ظهرت في مجموعة كبيرة من المجلدات التي يرجع إليها العلماء والباحثون في هذه الموضوعات .

وهذه المجلدات كثيرة ، يزيد عددها على عشرين مجلداً ، طبعت كلها تقريباً في مدينة فيلادلفية بالولايات المتحدة ، بين سنة ١٨٨٩ و ١٩٤٤ ، وقد عني بنشرها جماعة من العلماء وهم : بنجس (Th. G. Pinches) ، وهلبرخت ، وكلاي (A. T. Clay) ، وهنك (W. J. Hinke) ، ورادو (H. Radau)

---

(١) Hilprecht, Explorations in Bible Lands During the 19 th. Century, (Edinburgh, 1903; pp. 522-523).

وبويبل (A. Poebel) ، وميهرمان (D. W. Myhrman) ، ومنتكومري (J. A. Montgomery)، وكيرا (E. Chiera)، ولنكدن (S. Langdon)، وكريمر (S. N. Kramer) . وكنا ذكرنا جملة صالحة من أسماء هذه المطبوعات في مجلة سومر[1].

خزانة دريهم

دريهم (تصغير درهم) ، تل صغير على نحو ثلاثة أميال من جنوب نُفر ، قريباً من هور العفك . واسم هذا التل حديث ، فلا يعرف بوجه التحقيق ما كان اسمه في القديم، يوم كان عامراً في أزمنة ما قبل الميلاد الخالية . ويذهب بعض العلماء إلى أن هذا الاسم القديم قد كان « بوزورش دجان »[2] (Puzurish - Dagan) ..

وأسفرت التنقيبات التي جرت في هذا التل ، عن كشف طائفة كبيرة من لويحات الطين المطبوخة ، المنقوشة بالكتابات المسمارية . وهذه اللويحات ، تعد في جملتها « خزانة كتب » من الطراز القديم ، أنشئت لتضم ما كان يرغب القوم حينذاك في جمعه والاحتفاظ به من أخبار ورسائل وأمور أخرى تختص بعيشهم اليومي وعباداتهم وتقاويمهم وغير ذلك .

والجدير بالذكر ، أن لويحات دريهم مؤرخة بالشطر الأخير من سلالة أور الثالثة . فأقدم تاريخ فيها يرتقي إلى أيام الملك دنكي (Dungi) وأحدثها أدرك عهد إبي ـ سن (Ibi - Sin) أعني أن تلك اللويحات مؤرخة بسنة ٢١٥٠ ـ ٢١٠٠ ق . م .

---

(١) سومر (٢ [١٩٤٦] ص ١٠٩ الحاشية ٥) .

(٢) The Gambridge Ancient History. (Vol. I. Cambridge, 1923; p. 466) .

وقد عني علماء الآثار بهذه اللقى المدونة ، فجمعوها ودرسوا محتوياتها ونشروا جملة صالحة منها في بعض كتبهم ومقالاتهم .

ولقد وقفنا على نيف وعشرة كتب تحتوي على ما نشر من ألواح خزانة دريهم ، أشرنا إلى بعضها في مجلة سومر[١] . وهذه المؤلفات طبعت كلها في بلدان الغرب ، بين سنة ١٩٠٩ و ١٩٣٦ . ومن أشهر مؤلفيها : لنكدن ، ودي جينوياك(H. De Genouillac)، وتورو دنجان(Fr.Thureau-Dangin)، ودلابورت (L. Delaporte) ، وليكران (L. Legrain) وغيرهم .

فكان من قراءة هذه النصوص ونشرها ، أن اتضحت بعض الخفايا من تاريخ العراق القديم ، وعُلم علم اليقين أن دريهم كانت داراً اقيمت على الفرات ، لتكون مستودعاً للهبات والنذور التي كان الملوك والناس يقدمونها إلى معبد أنليل (Enlil) ، وهو من أعظم المعابد في مدينة نفر . وعُلم من قراءة نصوص هذه الخزانة أيضاً ، أن تلك النذور كانت على غاية من الكثرة ، وأهم أنواعها : الحبوب والمواشي والفواكه وتقدمات أخرى متنوعة[٢] .

ولويحات خزانة دريهم تفرقت في غير موطن من مواطن العلم في ديار الغرب ، فبعضها اليوم في متحف اللوفر بباريس ، وبعضها في خزانة بودليان بأكسفرد وبعضها الآخر في متحف اشموليان باكسفرد أيضاً .

خزانة نينوى

تُعد خزانة نينوى ، من أقدم خزائن كتب الملوك في العراق وأجلها شأناً وأشملها موضوعاً . عُني بجمعها وتوسيعها الملك الآشوري « آشور بانيبال » ، وقد أودعها عاصمته « نينوى » التي ترى أطلالها اليوم قبالة مدينة الموصل ،

(١) سومر (٢ [١٩٤٦] ص ١١٠ ، الحاشية ٧) .

(٢) Cambridge Ancient History (I. 437, 466, 534).

شرقي دجلة . وقد دام حكم هذا الملك اثنتين وأربعين سنة ، أعني من سنة ٦٦٨ إلى ٦٢٦ قبل الميلاد .

وأقدم الملوك الآشوريين الذين سعوا في جمع خزانة كتب ، على ما نعلم ، كان سرجون (٧٢١ ـ ٧٠٥ ق . م) فلقد وجدت ألواح كتبت في عهده وعليها ختم خزانته[١] .

بيد أن هذه الخزانة لم تزدهر وتصبح ذات شأن إلا في أيام آشور بانيبال . فقد كان هذا الملك محباً للعلم شغوفاً به . بل أظهر ما انطوى عليه حكمه هو معاضدته للعلوم والآداب . فقد كان أكثر الملوك الآشوريين الذين سبقوه ، منصرفين في الغالب إلى شؤون الحرب توسيماً لملكهم ، أو منهمكين في تشييد القصور والمباني الفخمة توطيداً لسلطانهم وتعزيزاً لهيبتهم . أما هذا الملك ، فكان إلى ذلك قد امتاز عليهم جميعاً بحسن ذوقه الأدبي ، لأنه تعلم كثيراً مما كان لدى الآشوريين من علوم وفنون وحكايات وأقاصيص وقد ورد في « أخبار آشور بانيبال » التي وجدت مسطورة على اسطوانة من عهده ، ما هذا معناه : « أنا آشور بانيبال . قد اختزنت في قصري حكمة نبـو ، واستوعبت ما في الألواح المدونة ، وكل ما في ألواح الطين من خفايا ومشاكل »[٢].

ومن هنا يتضح لنا ما كان يرمي اليه هذا الملك العظيم في قوله . فقد وعى آشور بانيبال مختلف الكتابات ، واستطاع أن يكبّ بنفسه على عمل النساخ . بل يؤخذ مما ورد في بعض ألواح هذه الخزانة ، ان جانباً من النصوص كان يقرأ بحضرته قبل الموافقة على إيداعه الخزانة[٣]. فلا غرو أن يعد عصر آشور بانيبال،

---

(١) Olmstead (A. T.), History of Assyria. (New York, 1923; p. 270).

(٢) George Smith, History of Assurbanipal. Translated from the Cuneiform Inscriptions. (London, 1871; p. 6).

(٣) Cambridge Ancient History. (Vol. III, 1925; p. 88).

العصر الذهبي للفن الآشوري والآداب الآشورية(١).

لقد تم لهذا الملك أن يجمع لنفسه خزانة حافلة ، وكان من فرط اهتمامه بهذا الشأن انه بعث بنسّاخه وخطاطيه إلى مظان العلم والأدب المختلفة في زمنه ، كبابل وبورسبا وأكد وكوثى ونفر واشور وغيرها(٢)، فنسخوا له كل التآليف المهمة وجمعوا له أشتات العلم ودوّنوها وحفظوها في خزانته .

فهذه الخزانة الجليلة ، كانت تضم كثيراً مما عرفه البشر يوم ذاك من أفانين العلم والأدب والدين . فيها مصنفات في التاريخ والأخبار والرسائل والسحر والصرف والنحو والادب والشعر والقانون والتنجيم والفلك والجغرافية والطب والتاريخ الطبيعي والصلوات والطقوس والأساطير والقصص كقصة الخلق وقصة الطوفان ، وأمور أخرى لا يمكننا حصر مواضيعها في هذا المقام .

وفي وسعنا القول إجمالاً ، ان هذه الخزانة « دائرة معارف » تحوي أهم ما توصل اليه الأقدمون من المباحث التي أشرنا إليها .

فكثير من المؤلفات في فروع المعرفة قد نُقلت من الخزائن العتيقة البابلية ، وقد عُني علماء بلاطه باستنساخ هذه الكتب بالكتابة الآشورية ، وعززوها بملاحظات وصفية أو تاريخية أو إيضاحية ، فاحتفظ بالنسخ في القصر ، أما الاصول والامهات المنقول عنها ، فقد أُعيدت إلى الأماكن التي استعيرت منها. وبهذا الوجه اشتملت الخزانة على بضعة آلاف كتاب(٣) ، وكان كل كتاب يتألف من ألواح متعددة بهيئة معلومة وقطع واحد وهامش مضبوط ، ولم تكن تخلو من التذييلات والتصحيحات .

---

(١) Olmstead, History of Assyria. (p. 489).

(٢) Jastrow, Did the Babylonian Temples have Libraries ? (JAOS., XXVII[1] , p. 148).

(٣) Rogers (R. W.), A History of Babylonia and Assyria. (Vol. II, New York, 1900; p. 279).

ظلت هذه الخزانة مطمورة تحت التراب نيفاً وعشرين قرناً ! حتى هيأ الله لها في القرن التاسع عشر بعض الرواد العلماء : فبينما كان الرحالة الآثاري الانكليزي الشهير السر هنري لايرد ينقب في سنة ١٨٥١ و ١٨٥٢ في قصر آشور بانيبال بنينوى ، أسعده الحظ بالعثور على حجرتين صغيرتين تفضي إحداهما إلى الاخرى وما أن أزاح التراب والنفايات عنهما حتى وجد فيهما آلاف ألواح من الطين وشيئاً كثيراً من كسر الألواح غطت أرضيهما إلى نحو قدم بل أكثر من ذلك ، فدعا تينك الحجرتين حينذاك بـ « دار السجلات »(١). وبتفحص هذه الألواح المنقوشة بالكتابات المسمارية ، تبين أنها كانت « خزانة كتب » الملك آشور بانيبال ، ثم عثر على ألواح أخرى في الممر المؤدي من الحجرتين إلى جانب النهر ، كما عثر على كثير غيرها عند وجهة القصر النهرية .

وهذه الألواح المكتوبة بالمسمارية ، ذوات أحجام متفاوتة ، فغير المكسرة منها تبلغ ١٥ × ٨ ⅝ ٨ إنجاً إلى ١ × ⅞ الانج . ويلاحظ أن وجوه الألواح مسطحة وأن ظهورها محدبة قليلاً .

ويختلف لون الألواح من الأسود القاتم إلى الأحمر الخفيف . أما الطين الذي اتخذت منه هذه الألواح ، فيظهر أنه اختير اختياراً حسناً ونظف مما يشوبه من الرمل والذرات الخشنة ، ثم جبل جبلاً جيداً .

ولم تقتصر العناية على انتخاب مادة الألواح حسب ، بل شملت طبخها أيضاً . فليس بين المجاميع التي عثر عليها في أي موطن آخر ما يماثل هذه الألواح في حسن هيئتها وجودة طبخها(٢).

---

(١) Layard (A.H.), Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon. (London, 1853; pp. 344-345).

(٢) Bezold (C.), Catalogue of the Cuneiform Tablets in the Kouyunjik collection of the British Museum. (Vol. 5, London, 1898; pp. xv-xvi).

وكان الآثاري الانكليزي جورج سمث (١٨٢٦ - ١٨٧٦) ممن شارك لايرد في الكشف عن قسم آخر من هذه الخزانة . فقد عثر فيها على نحو من ثلاثة آلاف لوح من الطين[١].

وقد توصل أحد الباحثين العراقيين ، وهو هرمزد رسام الموصلي (١٨٢٦ - ١٩١٠) في أثناء تنقيباته في نينوى ، إلى العثور على بضع مئات أخرى من ألواح هذه الخزانة[٢].

فالتنقيبات التي أسفرت عن استخراج هذا الكنز الدفين ، قد توالت وتمم بعضها بعضاً ، حتى بلغ مجموع الألواح التي عُثر عليها من بقايا هذه الخزانة ، زهاء ثلاثين ألف لوح ، نقلت إلى المتحف البريطاني عقيب اكتشافها[٣] . وهي لعمر الحق من أنفس ما يعتز به هذا المتحف ، لأنه من أعظم ما خلفه السلف للخلف . فخزانة آشور بانيبال من أوفى المراجع لكل ما يدخل في ميادين العلم والأدب والدين وغيرها من فروع المعرفة التي كانت شائعة بين القوم في هذه الديار يوم ذاك .

---

(١) George Smith, Assyrian Discoveries. (P. 144).

(٢) Rassam (Hormuzd), Asshur and the Land of Nimrud. (New York, 1897; p. 31).

وانظر أيضاً : Budge, Rise and Progress of Assyriology. (pp. 81-82).

(٣) الخزانة كلها في المتحف البريطاني ، ما عدا قليلا منها نقل الى بعض المؤسسات أو الجامع الفردية ، نذكر من ذلك :—

١ - تسعة عشر لوحاً أهداها الأب مكسمليان ريلو اليسوعي سنة ١٨٣٨ الى البابا غريغور السادس عشر .

٢ - عدداً من الألواح ، هي اليوم في اللوفر بباريس .

٣ - نصوصاً واسطوانة لسنحاريب وغيرها ، في متحف استانبول .

٤ - قطعة من كتابة سنحاريب ، في متحف هوف بفيينة .

٥ - قطعة من أسطورة ، في فيلادلفية بالولايات المتحدة .

وقد أكب علماء الغرب على نصوص ألواح هذه الخزانة ، فقرأوا كثيراً منها ونشروه بنصه الأصلي ، ونقلوه إلى لغاتهم الشهيرة بعناية ودقة لا توصفان . ولم يقفوا في عملهم عند هذا الحد ، بل عمدوا إلى مضامينها واستنطقوها ، فأقاموا من ذلك دراسات عميقة وبحوثاً لا تحصى كشفت النقاب عن كثير من خفايا تاريخ العراق القديم .

وممن عُني عنايةً فائقة بوصف كل ما ينوط بهذه الخزانة ومحتوياتها ، وأصناف ألواحها ، ومواد هذه الألواح ، وطريقة كتابتها ، وأقيستها ، ونوع طبخها ، وغير ذلك من الافادات ، هو العلامة المستشرق الألماني كرل بتسولد (المتوفى سنة ١٩١٣) . فقد وضع رسالة قائمة بذاتها في هذا الموضوع(١) .

وكان الآثاري الفرنسي الشهير منان ، قد سبقه بعدة سنين إلى وضع سِفر(٢) في صفة هذه الخزانة . غير أن بحث بتسولد جاء أوفى وأكمل .

وقد لاحظ الباحثون في آثار هذه الخزانة ، أن في نهاية بعض تلك الالواح ما ينبيء بأنها تعود لخزانة أخرى ، هي « خزانة معبد نَبو » بنينوى .

فالآف الألواح التي ألمعنا إلى ذكرها ، ترجع في أصلها إلى خزانتين كانتا في نينوى ، الأولى ، « خزانة الملك آشور بانيبال » وأكثرها مما جمعه هذا الملك في أيام حكمه ، وأقلها مما ورثه عن أسلافه . والثانية : « خزانة معبد نَبو » . غير انها ضُمّت إحداها إلى الأخرى وجُعلتا في قصر هذا الملك .

ويستدل من بعض الكتابات الآشورية ، على أن ألواح هذه الخزانة في أيام

---

(١) Bezold, Bibliotheks-und Schriftwesen in Alten Ninive.(aus. d. Centralblatt für Bibliothekswesen, Juni 1904; pp. 257–277).

(٢) Menant (M. J.), La Bibliothèque du Palais de Ninive. (Paris, 1880; VIII + 163 p.).

عوّها كانت منظمة ذات فهارس منسقة . وذلك مما يدل على رقي القوم وتوغلهم في الحضارة والعراقة .

ومما تحسن الاشارة اليه في صدد خزانة آشور بانيبال ، ان فهارسها والتواقيع التي على ألواحها وختم المكتبة واسم صاحبها وبعض الملاحظات الاخرى ، كان مما عثر عليه فيها ، بينما الخزائن الاخرى ، سواء أكانت خزائن حكومية أم خزائن معابد كانت خالية مما ذكرنا[١].

وقليل من هاتيك الألواح يبدو عليه أثر صبره على نار حامية ، أعني أن الطين قد أصبح في بعض الاماكن مصهوراً ومحرقاً ، واستحال لونه بسبب الحرارة الشديدة إلى لون رمادي مائل إلى الاخضرار ، فعيب النص المكتوب عليها وأصيب بالتلف[٢] .

خزانة مدينة أدب

أدَب ، وتُعرف في بعض المصنفات العربية القديمة باسم « بسما » أو « بسمى »[٣] ، واسمها لدى سكان تلك المنطقة « بسماية » أو « بسمايا »[٤] ، مدينة عراقية ذات شأن في التاريخ . اندثرت معالمها ، ولم يبق منها إلا أخربة

---

(١) Reallexikon der Assyriologie. (Bd II, pp. 24-25. art. " Bibliothek" By Eckhard Unger).

(٢) British Museum, A Guide to the Babylonian and Assyrian Antiquities. (3rd. ed., London, 1922; p. 212).

وراجع : Bezold, Catalogue. (Vol. 5, p. XVI),

(٣) تاريخ الطبري (١ : ٢٠٤٩ — ٢٠٥٢ ، ٢٣٦٨ و ٣ : ٢٠١٤ طبعة دي غويه في ليدن) .

(٤) عما في تسمية هذا الموضع من اختلاف ، راجع مقالة « بسمى أو أدب ، لا بسمايا أو مسماة أو بسماة » للأب أنستاس ماري الكرملي (لغة العرب ٥ [١٩٢٧] ص ٦٥ — ٧٠) .

تقع في فلاقر ، على خمسة وعشرين ميلاً من جنوب غربي نفر ، وعلى مثل هذه المسافة في غربي شط الحي .

وقد نقب العالم الاميركي بنكس (E. J. Banks) في ذلك الموطن تنقيباً عظيماً ، سنة ١٩٠٣ إلى ١٩٠٤ ، ونشر كتاباً مفيداً في وصف التنقيب في هذا الموضع [١] .

ويهمنا من أمر هذه التنقيبات في بحثنا هذا ، « خزانة الكتب [٢] » التي عثر عليها في أطلال هذه المدينة . ولقد نُشر بعض الكتابات منها [٣] ، وبعضها الآخر لم ينشر ، شأنه شأن كثير من الالواح التي عُثر عليها في أخربة البلدان العراقية التي يسبق عهدها ظهور الميلاد بعدة قرون .

لقد تم الكشف عن خزانة أدب سنة ١٩٠٤ ، وما وُجد من بقايا كتبها كان مكدساً في أرض غرفة واسعة تحت عمق مترين من التراب . وقد بحث النقاب الاميركي ليعثر على رفوف هذه الخزانة ، فلم يفز بطائل ، لان العاديات كانت مدفونة بصورة ركام ، ولا أثر للعناية بتنسيقها ولا بتبويب محتوياتها . فكانت العادية الكبيرة بجنب الصغيرة ، بينها المستديرة الشكل والمربعة والمسنمة والقائمة الزوايا ، وبعضها رقيقة وغيرها ثخينة ، ومنها محكمة الصب وأخرى غير متقنة الصنع ومنها مطبوخة وأغلبها غير مطبوخ قصم . وقد أسفرت تنقيبات المنقبين عن كشف ٢٥٠٠ لوح ، ومعظمها مثلم الاطراف ومشطور شطرين . وقد وُجدت خمسمائة عادية سالمة من العطب صحيحة الكتابة . وبعد أن جمعت وأُزيح عنها ما علق من الغبار المتلبد ، وقرىء ما فيها ، فاذا هي صكوك وعقود ووصولات

---

(١) Banks (E. J.), Bismya. (New York, 1912).

(٢) وصف رزوق عيسى هذه الخزانة في مقال عنوانه « خزائن بسمي القديمة » (لغة العرب ٨ [١٩٣٠] ص ٨١ – ٩١) . وقد استندنا الى بعضه في كلامنا أعلاه .

(٣) أنظر : Luckenbill (D. D.), Inscriptions from Adab. (Chicago, 1930).

وسندات تنبيء عن بيع حبوب وحيوانات داجنة وصوف وغير ذلك ، وبينها رسائل . ولا أثر للقيود التاريخية ولا للترانيم والمزامير والقصص والامثال ، كما كشف منها في خزانة نينوى وغيرها . ومما يؤسف منه ، انه سطا على خزانة مدينة أدب من انتزع منها آثار مخطوطاتها الحجرية الثمينة ، وترك تلك التي عُثر عليها لقلة أهميتها في عالم التاريخ . وقد جاهر بعض المنقبين من الفعلة انهم سمعوا من شيوخ البادية ، ان هذه البقعة قد نقب فيها أحد النصارى قبل الاسلام، وهذا ما أعاد إلى ذاكرة النقاب الاميركي حكاية آشور بانيبال وصورة جمعه آثار العراق وتأسيسه « خزانة نينوى » العظيمة . فقد ورد في إحدى صفائح الآجر ، انه أرسل طائفة من عماله إلى بلاد بابل كلها ، ليبحثوا في مدنها العامرة والغامرة ويجمعوا ويستنسخوا ألواحها الحجرية ، وذلك منذ سنة ٦٦٨ ق . م .

ان بعضاً من تراث خزانة أدب ، يرجع إلى زمن « جميل - سن » ملك أور ، ولكن أغلبها أقدم زمناً من ذلك . فقد وُجد بعض القطع وعليها اسم « نرام سن» ، أي سنة ٢٤٠٠ ق. م .

فخزانة أدب ، من مخلفات الالف الثالث قبل الميلاد .

خزانة سپار

سِپار ، وتعرف أطلالها اليوم باسم « أبو حَبة » من أقدم مدائن العراق . تقع على نحو عشرين ميلاً من جنوب غربي بغداد . وكانت هذه المدينة راكبة ضفة الفرات الشرقية ، قبل أن يبدل هذا النهر مجراه القديم . وكانت سپار ذات شأن في العصر السومري ، وفي زمن بابل ، لاسيما في أواخر عصر تلك المملكة .

وقد ورد ذكرها غير مرة في التوراة باسم « سفروايم »[1] (انظر : سفر

(١) أنظر : Encyclopaedia Biblica, by Cheyne and Black. (Vol. IV, pp. 4371-72; art. "Sepharvaim").
وقاموس الكتاب المقدس لجورج بوست (١ : ٥٦١) .

الملوك الثاني ١٧ : ٢٤ و ١٨ : ٣٤ و ١٩ : ١٣؛ وأشعيا ٣٦ : ١٩ و٣٧ : ١٣) .

وقد نقّب في أخربة هذه المدينة ، بعثة انكليزية سنة ١٨٧٨ برئاسة هرمزد رسام الموصلي ، فأسفر تنقيبها عن اكتشاف عشرات آلاف الألواح المكتوبة ، وعدد كبير من اللقى الأثرية .

وأمضى الأب شيل الفرنسي ، شتاء سنة ١٨٩١ في التنقيب في قسم من سپار ، ووُفّـق للعثور على أكثر من ألف لوح . وقد أودع وصف النتائج العلمية لتنقيباته سفراً نفيساً نشره المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة(١) .

ولسنا بصدد البحث في تاريخ هذه المدينة ، فانهذا ليس من شرط كتابنا . وانما غايتنا الكلام على « خزانة الكتب » التي وُجدت في أطلالها .

وما من شك في أن مثل هذه المدينة الكبيرة ، كانت تحتوي على خزانة حافلة ، شأن غيرها من مدن العراق القديمة . وهذه الخزانة التي تتألف من آلاف ألواح الطين ، قد تشتت شمل جانب كبير منها ، بالضياع والتحطم والتلف ، وبقيت أقسام منها اكتشفها الأهلون والمنقبون ، فنُـقل أغلبها إلى ديار الغرب .

فقد ذكر العلامة بج ، ان جورج سمث الآثاري المشهور، اقتنى طائفة صالحة من هذه الرُقُم سنة ١٨٧٦(٢) وبعث بها إلى المتحف البريطاني .

وذكر بج أيضاً ، أن الأهلين أخبروه انهم حين كشفهم عن مجموعة من الغرف بين أخربة هذه المدينة ، وجدوها مشحونة بألواح مكتوبة ، وكلها من الطين الهش غير المطبوخ . ووجدوا في غيرها من الغرف أواني صغيرة مختومة ، تحتوي على ألواح مكتوبة من الطين المطبوخ ، يبلغ طول اللوح ٤ إنجات .

---

(١) Scheil (J. V.). Une Saison de Fouilles a Sippar. (Le Caire, 1902).

(٢) Budge, Rise and Progress of Assyriology. (P. 132).

ووقفوا في إحدى الغرف على صفوف من ألواح أكبر حجماً ، منضّدة فوق رفوف من حجر . وهذه المستندات أو الختوم كانت متصلة بحبل مصنوع من نوع من الفنيبج النباتي(١) .

ويقول هرمزد رسام الذي اكتشف هذه الخزانة : « في غضون ثلاثة أشهر (من سنة ١٨٨١) ، كشفنا في غرف مختلفة ، عن عدد كبير من ألواح الطين المكتوبة ، ولكنها لسوء الحظ غير مطبوخة ، بخلاف التي وُجدت في بلاد آشور . والطين الذي عُملت منه قد أضحى هشاً إلى حد أنه ينسحق حال تعرضه للهواء . وقد بان لي أن السبيل الوحيد للمحافظة عليها من الدمار ، هو أن نطبخها . وقد فعلنا ذلك فانتهينا إلى نتيجة حسنة . ولكن يؤسفني أن أقول ، إن عدداً كبيراً منها قد تلف حين نقلها ، ذلك انها كانت مكومة شيئاً فوق شيء ، متلاصقة ببعضها »(٢) .

وأشار هرمزد رسام إلى أن عدداً من ألواح الطين المكتوب ، يتراوح بين ٤٠٠٠٠ و ٥٠٠٠٠ وُجدت في «أبو حبة»(٣) . على ان بج يقول ان عدد الألواح الهائل التي رآها في بغداد والحلة وغيرها من الأماكن ، قد يناهز ١٣٠٠٠٠ لوح(٤) .

إن بضعة آلاف من هاتيك الألواح ، أتلفه الأهلون . كما أن المستر دبلداي (Doubleday) من المتحف البريطاني ، حاول أن يقسّي الألواح غير المطبوخة بطبخها . وقد أسفر طبخها عن نتيجة مؤسفة ، ذلك أن الوجهين المكتوبين من

---

(١) Budge, Rise and Progress of Assyriology. (p. 133).
(٢) Rassam, Asshur and the Land of Nimrod. (p.406).
(٣) Trans. Soc. Bibl. Archaeol., VIII., p. 177.
وانظر : Richardson (E. C.), Biblical Libraries, (Princeton, 1914; p. 46).
(٤) Budge, Rise and Progress of Assyriology. (p. 134).

كل لوح ، قد تفطّسيا وتحوّلا ترابا ناعما . ومردّ هذا التلف إلى سوء الطريقة التي اتبعت في تقوية تلك الألواح . فقد وضعت في النار ، مع أن الطريقة المثلى المتبعة الآن ، هي أن لا تُعرّض للنار بوجه مباشر ، ولا أن تُعطى من الحرارة إلا الشيء بعد الشيء ، فتطبخ حينذاك طبخاً تدريجياً لا يؤثر عليها .

* * *

و « خزانة سپار » هذه ، عُثر عليها في « دار سجلات » المعبد ، بل في مدرسة المعبد ذاته . ولقد عقد العلامة شيل فصلاً عن هذه المدرسة[1] ، التي اشتملت على ألواح فيها تمارين كتابية ، وجداول علامات الكتابة ، ومقاطع لغوية ، وموازين تصريف الأفعال ، وجداول المقاييس ، وجداول الضرب (في علم الحساب) ، وغيرها من الجداول الرياضية . ومما وُجد في هذه المدرسة جملة من الألواح الفلكية . هذا إلى عدد وافر من النصوص التي تغلب عليها المسحة الأدبية ، كالتسابيح والصلوات والرُقى ، إلى قطعة من قصة طوفان ، إلى قطعة من نص ديني خطير ، إلى غير ذلك .

فهذه الكتابات ، كانت العدة التي يكثر استعمالها في مدرسة المعبد ، تلك التي كان يتلقى العلم فيها من يطمح إلى بلوغ درجة الكهنوت[2] .

ولكن هذه الكتابات لم تكن جميعها من النوع الذي نُطلق عليه اليوم اسم «الكتب المدرسية» ، فان دار سجلات هذا المعبد وجد فيها ، بحسب ما توصلت اليه التنقيبات ، ضربان من الكتابات :

الأول : وثائق تتعلق بأمور الأخذ والعطاء ، بعضها يخص المعبد وبعضها الآخر يخص أناس مختلفين .

---

(١) Scheil, Une Saison de Fouilles à Sippar. (Chap. III, L'·École à Sippar; pp. 30-54).

(٢) Jastrow, Did the Babylonian Temples have Libraries ? (JAOS., XXVII¹ p. 153) .

الثاني : ما أشرنا اليه من محتويات خزانة المدرسة ، وما ضمته إلى ذلك من تآليف كان يرجع اليها الكهنة في اداء الطقوس الدينية .

خزانة الجمجمة

الجمجمة، قرية على الضفة اليسرى لشط الحلة ، وهو أحد فرعي نهر الفرات . وهي تقع في الطرف الجنوبي الغربي من رقعة مدينة بابل[١]. وقبل أن تبدأ أعمال التنقيب المنتظمة في مدينة بابل ، في أواخر القرن التاسع عشر ، استخرج الأعراب وسكان القرية ، كميات كبيرة من رُقُم الطين المطبوخ من الخربة المجاورة لقرية الجمجمة ، وباعوها من تجار الآثار ، ومنهم انتقلت إلى المتاحف العالمية[٢] . وكانت تلك الرقم تؤلف خزانة من عهد الملك الكلداني نبوخذنصر (٦٠٤ ـ ٥٦١ ق.م) .

وليس من شك ، في أن هذه الخزانة كانت تضم كتباً في الأدب واللغة والدين والأساطير وأمور التجارة والادارة وغير ذلك من المواضيع .

وكان المستشرق الفرنسي هنري پونيون ، قد عُني بوصف هذه الخزانة ، في مقال نشره بالمجلة الآسوية الفرنسية[٣] .

---

(١) أنظر خريطة مدينة بابل ، في كتاب :
King (L.W.), A History of Babylon. (London, 1919; p. 23).

(٢) Harper (R. F.), The Destruction of Antiquities in the East. (Hebraica, Vol. VI, 1889-90; p. 225).

(٣) Pognon (H.) in the "Journal Asiatique", 1880, p. 543).

خزانة كيش (١)

كيش ، (بكسر الكاف) موضع أثري خطير الشأن ، يُرى على مسافة تسعة أميال من شرقي بابل ، ويسميه العرب هناك « تل الأحيمر » (تصغير الأحمر) ، لأن لونه ضارب إلى الحمرة .

وقد نُقّب في أقسام من هذا الموضع تنقيباً علمياً منذ سنة ١٩٢٣ ، وأسفر التنقيب عن كشف آثارٍ على جانب كبير من الخطر .

واتضح من سير التنقيب في كيش ، ان هذه المدينة العريقة في القدم ، قد كان فيها في غابر الزمن « خزانة كتب » ، شأنها في ذلك شأن كثير من المدن السومرية والبابلية والآشورية .

فقد عثر المنقب الشهير لنكدن ، في شباط سنة ١٩٢٤ ، في أحد تلول مدينة كيش ، على مجموعةٍ أدبية من رَقم الطين . وهذا التل ، أعظم تلول كيش المعروفة ، يبلغ طوله زهاء ثلاثة أرباع الميل ، ويتفاوت عرضه بين ٥٠ و ٢٠٠ متر ، ويعلو عن مستوى السهل المحيط به ٣٠ إلى ٤٠ قدماً . ومظاهر هذا التل تدل على وجود بنايات واسعة تحت أديمه . ولم يكن شك عند المنقّب ، في أن هذا التل هو البقعة الصالحة للبحث فيها عن خزانة الكتب . يؤيد هذا ، أن أحد العمال عثر في حافةٍ منه ، على رقيم من الطين المطبوخ ، يتضمن وثيقةً تجارية من عهد نبوخذنصر . وبمواصلة الحفر والتنقيب ، بلغ المنقبون طبقة غنية بالرقم الأدبية . ثم امتد الحفر شمالاً ، نحو مركز التل ، فأفضى إلى بناء واسع تكتظ حجره بألواح كثيرة ، بيد انها كانت بحالٍ يرثى لها من التلف .

والخزانة الأساسية ، تقع تحت مبانٍ عظيمة متأخرة من العصر البابلي

---

(١) استندنا في كتابة أغلب هذا الفصل ، الى كتاب :
Langdon (S.), Excavations at Kish. (Vol. I, Paris, 1924; pp. 87-93).

الحديث . وهي تعود إلى عصر إِسن (Isin) وحمورابي . وبناؤهما من اللبن القائم الزوايا . ذي الأبعاد ¾ ١١ × ٨ × ¾ ٣ إنج . وقد تطلب التنقيب في هذا الموضع إزاحة المباني المتأخرة التي تشغل الطبقات العليا . وهذه المباني تعلو بنايات أقدم منها عهداً . ومعدّل ثخانة الركام الفاصل بين البنايات القديمة والحديثة زهاء خمس أقدام . ولم يثبت كل الثبوت ، ان سَكنة كيش في العصر البابلي الحديث قد اكتنزوا ألواحهم المدوّنة ، في خزانةٍ تعلو طبقتها طبقةً أقدم منها . ولقد عثر في الطبقات العليا على كسرٍ حسنة كثيرة من رقم المقاولات . ولكن قد يبدو أن السكنة المتأخرين لم يكونوا على علم من وجود خزانة كتب مدفونة تحت مواضع سكناهم .

والألواح الكثيرة التي عثر عليها في هذا التل ، يغلب على مواضيعها علوم النحو واللغة . كما أن عدد الكسر المشتملة على جداول العلامات الكتابية والنصوص المدرسية بالغ من الكثرة حداً مدهشاً .

ففي تلك الغرف التي ظهر أنها كانت محلاً لخزانة الكتب ، وجدت الألواح مختلطة بكسر الخوابي الفخار . وكانت تلك الخوابي تضم عدداً من الالواح . ولم يكن يعثر بين كسر الخابية الواحدة على ألواح متنوعة المواضيع ، بل كل واحدة منها كانت في موضوع ما . فكأن مواضيع الالواح كانت في الخوابي على وفق ترتيب معلوم .

لقد نقلت تلك القطع إلى ديار الغرب ، إلى انكلترة ومتحف فيلد ، وصار بعضها موضوعاً لدرس العلماء حين قرأوها واستخلصوا منها بعض الفوائد التي أُضيفت إلى التراث العراقي الغابر .

خزانة تلو

تلو ، (بفتح التاء وضم اللام مع تشديدها) ، واسمها الغابر « لجش » وكان يقرأ سابقاً « شربولا » ، موقع أثري مهم في العراق . يرى في الضفة الشرقية من شط الحي ، على نحو ثلثي طوله من دجلة إلى الفرات .

وقد ذهب بعض الباحثين من الافرنج[١] ، إلى أن اسم « تلو » مشتق من « تل لو ح » المخفف من « تل اللو ح » ، استناداً منهم إلى ما وجد هناك من ألواح الطين الكثيرة . غير أن البحاثة العراقي المعروف ، الاستاذ يعقوب سركيس[٢] ، قد فنّـد هذا الرأي وأثبت أن « تلو » مخفف من « تل هوارة » ، واعتماده في ذلك على نصوص أوردها المحسن التنوخي (من أبناء المائة الرابعة للهجرة) في كتاب « نشوار المحاضرة » ، وعلى غير ذلك من المراجع .

وأول من نقّـب في هذا الموضع تنقيباً علمياً ، كان دي سارزك ، قنصل فرنسة في البصرة سابقاً . فانه حفر هناك سنة ١٨٧٧ وما بعدها إلى سنة ١٨٩١[٣] مع فترات تخللت تلك المدة . فعثر في أثناء ذلك على آثار نفيسة مختلفة ، نقلت إلى متحف اللوفر بباريس .

ولـكن « خزانة كتب تلو »[٤] ، لم يكن من نصيبه أن يعثر عليها ، بل عثر عليها الحفارون من الاعراب في ربيع سنة ١٨٩٤ ، بعد فراغه من تنقيباته .

ذلك ان تجار الآثار ببغداد ، كانوا يرومون الحصول على القطع الاثرية الصغيرة الحجم الخفيفة الحمل ، كالالواح المكتوبة وغيرها من التحف ، ويفضلونها على القطع الكبيرة الضخمة التي لا يتسنى لهم نقلها وإخراجها من البلاد إلا بشيء كثير من الصعوبة .

وقد بان لهم ، انه لابد من أن يكون في إحدى روابي « تلو » ، قاعة أو قاعات مشحونة بالألواح المكتوبة ، نظير ما كان عُثر عليه في سپار (أبو حبة).

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية . (مادة : تلو) .

(٢) لغة العرب (٩ [١٩٣١] ص ٢ ـ ١٤) .

(٣) De Sarzec (Ernest), Découvertes en Chaldée. (2 vols., Paris, 1884-1912).

(٤) راجع تفصيل قصة الكشف عن هذه الخزانة ، في كتاب : Budge, Rise and Progress of Assyriology. (pp. 197-202).

ولما كانت تلو مركزاً تجارياً ومقاماً ملوكياً ، وجب أن تحتوي على كثير من المدونات الآجرية ، كالسجلات والتقارير وجداول المكوس والضرائب . هذا إلى « خزانة المعبد » التي لابد من وجودها في موضع ما من تلك الأخربة .

وبعد لأي ، عثر الحفارون على ما كانوا يصبون اليه ! انهم كشفوا في أحد التلول هناك عن سلسلة من الغرف المحتوية على ألواح الطين المشوي ، ذات النقوش المسمارية .

إن بعض تلك الغرف كانت ملأى بالألواح ، وبعضها دون ذلك . ويقدّر عدد ما وجد من الألواح زهاء ٣٥٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ ، بل إن عدد ألواح هذه الخزانة أقرب إلى الرقم الثاني منه إلى الأول . فهي بالقياس إلى خزائن العالم القديم ، تأتي في الرعيل الاول سعة .

لقد كانت تلك الالواح المكتوبة ، ذات هيئات مختلفة. ويتراوح حجمها من١٢ إنجاً مربعاً ، الى ٢ر٠ انج مربع . وكلها من الطين المطبوخ . وكثير منها كانت بحال حسنة كأنها خزنت الساعة ، على الرغم من مرور ٤٥٠٠ سنة على خزنها. وبعض هاتيك القطع ، لاسيما الكبيرة منها ، كانت مكدسة فوق بعضها . ومئات أخرى كثيرة كانت منضدة فوق الرفوف . أما القطع الصغيرة فقد كانت مكومة في الاواني .

لقد ابتاع تلك الالواح المكتشفة كثير من الناس بأثمان بخسة . فان اللوح الكبير الحجم كان يباع بعشرين قرشاً (نحو ١٦٦ فلساً) ، والمتوسط الحجم بعشرة قروش . والالواح الحسنة من الحجوم الاخرى كان يباع الواحد بثلاثة الى خمسة قروش .

وهذه القطع التي بيعت ، صدّرها أصحابها كلها الى خارج العراق . فلا غرو أن تكون هذه الخمس والثلاثون ألف لوح — على أقل التقدير — قد تفرقت وتبعثرت بوقت وجيز بين مختلف بلدان العالم المتمدن . ومن ثمة تشتت شمل

« خزانة تلو » ولم يمكن أن تجتمع أسفارها في متحف واحد ، ليتيسر درسها والرجوع إليها .

ولقد عُنيت بعض المتاحف ودُور الكتب في بلاد الغرب ، بنشر ما تكتنزه من بقايا هذه الخزانة ، فأطلعت العالم على ما تحتويه من مواد مختلفة[1].

وجرت حفريات جديدة[2] في تلو ، أسفرت عن اكتشاف آثار مهمة ، بيد أن « خزانة الكتب » كانت قد طويت صفحتها !

خزانة الوركاء

الوركاء ، إحدى مدن العراق المهمة العريقة في التاريخ . وقد ورد ذكرها في التوراة باسم « أَرَك »[3] . وتُرى أخربتها في جنوبي العراق ، على الضفة الغربية من عقيق الفرات القديم . وقد جرت فيها تنقيبات منذ أواسط القرن التاسع عشر . غير أن أعظم تنقيب حصل فيها ، كان على يد بعثة ألمانية سلخت فيها نحواً من عشرة مواسم تنقيبية متتالية ، آخرها كان في سنة ١٩٣٩ . فوفّقت لكشف طائفة كبيرة من آثارها والوقوف على بعض المباني القديمة فيها . إلا أنها لم تهتد إلى موضع « خزانة الكتب » فيها . ومع ذلك ، فان العثور على بعض السجلات في أطلال الوركاء ، يحملنا على الاعتقاد بان هذه المدينة قد كانت موطن الألواح ، لوجود جملة معابد خطيرة الشأن فيها . وما عثر عليه من هذه الألواح

---

(١) نشر ريسنر (G. Reisner) سنة ١٩٠١ ، ما هو محفوظ في متحف برلين من ألواح خزانة تلو . ونشر بارتن (G. A. Barton) سنة ١٩٠٧ ـ ١٩١٤ ، ما في خزانة هنرفرد بأميركة من ألواح خزانة تلو . ونشر غيرهما من العلماء نصوصاً أخرى من هذه الخزانة ، ظهرت في مقالات في بعض المجلات الأثرية بديار الغرب .

(٢) قام بها متحف اللوفر . وقد ظهرت نتائج هذا الحفر في جملة مطبوعات ، أهمها :
De Genouillac, Fouilles de Telloh. (2 vols., Paris, 1934-1936).

(٣) سفر التكوين (١٠ : ١٠) .

يتضمن وثائق ادارية وقانونية وتجارية وعهوداً مختلفة وصلوات وأدعية وغير ذلك . وفي هذه من الدلالة ما يدعو إلى التخمين بأن مدينة الوركاء قد كانت خزائن كتبها زاخرة بالألواح .

إن هذه النصوص ، ترينا صورةً صادقة لحياة الشعب اليومية في أطوار متفاوتة ، أعني منذ أقدم العهود التاريخية حتى العهد السلوقي ، وهو من المائة الثالثة إلى الثانية قبل الميلاد ، وتمدّنا بأسماء الاشخاص . وفي هذا من المادة اللغوية ما يسترعي التفات علماء الآشوريات إليها .

وهذا القدر القليل – بالقياس إلى ما يُحتمل أن يكون – من ألواح خزائن الوركاء ، قد عُني العلماء بنشر جوانب منه ، ونقله إلى لغاتهم ودراسته ، وقد أودعوه بطون تآليفهم الأثرية .

ولنا أن نقول ان جملةً من هذه الألواح ، محفوظ في المتحف العراقي . وجملة أخرى قد تناثرت في غير موطن من ديار الغرب .

خزانة تلّ حرمَل[1]

تلّ حر مل ، موضع أثري قريب من معسكر الرشيد ، على نحو ستة أميال من شرقي بغداد . عُنيت مديرية الآثار القديمة العامة في العراق بالتنقيب فيه سنة ١٩٤٥ ، فانتهت إلى نتائج خطيرة الشأن .

لقد أُزيح التراب أثناء التنقيب ، عن مبانٍ مختلفة ، منها معبد كبير وأربع معابد صغيرة ودُور مختلفة . وعُثر ، فيما عُثر عليه ، على أكثر من ١٥٠٠ لوح من مختلف الأنواع والحجوم . وهذه الرقم جميعها من الطين . وفي العثور عليها من الدلالة ما يكفي القول انه كان في هذه المدينة الغابرة « دار سجلات » ، ضمّت كثيراً من الألواح المنقوشة بالكتابات المسمارية .

---

(١) استندنا في كتابة هذه النبذة الى ما ورد عن « تل حرمل » في المجلدات الثاني والثالث والرابع من مجلة سومر ، الصادرة سنة ١٩٤٦ – ١٩٤٨ .

وتوحي النصوص التي فُحصت من هذه الألواح ، الى أن تل حرمل كان أيام عمرانه، مركزاً إدارياً محصناً بسور ضخم شيد في بداية الألف الثاني قبل الميلاد، لادارة المنطقة الزراعية الخصبة بين دجلة وديالى ، وقد كان تابعاً لأشنونا ، إحدى دول المدن في منطقة ديالى . وكانت دولة اشنونا خاضعة لملوك لرسا (لارسا) السومريين ، من سنة ٢٠٠٠ إلى ١٨٠٠ ق . م . وانتهى حكمها باستيلاء حمورابي عليها .

والكتابات التي على هذه الألواح ، تدور مواضيعها على أمور قانونية وتجارية مختلفة . ففيها صكوك وعقود تجارية ، كالبيوع والمداينات ، وفيها عقود التبني والزواج ، والدعاوي والرسائل الرسمية المتبادلة بين موظفي حرمل ومملكة أشنونا . والذي يحسن ذكره في هذا الصدد ، ان بعض هذه الوثائق مؤرخ بحادثة ما ، سياسية أو دينية .

ومما وُجد في هذه المدوّنات ، أثبات وسجلات بأسماء موظفين وما كانوا يتقاضونه من رواتب ، ذلك إلى مدونات في اللغة موضوعة بأسلوب معجمي ، وألواح لغوية علمية فيها أسماء طيور ، وأسماء مواد تصنع من الخشب والقصب، وأسماء الأشربة المختلفة ، وأسماء آلهة . ومن أغرب ما وجد بينها ، لوح فيه إشارات ، يُظن انها صورة بدائية للعلامات الموسيقية (النوطة) .

ومن أنفس ما عثر عليه في هذا الباب ، لوحان فيهما ثبت جغرافي يحوي أسماء ٢١٠ مواضع، أغلبها أسماء مدن وأنهار . وبعض هذه المواضع يُجهل أمره، فهي مما تفرّد بذكره هذان اللوحان .

وقد وُجد من بين هذه الرقم جزء من قانون مدوّن باللغة الأكدية (السامية) يسبق زمن حمورابي بنحو نصف قرن من الزمان[1].

---

(١) راجع : قانون جديد من تل حرمل ، للاستاذ طه باقر (سومر ٤ [١٩٤٨] ص ١٤٢ - ١٤٣) .

ومن الألواح (الرقم) المهمة ، مجموعة حقوقية تضمنت أقضية وأحكاماً في بعض القضايا مما يلقي ضوءاً جديداً على اصول الترافع والتقاضي ، وكذلك على الشرائع القديمة مما قبل حمورابي . أما الألواح التي تضمنت مادة لغوية ، فعلى جانب كبير من الأهمية لوفرتها أولاً وللثروة اللغوية الموجودة فيها . وهي كلها من نوع المعاجم السومرية الصرفة، أعني تفسير جمل وعلامات سومرية بما يرادفها في اللغة السومرية نفسها دون اللغة الأكدية . واكبر هذه السجلات رقيم كبير (٤٠ ـ ٥٠ × ٤٠ ـ ٥٠ سم) يعدّ أول معجم بأسماء النبات والحيوان والطير والأشربة .

ومما يثلج الصدر ، أن كشف ألواح هذه الخزانة ، كان على يد جماعة من الآثاريين العراقيين ، وان الألواح ذاتها نقلت كلها إلى المتحف العراقي ببغداد .

خزانة أشور

كانت مدينة « اشور » أول عاصمة لمملكة الآشوريين . وتقع أطلالها على ضفة دجلة اليمنى، على أربعة أميال من شرق قرية « شرقاط » . وقد نقّب فيها بعض التنقيب في القرن التاسع عشر . بيد أن كنوزها وتخطيطها لم يعرفا بالوجه المطلوب إلا على يد الجمعية الشرقية الألمانية ، التي نقبت فيها برئاسة الآثاري الشهير ولتر أندريه (Walter Andrae) بين سنة ١٩٠٠ و ١٩١٤ . ولقد عثرت فيها على آثار كثيرة نقلت إلى متحف برلين ومتحف استانبول . وكشفت النقاب عن جملة معابد وقصور ودور ومقابر . ومن أهم ما عثر عليه فيها ، آلاف ألواح الطين التي كان يقوم منها « خزانة كتب » حافلة بالمواضيع النفيسة . وقد عنيت الجمعية المذكورة ، بنشر نصوص كثيرة منها ، تبحث في « التاريخ » و « القضاء » و « الدين » و « الطب » و « السحر والتنجيم » ، هذا إلى مواضيع أخرى متنوعة[١] ، أهمها مجموعة من الألواح كتبت بمواد

(١) ظهرت هذه النصوص في المجلدات ١٦ ، ١٨ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٥٠ من

قانونية من الشرائع الآشورية من العهد الآشوري الوسيط (القرن الخامس عشر إلى الثالث عشر قبل الميلاد) .

ولقد لفتت هذه « القوانين » الآشورية التي عثرت عليها الجمعية المذكورة في آشور ، أنظار الباحثين ، فأقبلوا على نشرها ودرسها ، وخرجوا من ذلك بأثمن النتائج التاريخية[١].

خزانة نوزي

على نحوٍ من ١٢ ميلاً من جنوب غربي كركوك ، أو على ميلين من جنوب غربي قرية تركلان ، تل يعرف بـ « يورغان تپه » . وهو يبعد ثلاثة أميال من مجموعة تلول كبيرة تعرف باسم « ويران شهر » .

وقد أجرى بعض الناس هنالك تنقيباتٍ غير علمية، بل غير مشروعة، استخرجوا في خلالها ألواحاً كثيرة مكتوبة بالخط المسماري ، وباعوها من تجار الآثار ، فتفرقت بين غير موضع . كان ذلك في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

وهذه التلول الأثرية ، تشير إلى موضع مدينة « نوزي » القديمة ، التي خربت بحريقٍ داهمها في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد .

لقد نُقّب في هذا الموضع عدة سنوات (١٩٢٥ ـ ١٩٣١) ، وشارك في الكشف عن آثار هذه المدينة جماعة من علماء الآثار . نذكر منهم : ادورد

= منشورات الجمعية الشرقية الألمانية (WVDOG) بعنوان :
Keilschrifttexte aus Assur. (Leipzig, 1911 - 1927).
وقد عني بنشرها الآثاريون : مسرشمت (L. Messerschmidt) وشرودر (O. Schroeder) وابلنك (E. Ebeling).

(٢) راجع ذلك في كتاب :
Driver (G. R.) and Miles (J. C.), The Assyrian Laws. (Oxford, 1935).

كيرا (E. Chiera) وسبيزر (E. A. Speiser) وستار (R. F.S. Starr)، وولنسكي (E. Wilensky) ووترمان (L. Waterman) وغيرهم . فعثروا على آثار خطيرة الشأن ، تكشف عن كثير من خفايا تاريخ هذه البقعة وسكانها الأقدمين[1] . ومن أبرز ما وقفوا عليه ، آلاف ألواح الطين التي يقوم منها « دار سجلات » ، أو ما جرينا على تسميته هنا بـ « خزانة كتب » .

لقد نقلت ألواح خزانة نوزي إلى مواطن مختلفة . فبعضها اليوم في المتحف العراقي ، وبعضها الآخر تفرق بين جملة من ديار الغرب : في المتحف البريطاني ، وفي اللوفر ، وفي بعض مؤسسات الولايات المتحدة الأميركية .

وقد أقبل جماعة من العلماء على قراءة ما في هذه الألواح من نصوص قديمة ، ولم يكتفوا بالقراءة ، بل عمدوا إلى نشرها ، وترجمة بعضها إلى لغاتهم ، وتعزيزها بالدراسات التاريخية واللغوية المفيدة[2] .

وقد بان بعد الوقوف على هذه الألواح ، أن أغلبها مؤرخ بنحو المائة الخامسة عشرة قبل الميلاد . ويستدل من بعضها أن اسم « نوزي » كان في

---

(١) راجع :

Starr (R. F. S.), Nuzi : Report on the Excavations... 1927-1931. (2 vols., Harvard University Press, 1937-39).

Pfeiffer (R. H.), Nuzi and the Hurrians. (Washington, 1936).

وفي آخره ثبت حسن بالمراجع المختلفة عن نوزي .

(٢) من أهم ما نشر في هذا الباب :

Chiera, Joint Expedition with the Iraq Museum at Nuzi. (6 vols., Paris-New Haven, 1927-1939).

Chiera, Pfeiffer and Meek (T. J.), Excavations at Nuzi. (3 vols., Harvard University Press, 1929-1935).

العصر الآكدي (منذ صدر الألف الثالث قبل الميلاد) ، بصيغة « كاسو »[١].
واستخرج من الطبقات السفلى القديمة في نوزي ألواح قديمة يرجع عهدها الى ما قبل الألف الثاني قبل الميلاد[٢].

ويبلغ عدد هذه الألواح نيفاً وأربعة آلاف لوح ، تناولت كتاباتها شؤوناً مختلفة . ويمكن أن يستخلص منها فكرة واضحة عما كانت عليه الحياة اليومية ، والامور العائلية ، وأحوال الدولة من ضرائب وأجور ، والوضع الاجتماعي للشعب الحوري (Hurrians) الذي كنا نجهل من أمره الشيء الكثير .

لقد صار المستشرقون والمشرعون في السنوات الاخيرة ، يجدون في ألواح نوزي منبعاً للشرائع القديمة ، لا سيما ما كان مدوناً فيه أعمال الحاكم في نوزي والالواح المتعلقة بالسرقة وأحكامها .

ويطول بنا الكلام إذا حاولنا أن نذكر جميع المواضيع التي تدور عليها ألواح هذه الخزانة . فكثير منها ذات صبغة تجارية وقانونية وإدارية ، هذا إلى أمور أخرى متنوعة . وإذا أردنا التخصيص في ذكرها لقلنا انها تشتمل على قرارات المحاكم والدعاوي القضائية ، والوثائق المتعلقة بالمقايضة ، والتجارة ، والكفالة ، والديون ، وقوانين العائلة ، والزواج ، والرقيق . هذا إلى رسائل متنوعة ، وثبت بنذور للمعابد، وجداول بأجور العمال المستخدمين في المعبد ، وجداول أخرى بأسماء الاعلام التي تمدنا بمواد ثمينة لدراسة الانتقالات السلالية حوالي نوزي ، في أواسط الالف الثاني قبل الميلاد .

ثم ان هذه الالواح ذات قيمة عظيمة لمؤرخ الشرق القديم ، ولدارس الحضارة الشرقية ، هذا إلى أنها ذات فائدة لا تقدّر للعالم بالآشوريات ، بكونها مكتوبة بلهجة أكدية خاصة ، غير انها تستعمل ألفاظاً حورية تزيد في علمنا

---

(١) Nuzi, vol. I, p. 516, 518.
(٢) Meek(J. J.), in Revue d, Assyriologie, XXXIV p. 65.

بمفردات اللغة الحورية ، ومن ثمة تؤدي إلى زيادة في مو'د المعجم الآشوري والاكدي[١] .

ومما ورد في هذه الالواح أيضاً ، جملة أسماء جغرافية ، أغلبها لم يمكن تحقيق موضعه . ومن أبرز الاسماء التي عرف كنهها ، اسم ارافا (Arrapha) ، فقد ذهب الباحثون إلى أنه الاسم القديم لمدينة كركوك ذاتها[٢] .

وهذه الالواح تختلف حجماً وهيئة . فمنها المربع والمستدير والمسنم ، ومنها ما كانت حافاته مدورة أو قائمة .

خزانة المدائن (قطيسفوت)

كانت « المدائن » عاصمة للفرس الساسانيين في العراق . وقد بدأ حكمهم فيها منذ سنة ٢٢٤ للميلاد ، وانتهى أمرهم بفتح العرب للعراق في أيام عمر بن الخطاب ، واستيلائهم على المدائن سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) .

وقد بلغ الفرس من الحضارة في عهد تلك الدولة ، مبلغاً حسناً تشهد به ما خلفوه من آثار جليلة . ولم يكونوا في العلم بأقل من ذلك شأناً . غير أن المؤلفات التي كتبت في تلك الاجيال البعيدة لم تبق عليها يد الدهر . وغاية ما وقفنا عليه بصددها أنباء قليلة لا تشفي الغليل ، يستشف منها وجود كتب كانت مخزونة في تلك « المدائن » .

من ذلك ، ما ذكره ابن خلدون ان المغول ، حين سقوط بغداد بيدهم سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) « استولوا من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يبلغه الوصف ولا يحصره الضبط والعد . وألقيت كتب العلم التي كانت بخزائنهم جميعها في دجلة ، وكانت شيئاً لا يعبّر عنه ، مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لاول

---

(١) Gelb, Hurrians and Subarians, (Chicago, 1944; p. 6).

(٢) Gadd, Tablets from Kirkuk, (R.A., XXIII, 1926; p. 64).

الفتح في كتب الفرس وعلومهم »[١].

وهذا الخبر كنا أوردناه في موضوع « غرق الكتب » من هذا الكتاب ، وأعدنا نقله هنا لما فيه من إشارة إلى كتب الفرس .

وقد ساق ابن خلدون هذا الخبر بنصه وفصه في موطن آخر من تاريخه ، إلا أنه أوضح في آخره ان هذه الكتب كانت في المدائن، خاتماً عبارته المذكورة بهذه الصورة : « ... مقابلةً في زعمهم بما فعله المسلمون لأول الفتح بكتب الفرس عند فتح المدائن »[٢].

ومهما يكن مبلغ صحة هذا القول الذي لم نجد في المصادر العربية القديمة ما يؤيده ، فان فيه دلالة على وجود كتب في المدائن .

وفي آخر كتاب « جاويذان خرد » ، وهو من المؤلفات الفارسية القديمة ، حكاية تشير إلى ان أحد الفرس ، أعلم المأمون بوجود نسخة من هذا الكتاب مطمورة « في الخزائن تحت الايوان بالمدائن »[٣] ، وانها اخرجت على الصفة التي ذكرها ذلك الرجل الفارسي وكتبت له نسخة منه .

وفي صدر كتاب «جاويذان خرد» قول القائل : «نقله من اللسان القديم إلى اللسان الفارسي ، كنجور بن اسفنديار وزير ملك إيران شهر . ونقله إلى العربية الحسن بن سهل أخو ذي الرياستين. وتممه الأستاذ أبو علي أحمد بن محمد مسكويه رحمه الله تعالى ، بأن ألحق به حكم الفرس والهند والعرب والروم » .

فهذا السفر قد كان مكتوباً بالفارسية القديمة ، ومنهـا نُقل إلى الفارسية الحديثة فالعربية . ومن هذا نعلم بعض الشيء عن لغة الكتب التي كانت في المدائن .

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٣ : ٥٣٧) .

(٢) تاريخ ابن خلدون (٥ : ٥٤٣) .

(٣) رسائل البلغاء : اختيار وتصنيف محمد كرد علي بك . (ص٤٧٨ ـ ٤٨٠ من الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٤٦. وكتاب « جاويذان خرد » مما عني بنشره عبدالعزيز الميمني في الصفحة ٤٦٩ ـ ٤٨٢ من تلك الرسائل) .

ويؤخذ من نص أورده أحد المؤرخين الأقدمين ، وهو أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور ، المتوفى سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣ م) ، ان كتب المدائن نقلت إلى مدينة مرو ، فكان منها ثروة أدبية أغنت خزائن كتب مرو الكثيرة[١] . قال : « حدثني أبو الحسن أحمد بن محمد المهلبي . قال حدثني يحيى بن الحسن بن علي بن معاذ بن مسلم ، قال : إني بالرقة بين يدي محمد بن طاهر بن الحسين على بركة ، إذ دعوت بغلام لي ، فكلمته بالفارسية . فدخل العتّابي ، وكان حاضراً في كلامنا ، فتكلم معي بالفارسية . فقلت له : أبا عمرو ، مالك وهذه الرطانة ؟ قال : فقال لي : قدمت بلدتكم هذه ثلاث قدمات ، وكتبت كتب العجم التي في الخزانة بمرو ، وكانت الكتب سقطت إلى ما هناك مع يزدجرد[٢] ، فهي قائمة إلى الساعة »[٣] .

ويزدجرد المذكور في هذا الكلام ، هو أحد ملوك ثلاثة عرفوا بهذا الاسم من دولة الفرس الساسانيين في العراق : يزدجرد الأول ، وقد حكم من سنة ٣٩٩ إلى ٤٢٠ م . ويزدجرد الثاني (٤٣٨ ـ ٤٥٧ م) . ويزدجرد الثالث (٦٣٢ ـ ٦٥١ م) . وأغلب ظننا ، أن الكتب المنوه بها نقلت في زمن هذا الاخير الذي كان من أمره ما كان حين فتح العرب للعراق .

---

(١) أثنى ياقوت الحموي ثناءً عطراً على خزائن الكتب التي كانت بهذه المدينة في زمانه . راجع معجم البلدان (مادة : مرو) .

(٢) في المطبوع الذي ننقل منه : بردجرد . وهو تصحيف .

(٣) كتاب بغداد لطيفور (الجزء السادس ص ١٥٧ ، طبعة كلر . ليبسك ١٩٠٨) .

خزائن أخرى

وهنالك « خزائن » أخرى ، كشف عن أقسام منها : ولم يسعد الحظ على الوقوف عليها بكمالها. وسبب ذلك، ان بعض المدن التي تقبّب فيها العلماء ، لم يكمل تنقيب رقعتها كلها . فلم يهتدوا إلى موضع الخزانة منها . كمدينة أور[1] والوركاء وغيرها. وما وجدوه من ألواح خزائن هاتين المدينتين العظيمتين لا يعدّ شيئاً بالقياس إلى ما ينتظر ان يعثر عليه فيها .

ومن تلك الأسباب ، ان بعض المواطن الاخرى، لم يجر فيها تنقيب علمي على وفق ما يقتضيه فن استخراج الآثار . ذلك أن أيدي بعض الناس العابثة ، حفرت فيها ، وليس لهم من همّ إلا التقاط الآثار وبيعها طلباً للمال . وكان من بين ما أخرجوه « الألواح » المكتوبة . وقد مر بنا في مطاوي هذا الباب أنباء عن بعض اللقى التي عثر عليها هؤلاء الناس ، الذين دأبهم السطو على مواطن الآثار وتشويش معالمها بجهلهم وطمعهم .

ومن الأماكن الاخرى التي عثروا على شيء من ألواح خزائنها ، مدينة « أما » التي تعرف أطلالها اليوم باسم « جوخى »[2] ، و « شروباك » وتسمى

(١) نشرت طائفة من نصوصها في مجموعة :

Ur Excavations. Texts. (3. vols , London, 1928-1937) By C. J. Gadd, L. Legrain, and E. Burrows.

(٢) راجع ما نشر من ألواحها في :

Contenau(G.),Contribution a l'histoire économique d' Umma. (Paris, 1915).

Chiera (E.), Selected Temple Accounts from Telloh, Yokha and Drehem. (Philadelphia , 1921) .

Schneider (N.), Das Drehem-und Djohaarchiv. (Orientalia, Num 45-46, Roma, Martio 1930).

Boson (G.), Tavolette cuneiformi sumere degli archivi di Drehem di Djoha , dell' ültima dinastia di Ur. (Milano, 1936) .

أخربتها اليوم « فارا »[١] ، و « دلبات »[٢] ، و « لارسا » ويسمى موضعها اليوم « سنكرة »[٣] ، و« كوثى » ، و « الدير » . وهذه المدن كلها في النصف الجنوبي من العراق .

ومن أجلّ المدن التي لم يوفق العلماء لاكتشاف خزائنها ، مدينة بابل . فان هذه المدينة ، على عظم شأنها وبعد صيتها ، ما زالت خزائن كتبها لم تصل اليها معاول المنقبين الآثاريين كما كان ينتظر ، بالرغم من أن آلافاً مؤلفة من ألواحها عثر عليها الأهالي أثناء حفرياتهم غير المشروعة ، فتسربت منهم إلى ديار الغرب ، ونشر كثير منها في جملة مطبوعات . بيد أن ما نطلق عليه اسم «خزانة كتب» لم تكشف بعد . ولعلها لن تكشف . فان هذه الخزائن كان نُقل بعضها منذ الأزمنة القديمة إلى خزائن نينوى وإلى غيرها . هذا إلى ما استخرج منها في العصور الحديثة بأيدي العلماء لاسيما الأهالي حسبما ألمعنا اليه أعلاه .

---

(١) نشرت ألواحها في :

Thureau-Dangin (F.), Contrats archaïques provenant de Suruppak. (R.A., VI, 1907; pp. 143-154).
Jestin (R.), Tablettes sumériennes de Suruppak au Musée de Stanboul. (Paris, 1937).

(٢) عثر في دلبات ، وهي في جنوب بابل ، على ألواح من العصر البابلي القديم . وقد استنسخها انكناد في كتابه :

Ungnad (A.), Urkunden aus Dilbat. (Leipzig, 1909).

ونشرت ألواح أخرى من خزانة دلبات في المرجعين الآتيين :

Schorr (M.), Urkunden des Altbabylonischen Zivil-und Prozessrechts (Leipzig, 1913).
Gautier (J. E.), Archives d'une famille de Dilbat au temps de la première dynastie de Babylone (Le Caire, 1908).

(٣) Langdon, Contracts from Larsa. (PSBA., XXXIV., 1912; pp. 109-113).

الباب الثالث

خزائن كتب العراق بعد الميلاد

خزانة مرقد النبي حزقيال

هذا المرقد، أحد المزارات اليهودية المقدسة في العراق . يقصده اليهود في مواسم معلومة من السنة للزيارة والتبرك. وهو في قرية «الكفل»، على نحو عشرين ميلاً من جنوب الحلة[١] . واسم دفينه في المراجع العربية القديمة « ذو الكفل». وبهذه التسمية ورد ذكره في القرآن[٢] . ثم صار « الكفل » . أما القرية التي هو فيها فكانت معروفة بـ « بِرْ مَلاَّحة »[٣] .

لقد كان في هذا المرقد خزانة كتب تشتمل على مؤلفات كثيرة باللغة العبرية، لا أثر يذكر لها اليوم . وقد أشار إلى هذه الخزانة بعض الكتبة الأقدمين . فذكر الرحالة الأندلسي الشهير بنيامين التطيلي، الذي دوّن أخبار رحلته سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣ م)، في كلامه على هذا المرقد ما هذا نقله :—

« وتجاور المرقد دار من أوقاف النبي ، فيها خزانة كتب ، يقال ان بعضها يرتقي تاريخه إلى عهد الهيكل الثاني . ومن جاري العادة ، أن من يموت بلا عقب

---

(١) في صفة هذا المرقد ومعرفة صاحبه ، راجع : رحلة بنيامين (ص ١٤٢ ـ ١٤٥ من الترجمة العربية لناقلها ومحققها الاستاذ عزرا حداد . بغداد ١٩٤٥) . ومقالة : « الكفل : تعريفه ووصفه » للاب أنستاس ماري الكرملي (المشرق ٢ [١٨٩٩] ص ٦١ ـ ٦٢) . و « ذو الكفل ومدفنه » له أيضاً (لغة العرب ٦ [١٩٢٨] ص ٦٤١ ـ ٦٤٦) . ونزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ليوسف غنيمة (بغداد ١٩٢٤ ، ص ١٩٦ ـ ٢٠٣) .

(٢) سورة الانبياء : الآية ٨٤ ، وسورة ص : الآية ٤٧ .

(٣) معجم البلدان (مادة : برملاحة) .

يقف كتبه على خزانة الدار هذه »[١] .

ومن جملة المخطوطات القديمة التي كانت في عصر الرحالة بنيامين ، نسخة من «أسفار موسى» ، فقد قال انه « في يوم عيد الكفارة، تتلى فصول من أسفار موسى ، من مخطوط كبير يقال ان حزقيال كتبه بيده »[٢] .

وحينما زار الرحالة الألماني نيبهر (C. Niebuhr) هـذا المرقد في القرن الثامن عشر ، لم يجد فيه شيئاً يذكر من بقايا هذه الخزانة .

ولما زار الرحالة الانكليزي لفتس هذا القبر سنة ١٨٥٢ م ، قال : « وقد بني في احدى زواياه خزانة لنسخة عبرية من أسفار موسى الخمسة »[٣] . فهل تكون هذه النسخة التي ذكرها لفتس في أواسط القرن التاسع عشر ، هي النسخة التي رآها بنيامين التطيلي في القرن الثاني عشر للميلاد ؟

خزائن كتب الديارات

لم تشتهر بلاد بكثرة دياراتها ، اشتهار العراق بها . فتحدثنا كتب التاريخ والبلدان والأدب ، بأخبار هاتيك الديارات ، التي لا نغالي إذا ما قلنا انها كانت تعد بمئات ، بعضها مما عنيت بذكره ووصفه المراجع العربية القديمة ، والبعض الآخر انفردت بذكره المراجع الارامية .

وقد كانت جملة صالحة من هذه الديارات في غاية السعة والازدهار . ونشأ في أكنافها جماعة من العلماء الكبار والمؤلفين الأفذاذ ، الذين تشهد البقية الباقية من تصانيفهم بعلمهم وفضلهم .

---

(١) رحلة بنيامين (ص ١٤٤ من الترجمة العربية) .

(٢) رحلة بنيامين (ص ١٤٣) .

(٣) Loftus (W. K.), Travels and Researches in Chaldaea and Susiana. (London, 1857; p. 36).

ولم تكن تلك الديارات مباءة للزهاد والعباد حسب ، بل كانت معاهد علمية، فيها يتلقى الرهبان أفانين العلم .

ومما تقتضيه نظم الديارات ، أن يكون في كل دير « خزانة كتب » ، تودع محلاً ما من الدير ، ويتعهدها الرهبان أنفسهم بالمحافظة عليها وتوسيع نطاقها . وتتكون خزانة الدير في الغالب :

(١) مما يؤلفه ويستنسخه الرهبان أنفسهم في مختلف الأزمنة . فان بعضهم لا عمل له في ديره غير التأليف والنسخ .

(٢) مما يهدى الى الدير من كتب . ويدخل في ذلك النذور والوقوف والهدايا التي ترد من مختلف الجهات .

(٣) مما يقتنيه من كتب .

قلنا ، ان كل دير كان لا يخلو من خزانة كتب ، صغيرة كانت أم كبيرة . غير ان يد الزمان العاتية ، قد أبادت اكثر تلك الديارات ، فذهب بذهابها ما كان فيها من أسفار نفيسة .

وليس بوسعنا أن نصف في هذا الكتاب من خزائن ديارات العراق ، إلا ما وقفنا على خبر صريح لها أو إشارة واضحة بشأنها . ومن ثمة أغفلنا ذكر خزائن اكثر الديارات لسكوت المراجع التي بين يدينا عنها . ولا يخفى أن المراجع القديمة قل أن تعنى بوصف هذه الخزائن ، بل انها لا تذكرها في الغالب إلا عرضاً . ولا مناص من أن نتلمس السبيل تلمساً لكي نقف على بعض الشيء في هذا الموضوع .

خزانة دير متّى

هذا الدير في أعالي « جبل مقلوب » المعروف بجبل الفاف ، على نحو ٢٠ ميلاً من شمال شرقي مدينة الموصل . أسسه مار[١] متّى الشيخ ، في أواخر المائة الرابعة للميلاد .

(١) « مار » أو « مر » : لفظة ارامية ، بمعنى السيد أو الولي أو القديس .

كان لدير متى خزانة حافلة بالكتب ، ازدادت كتبها في المائة السابعة للميلاد ، وذاع أمر مخطوطاتها النفيسة في نحو سنة ٨٠٠ م ، فان الجاثليق طيمثاوس الأول (المتوفى سنة ٨٢٣ م) ، بعث في استنساخ شيء منها ، فقد ورد في رسالته الثالثة والثلاثين إلى الربّان[١] سرجيس ، ما هذه ترجمته :

« أطلب إليك أن تذهب مسرعاً إلى دير مار متّى ، وتطالع ترجمة ديونوسيوس أسقف أثينة ، أو ترجمة فوقا ، وتنظر أيتها الفضلى ، فتستنسخها أو ترسل بها إلينا مع ثقة ، فنعيدها إليك بدون تريث »[٢] .

وكان مما ضمته هذه الخزانة، نسخة جليلة من ترجمة الكتاب المقدس المعروفة بـ « هكسبلة اوريجانيس »[٣] . فان الجاثليق طيمثاوس المذكور ، لما شعر بها ، استعان بجبرائيل[٤] ، فاستعارها وبعث بها إلى الجاثليق فاستنسخها . وقد ورد في رسالة الجاثليق السابعة والأربعين في هذا الصدد ، ما هذا نقله :

« إلى صفي الله مار سرجيس أسقف عيلام . وافتنا رسائلك في شأن الهكسبلة ، فطالعناها واستوعبنا كل ما كتبتموه فيها . وقد سبق أن أخبرناكم عاماً أول ، أن أخانا جبرائيل كاتب ديوان ملكنا المظفر (ببغداد) ، بعث إلينا بنسخة من الهكسبلة مخطوطة على القراطيس بخط نصيبيني . فاستحضرنا ستة نساخ وكاتبين يمليان عليهم نص تلك النسخ ، وكتبنا نحن ثلاث نسخ من العهد العتيق كله ، الواحدة لنا والاثنتان لجبرائيل الجليل . وأصابنا من جراء ذلك كلف وأتعاب ومشقات ونفقات كثيرة تحملناها مدة ستة أشهر تقريباً »[٥] .

---

(١) الربان : لفظة ارامية أيضاً ، بمعنى الراهب.

(٢) دير مار مى الشيخ ودير مار بهنام الشهيد في جوار الموصل: للبطريرك أفرام رحماني (بيروت ١٩٢٨ ، ص ٩ــ ١٠) .

(٣) عني المستشرق جرياني (A. Ceriani) بنشر هذا الكتاب بالفتغراف (ميلانو ١٨٧٦ ، مجلدان) .

(٤) لعله يريد به جبرائيل بن بختيشوع . فانه معاصر للجاثليق طيمثاوس.

(٥) رحماني (ص ١٠ ــ ١١) .

ومما كان في هذا الدير قديماً من المخطوطات ، نسخة نفيسة مصورة من الانجيل ، بالارامية[1] ، كتبه الراهب مبارك البرطلي سنة ١٢٢٠ م بحروف سطرنجيلية بديعة ، وزينه بأربع وخمسين صورة جميلة ملوّنة في غاية الاتقان . جاء في آخره ما تعريبه : « انتهى الكتاب يوم السبت أول أيار سنة ١٥٣١ لليونان (١٢٢٠ م) . كتبه مبارك ، أحد رهبان دير مار متى ، ابن صليبا بن يعقوب من قرية برطلي ...ووقفه مع بعض أوانٍ لمذبح دير مار متى ومار زكى ومار ابراهيم بجبل الفاف ... » .

لقد نُقل هذا الانجيل وقتاً ما من موطنه الاصلي إلى كنيسة السريان الكاثوليك في قرهقوش ، حُفظ فيها مدة طويلة ،. ثم نُقل منها إلى خزانة المطرانية السريانية في الموصل . وفي سنة ١٩٣٨ حمله المطران جرجس دلال إلى رومة وأهداه إلى خزانة الفاتيكان[2].

وورد في مخطوطٍ ارامي في خزانة برلين ، إشارة إلى أن خزانة دير متى ، كانت في سنة ١٢٩٨ للميلاد ، تضم فيما تضم ، مصنفات ابن العبري بأجمعها[3] . ولا يخفى أن تآليف هذا العلامة كثيرة أربت على ثلاثين كتاباً .

ولقد لمّح إلى هذه الخزانة، الربان داود بن بولس في رسالته إلى الأسقف يوحنا ، حيث قال : « قَدِم إماما اللغة ، راميشوع وجبرائيل، إلى دير مار متى ورأى رئيس الدير أنهما أفصح من معاصريهما نطقاً وأبلّ ريقاً ، أعطاهما قلالي

---

(١) تكتب اللغة الارامية في نوعين من الحروف : اولهما الشرقي، وهو الحرف الكلداني ، ويستعمله النساطرة والكلدان . وثانيهما الغربي ، وهو الحرف السرياني ، ويكتب به السريان والموارنة .

(٢) عصر السريان الذهبي للفيكنت فيليب دي طرازي (ص ٨٦ – ٨٧ ، بيروت ١٩٤٦) .

(٣) Sachau (E.), Verzeichniss der Syrischen Handschriften der Königlichen Bibliothek zu Berlin. (Vol. II, Berlin, 1899; . 597; No. 182).

يقيمان فيها .. وشرع كل منهما يتناول كتاباً (من نسخة واحدة) خالياً من نقاط الضبط وعلامات التصحيح ، فينقل قلايته ويشكله بعلامات .. وعند المعاوضة لم ير لأحدهما زيادة على صاحبه .. وعلى هذه الطريقة شكلا كتباً عديدة »[1] .

فلا شك ان نسخ هذه الكتب كان يؤتى بها من خزانة الدير التي تضم أمهات الأسفار القديمة .

وقد لحق بهذه الخزانة على مرّ الزمان ، ويلات ومصائب متعددة . من ذلك ما ذكره المؤرخ ميخائيل الكبير (١١٩٩ م) ان برصوما النسطوري (٤٩٦ م) كان قد أحرق جملة من مخطوطات خزانة دير متى ، وقد نقل نبأ هذا الحرق عن وثائق كانت باقية إلى أيامه في خزانة هذا الدير .[2]

وكانت هذه الخزانة تصاب بمحنة كلما حل بالدير نائبة .. ففي سنة ١١٧١ م ، شن الغارة على هذا الدير جماعة من الأكراد ، فنهبوه وقتلوا بعض رهبانه ، ولاذ من بقي منهم بالفرار . ولما انكشف الأكراد عن الدير ، عاد الرهبان فجمعوا الكتب ونقلوها إلى الموصل[3] .

وقد سطا الكرد غير مرة على هذه الخزانة من ذلك نهبهم لها في سنة ١٢٦١ و ١٢٨٢ و ١٣٢٩ للميلاد . وكان من أشدها ما حصل سنة ١٣٦٩ م ، فقد نهبوها ، وفضل منها بقية في منتصف المائة السادسة عشرة . ثم شذت . وفي سنة ١٨٤٥ م لما بعدها جمع فيها زهاء ستين مخطوطاً .[4]

---

(١) اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية : للعلامة البطريرك أفرام برصوم . (حمص ١٩٤٣ ، ص ٣١٣) .

(٢) الأبحاث السريانية (Studia Syriaca) للبطريرك أفرام رحماني (١ : ٣٢ من المتن الارامي ، بيروت ١٩٠٤) .

(٣) أنباء الزمان في جثالقة المشرق ومفارنة السريان : للخوري اسحق أرملة (بيروت ١٩٢٤ ، ص ٣٦) .

(٤) اللؤلؤ المنثور (ص ٢٣ ـ ٢٤) .

وقد عُني العلامة البطريرك أفرام برصوم، بتصنيف « فهرس » لما في هذا الدير اليوم من مخطوطات. وهذا الفهرس لم يُطبع، وقد أشار اليه مؤلفه الجليل في بعض مؤلفاته[١].

إن عدة مخطوطات من هذه الخزانة العتيقة قد صارت إلى غير خزانة في الشرق والغرب. من ذلك نسخة على الرق من كتاب « الايام الستة » بالإرامية، ليعقوب الرهاوي، كتبت سنة ٨٢٢ م. فانها كانت في خزانة الابرشية الكلدانية بدياربكر[٢]، ثم نقلت سنة ١٩١٩ إلى خزانة الدار البطريركية بالموصل.

وفي خزانة المتحف البريطاني، مخطوطة ارامية ابتهمت قديماً من دير متى، يرتقي تاريخ كتابتها إلى المائة الحادية عشرة للميلاد[٣].

وفي خزانة الدار البطريركية السريانية في بيروت، مخطوط ارامي فيه بعض أسفار العهد العتيق، تاريخه سنة ١٢١٩ م[٤].

وفي خزانة كبردج، نسخة من كتاب ديدسقالية كتبت سنة ١٦٧٨م[٥].

وكان في خزانة هذا الدير غير ما ذكرنا من الأسفار التي كانت تحتويها، إلا

---

(١) اللؤلؤ المنثور (ص ١٢، الرقم ٢٥).

(٢) دير مار متى الشيخ لرحماني (ص ١١ — ١٢)، وبرصوم (ص ٢٣)، ولاسيما أدي‌شير في :

Addai Scher (Mgr.), Notice sur les Manuscrits Syriaques et Arabes conservés à l' Archeveche Chaldéen de Diarbekir, (Ext. Journal Asiatique, 1908; No. 23).

(٣) Wright (W.), Catalogue of Syriac Manuscripts in the British Museum. (Part III, London, 1872; pp. 1076-1078; No. 929).

(٤) رحماني (ص ١٢).

(٥) Wright (W.), Catalogue of the Syriac Manuscripts... of Cambridge. (Cambridge, 1901; No. 3283).

أنها تبدد شملها ، فيسرى منها شيء في الموصل، وديرالشرفة في بيروت، والمتحف البريطاني ، وبرلين ، وغيرها من الأماكن .

خزانة دير ميخائيل

أنشأ هذا الدير مار ميخائيل ، في أواخر المائة الرابعة للميلاد ، على مقربة من ضفة دجلة اليمنى . وما زال قائماً إلى يومنا هذا في أعلى الموصل، على مسيرة نحو ساعة منها . ويقصده الناس للتنزه في أيام الربيع ، إلا انه خال من رهبان .

وقد وصف هذا الدير غير واحد من بلداني العرب ، كياقوت الحموي ، وابن فضل الله العمري وغيرهما .(١)

وهذا الدير ، كأكثر الديارات القديمة في العراق ، كان يحتوي في أيام ازدهاره بالرهبان . على خزانة كتب ليس فيه منها اليوم شيء ما . وقد ذكر العلامة المستشرق شابو ، أن في خزانة باريس الوطنية ، نسخة ارامية من الانجيل ، كتبها على الرق القس يوحنا من دير مار ميخائيل على ضفة دجلة ، سنة ١٥٧٥ اليونانية (= ١٢٦٤ م)(٢).

وكان في جملة رهبان هذا الدير ، الشاعر الأديب المعروف بابن الشمارة ، وله قصيدة(٣) ارامية مطولة ، نشرت في ديوان الشاعر الاربلي

---

(١) معجم البلدان (٢ : ٦٩٣ و٧٠٢ ، ٤ : ٨٧٥ طبعة وستنفلد) ، ومسالك الأبصار (١ : ٢٩٤ ـ ٢٩٨ طبعة أحمد زكي باشا) . وممن وصف هذا الدير من الكتبة المحدثين ، الخوري سليمان صائغ، راجع وصفه له في مجلة النجم (٧ [الموصل ١٩٣٥] ص ٢٥٨ ـ ٢٦٨) .

(٢) Chabot (M. J. - B.), Notice sur les Manuscrits Syriaques de la Bibliothèque Nationale acquis depuis 1874. (Paris, 1896; p. 3-4 ; No. 297).

(٣) تاريخ الموصل للخوري سليمان صائغ (١ : ٩٣) ومجلة النجم (٧ : ٨٥٨) .

« جيورجيوس وردا » وهو من أهل المائة الثالثة عشرة للميلاد . وما من شك في أن نسختها الأصلية كانت في خزانة كتب هذا الدير .

ومن رهبان دير ميخائيل أيضاً الذين عُرفوا بالتأليف ، يوحنا الموصلي المتوفى سنة ١٢٧٠ م . له ديوان شعر ارامي عنوانه « حسن السلوك »[١] ، ولا نجانب الصواب إذا ما قلنا ان نسخته الأم كانت سابقاً من مكنونات خزانة هذا الدير .

وقد ذكر ابن النديم ، ترجمةً موجزة لأحد رهبان هذا الدير ، وهو « اصطفن الراهب » فقال في حقه : « هذا الرجل كان بالموصل ، في عُمرٍ[٢] يقال له ميخائيل . وكان يُحكى عنه انه عمل الكيمياء ، فلما مات ظهرت كتبه بالموصل ، فرأيت منها شيئاً ، وهو : كتاب الرشد ، كتاب ما حدثناه ، كتاب الباب الاعظم ، كتاب الادعية والقرابين التي تستعمل قبل صناعة الكيمياء ، كتاب الاختيار النجومي للصناعة ، كتاب التعليقات ، كتاب الاوقات والازمنة »[٣] .

ونحن لا نستبعد أن تآليف هذا الراهب ، التي رآها ابن النديم وذكرها باسمائها ، كانت نسخها في خزانة هذا الدير .

وقد وضع مار ميخائيل ، مؤسس هذا الدير ، رسالة ارامية في « سيرة مار أوجين » ، وكان ميخائيل من تلاميذ أوجين ، وهذه السيرة انتهت الينا[٤] .

---

(١) نشره المطران ايليا ملوس في رومية سنة ١٨٦٨ م .
(٢) العمر ، بضم العين وسكون الميم ، بمعنى الدير .
(٣) الفهرست (ص ٣٥٩ فلوجل = ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦ مصر) .
(٤) نشرها الاب بولس بيجان اللعازري ، في مجموعه الارامي النفيس الموسوم بـ « أعمال الشهداء والقديسين » .

Bedjan, Acta Martyrum et Sanctorum. (Vol. 3, Paris, 1892; pp. 376-480).

وقد نقل هذه السيرة ، باختصار ، المطران أدي شير في كتاب : سيرة أشهر شهداء المشرق القديسين (٢ : ١١ ـ ٣٣ ، الموصل ١٩٠٦) .

ولا نشك في ان نسخةً عتيقة قد كانت في جملة ما حوته خزانة هذا الدير .

وليس بين المراجع التي في يدينا ، ما يُفصح عن زمن ذهاب كتب هذه الخزانة واندثارها من هذا الدير .

خزانة دير مار بهنام

هذا الدير عامر آهل برهبانه إلى يومنا هذا. وهو يقوم بين دجلة والزاب الاعلى ، في جنوب شرقي الموصل ، على نحو ٣٠ ميلاً منها . وهو على طريق السيارات التي بين الموصل والكوير .

وسُمي هذا الدير باسم القديس « بهنام » الذي استشهد في المائة الرابعة للميلاد ، وأقيم هذا الدير تذكاراً له بُعيد وفاته في هذه البقعة(١).

وورد ذكر هذا الدير في بعض المراجع البلدانية العربية ، باسم « دير الجب ». قال ياقوت في صفته انه « دير في شرقي الموصل ، بينها وبين اربل ، مشهور ، يقصده الناس لاجل الصرع ، ويبرأ منه بذلك كثير »(٢).

وما من شك عندنا ، في ان هذا الدير كان ، كأكثر الديارات ، يزخر في أيام عزه بخزانة كتب نفيسة ، إلا أن يد الزمان تلاعبت بها فأضاعتها .

وما في هذا الدير اليوم من كتب ، جديد زهيد لا يؤبه له . وقد علمنا ان جملةً من المخطوطات الارامية كتبت في هذا الدير في عصور متأخرة ، ثم خرجت من مكنها وتبعثرت هنا وهناك .

من ذلك نحو خمس عشرة مخطوطة ارامية محفوظة اليوم في خزانة كنيسة

---

(١) نشر الأب بيجان ترجمة « بهنام » بالارامية في مجموعه:
Bedjan, Acta Martyrum et Sanctorum. (Vol. II. Paris, 1891 ; pp. 397-441),

(٢) معجم البلدان (مادة : دير الجب) .

الطاهرة بقرية قرهقوش ، من أعمال شرقي الموصل ، نُسخت جميعها في دير مار بهنام : ست منها كتبت في النصف الثاني من المائة السادسة عشرة للميلاد، أي من سنة ١٥٦٩ الى ١٥٩٧ م . ومخطوط واحد كتب سنه ١٦١٤م . وثمانية مخطوطات نسخت في النصف الاول من القرن الثامن عشر (١٧١٠ — ١٧٤٣ م) .

فالمخطوط رقم (٣) نُسخ سنة ١٨٩٦ اليونانية (= ١٥٨٥م) وقد ذكر كاتبه انه نسخه في دير مار بهنام بمسعى الربان باخوس رئيس الدير .

والمخطوط رقم (٥٣) كتبه في هذا الدير ، المطران ايونيس يوحنا ، حارس كرسي دير مار بهنام ، بطلب من رئيس الدير الربان باخوس والربان اسحق القرهقوشيين . وهذا المخطوط أهداه ناسخه إلى الدير .

وفي كنيسة للسريان الارثدكس في قرهقوش، مخطوط ارامي يذكر ناسخه انه كتبه سنة ٢٠٧٠ اليونانية (١٧٥٩ م) باهتمام الربان بهنو رئيس دير مار بهنام .

وفي خزانة الفاتيكان ، مخطوط ارامي أقدم عهداً من السابق ، نسخه يوحنا الراهب في هذا الدير سنة ١٨٨٩ اليونانية (١٥٧٨ م)[١].

وفي خزانة المتحف البريطاني، مخطوط ارامي ، مكتوب في المائة الثالثة عشرة للميلاد ، ورد في بعض هوامشه ، ان الراهب يوحنا الباخديدي[٢] قد جاء به من دير مار بهنام إلى دير آخر[٣].

وممن اعتكف في هذا الدير ونسخ كتباً شتى ، القس كسرون الرهاوي ،

---

(١) Assemani, Bibliotheca Orientalis. (I, 586, VIII).

(٢) منسوب الى « باخديدا » وتعرف اليوم باسم « قره قوش » وقد مر ذكرها .

(٣) Wright, Catalogue of the Syriac Manuscripts in the British Museum. (Vol. III, p. 1079-1080; No. 931):

وهو من أبناء المائة الثانية عشرة للميلاد[١]، فقد توفي سنة ١١٣٩ م.

وقد ورد في ترجمة باسيل الياس الثاني الموصلي، انه ترأس على دير مار بهنام، ولما أصبح مفريانا[٢] نحو سنة ١٨٢٥ م، توجه إلى دير الزعفران. وقبل مغادرته الدير الأول أخفى الأمتعة والكتب، وبعد عودته قصد الدير ثانية، فاستخرج الكتب والآنية الثمينة ومضى بها إلى الموصل[٣].

خزانة دير يونس (دير يونان)

لا أثر لهذا الدير اليوم، وقد أشار اليه غير واحد من البلدانيين، ووصفوه بكونه «ينسب إلى يونس بن متى النبي ... وهو في الجانب الشرقي من الموصل، بينه وبين دجلة فرسخان، وموضعه يعرف بنينوى ...»[٤]. ويغلب على الظن أن تأسيسه كان في أول انتشار النصرانية في هذه البقعة[٥].

كان في هذا الدير خزانة كتب، ضمت مؤلفات عربية وارامية مختلفة. فقد ذكر عمرو بن متى الطيرهاني، في ترجمة الجاثليق حنانيشوع، المتوفى سنة ٧٠٠ م، انه أقام في هذا الدير[٦]، وانه «كان شيخاً كبيراً عالماً ماهراً ومعلماً فاضلاً، أحيي العلوم البيعية، وعمل سبعة وأربعين ترجاماً[٧] وكتاب الميامر[٨]

---

(١) أرملة: أنباء الزمان (ص ٣٤). وانظر خصوصاً: اللؤلؤ المنثور (ص ٢٩).

(٢) المفريان، لفظة يراد بها الاسقف العمومي الذي تكون درجته الدينية دون البطريرك وفوق الاسقف. والجمع مفارنة.

(٣) أرملة: أنباء الزمان (ص ٥٥).

(٤) الديارات للشابشتي (الورقة ٧٨ ب من مخطوطة خزانة برلين).

(٥) مجلة النجم (١ [١٩٢٩] ص ٥١٨).

(٦) أخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل لعمرو بن متى (ص ٦٩، طبعة جسمندي، رومية ١٨٩٦).

(٧) الترجام: لفظة ارامية، بمعنى الخطبة.

(٨) الميامر: جمع ميمر، لفظة ارامية بمعنى المقالة.

وكتاب المراسلات وكتاب التعزية وأربعة كتب في تفسير فصول الانجيل وشرحها ، وله على كل فصل بمفرده موعظة وعذلان[١] يليق به ، ووضع عشرين قانوناً في المحاكمات وفي كل قانون منها عدة قوانين، وله كتاب مسمى علل الموجودات »[٢].

ولا شك في أن مجموعة تآليفه هذه التي ألمعنا اليها ، كانت مما اشتملت عليه خزانة دير يونس . ولسنا نعرف من أمر هذه التآليف اليوم شيئاً .

ومما انتهى الينا من أسفار هذه الخزانة ، « كتاب الخاصة الذي وُجد في دير نينوى» . وهو يبحث في الفلك والتنجيم . ألّفه « نسيب » أحد رهبان هذا الدير . ولم يتحقق عندنا متى ألّف هذا الراهب كتابه .

يبدأ هذا السفر بقوله : « قال الراوي : هذا الذي وجدته عند متيوش بن كيل الأسقف في دير نينوى » . ومنه اليوم نسختان في مدينة حلب ، الأولى لدى يوسف مناديلي[٣]، والثانية في خزانة القس بولس سباط[٤]. وهذه الثانية ضمن مجموع خطي كتب في المائة الثالثة عشرة للميلاد . و « كتاب الخاصة » هو العاشر والأخير من هذا المجموع الذي ورد في صفحته الاولى : « نظر فيه محمد بن علي بن ابراهيم الموقت الشهير بابن رزيق الخيري في سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م) .

---

(١) العذلان : صيغة ارامية ، بمعنى العذل . والمراد بها هنا الخطبة الزجرية .

(٢) أخبار فطاركة كرسي المشرق لعمرو (ص ٥٨) .

(٣) Sbath (Paul), Al-Fihris. (Tome I., Le Caire, 1939; p. 65, item 174, No. 532).

(٤) Sbath, Bibliothèque de Manuscrits Paul Sbath. Catalogue (T. I., Le Caire, 1928; p. 41, No. 48 10).

خزانة دير بيث عابي

يرتقي تاريخ تأسيس هذا الدير ، إلى أواخر المائة السادسة للميلاد . فقد أنشأه الراهب يعقوب اللاشومي[١] ، في أيام الجاثليق النسطوري ايشوعياب الأرزني (٥٨٢ ـ ٥٩٥ م) . وقد اختار له بقعة حسنة من مرج الموصل . وظل هذا الدير عامراً حتى غارات تيمورلنك في أواخر المائة الرابعة عشرة للميلاد ، تلك الغارات التي اجتاحته[٢]. فيكون دير بيث عابي قد عاش زهاء ثمانية قرون. وتُرى اليوم آثار هذا الدير وأنقاضه وراء جبل العقر ، عند قرية تسمى « خرپة »[٣] (بالباء المثلثة) .

ودير بيث عابي من أشهر ديارات العراق وأجلها شأناً. وقد دوّن توما المرجي، أسقف المرج في المائة التاسعة للميلاد ، تاريخ هذا الدير في كتاب ارامي خطير الشأن ، وسمه بـ « كتاب الرؤساء » ، كان المستشرق الانكليزي بج قد حققه ونشره منقولاً إلى الانكليزية[٤] . ثم نشره العلامة بيجان في ليبسك سنة ١٩٠١ .

وقد نشأ في هذا الدير طائفة كبيرة من العلماء والمؤلفين . فلا غرو أن تكون خزانة كتبه ـ وقلّ أن يخلو دير من خزانة كتب كما أسلفنا ـ حافلة بنفائس الأسفار ، مزدانة بامهات الكتب .

ولم ينته إلينا يا للاسف فهرست هذه الخزانة ، بل قد ضاعت كتبها جميعها

---

(١) نسبة الى لاشوم ، وهي قرية كانت على نحو ٣٠ ميلاً جنوبي كركوك، بقرب داقوق.

(٢) مجلة النجم (١ [١٩٢٩] ص ٥١٨) .

(٣) كتابنا : أثر قديم في العراق (حاشية الصفحة ٧١ ـ ٧٢) .

(٤) كتاب الرؤساء لتوما المرجي (بالارامية) وقد نشره العلامة بج بعنوان :
The Book of Governors : The Historia Monastica of Thomas Bishop of Marga, A. D. 840. (Ed. by E. A. W. Budge. 2 Vols., London, 1893).

تقريباً . وغاية ما نستطيع ذكره في هذا المقام يستند إلى وصف المرجي[١] لهذه الخزانة . فقد كانت تضم جملةً صالحة من نسخ الكتاب المقدس ، أعني العهد العتيق والعهد الجديد ، التي كان بعضها مكتوباً على الرق .

ويؤخذ من تاريخ هذا الدير ، ان « شمطا بن يزدين » صاحب جباية أموال الدولة في أيام كسرى ، كان في طليعة المشجعين على إنماء هذه الخزانة وإغنائها بالمخطوطات . فقد أهدى إلى مؤسسه يعقوب ، نسخاً من كتب الطقوس الدينية لاستعمالها في هذا الدير[٢] . فكان من يعقوب أن نقل عنها نسخاً اخرى عديدة .

وكثير من كتب هذه الخزانة قد خُط في دير مار أبراهام الكبير في جبل الازل بجوار نصيبين ، نذكر من ذلك مؤلفات عنانيشوع[٣] ، التي منها : « تنقيح كتاب الفردوس » ، و « الحذرا » ، و « التقاسيم والتمريفات » ، في الفلسفة ، وغير ذلك .

فكل هذه المصنفات كانت مما اشتملت عليه خزانة الدير[٤] . وإذا تتبعنا أخبار هذه الخزانة ، ألفينا انها كانت في ازدياد مطرد ، لأن غير واحد من المحسنين الذين أحرزوا لأنفسهم كتباً ، وقفوها أخيراً على خزانة دير بيث عابي نذكر منهم : دندواي أسقف معلثايا وحانيثا[٥] ، والأسقف سرجس[٦] ، وغيرهما .

وممن كان له يد بيضاء على خزانة هذا الدير ، الراهب باباي ، الذي اشتهر

---

(١) راجع مقدمة بج لكتاب الرؤساء (١ : ٥٩ — ٦٤) ، و « خزانة الكتب في دير بيث عابي » للخوري سليمان صائغ (النجم ٨ [١٩٣٦] ص ١٦٥ — ١٧٠) .

(٢) كتاب الرؤساء (I. p. LIX) .

(٣) المرجع السابق (II. p. 174-177) .

(٤) المرجع السابق (I. p. LXI ; II. p. 236) .

(٥) المرجع السابق (II. p. 238-239) .

(٦) المرجع السابق (I. p. LXI ; II. p.282) .

بوقوفه على الموسيقى ، وعُرف بهمته العالية في تشييد المدارس وتنظيمها ، وذاع صيته بمؤلفاته المختلفة التي أهدى جميعها إلى خزانة دير بيث عابي ، بل أهدى إلى هذا الدير كل ما احتوت عليه خزانة كتبه[١] .

وكان الجاثليق ايشوعياب الثالث (٦٥٠ ـ ٦٦١ م) ، قد وقف على خزانة هذا الدير نسخةً فائقة الجمال من « الانجيل » مذهبةً ومجلدة تجليداً نفيساً بالذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة . وقد ذكر توما المرجي في تاريخه المذكور ، ان الجاثليق صليبا زخا (٧١٤ ـ ٧٢٨ م) ، لما بلغه أمر هذه النسخة المذهبة ، رغب في أن يستحوذ عليها ويأتي بها إلى مقرد في المدائن ، « فجاء إلى بيث عابي بأبهة لا مزيد عليها ليحتازها ، فاستقبله الرهبان بما يليق به من إجلال . ولما طلب اليهم إراءته الكتاب ليسرّح فيه رائد الطرف ، لم يكن من الراهب يوسف ، رئيس الدير ، إلا تلبية هذا الطلب ، دون أن يعلم ما أضمره الجاثليق في سريرته . فأخرج الكتاب من الخزانة وسلّمه اليه . وما ان وقع نظر الجاثليق على هذا المخطوط حتى أُعجب به ، لأنه كان نسخة فاخرة جميلة مزخرفة بالذهب الابريز والحجارة الكريمة . فداخلته رغبة شديدة فيه ، وأخذه ووضعه في خرجـه . فقال رئيس الدير له : ليس لك من حق في أخذ الكتاب بهذا الوجه الجائز . فأجاب الجاثليق : إنكم معاشر المتوحدين ليست لكم حاجة بهذا الكتاب . فدعوا المؤمنين يفرحوا به . وأمر على الفور من كان معه أن يأخذوا طريقهم للعودة ! فلما جرى ذلك ، هرع جملة شبان من الرهبان الأشداء ولحقوا بالجاثليق واعترضوا سبيله بالحجارة والعصي . ولما دنوا منه حطّوه عن ظهر دابته و أنحوا عليه باللكم والضرب واستردّوا منه الكتاب ... »[٢] .

وقد استنتج العلاّمة بج ، ناشر كتاب الرؤساء ، ان ما كانت تحويه خزانة

---

(١) كتاب الرؤساء (I. p.LXI; II. p. 299) .

(٢) المرجع السابق (I. p. LXII; II. p. 228-230) .

كتب دير بيث عابي ، يوم كتب توما المرجي تاريخه في المائة التاسعة للميلاد ، مقداره بين سبعمائة وألف مجلد(١) ، كانت كلها مكتوبة باللغة الارامية .

واستطعنا بطول البحث ، أن نقف على ذكر كتب قليلة جداً ، كانت تعود فيما مضى إلى خزانة هذا الدير ، ثم آل أمرها إلى بعض خزائن كتب الشرق والغرب :

ففي خزانة المتحف البريطاني ، رسالة تتلى في أيام الجدب، وهي ضمن مخطوط تاريخه سنة ١٥١٨ اليونانية (= ٦٠٣ هـ = ١٢٠٦ ـ ٧ م)(٢).

وفي هذا المتحف أيضاً ، مخطوطة أخرى كانت في خزانة هذا الدير ، ترق إلى المائة الثالثة عشرة للميلاد ، عنوانها « تصاوير كتاب الفردوس »(٣) .

وفيه أيضاً مخطوطة كتبها أحد رهبان دير بيث عابي سنة ١٦٠٠ اليونانية (١٢٨٩ م)(٤) .

وقد كان في خزانة أبرشية الكلدان في اسعرد ، مخطوطة على الرق ، ترق الى المائة السابعة للميلاد ، عُني بتجليدها الراهب يابالاها ، أحد رهبان دير بيث عابي(٥).

وهذه المخطوطة الأخيرة لا يُعلم اليوم مصيرها بعد ضياع خزانة اسعرد في أثناء الحرب العظمى الأولى !

---

(١) كتاب الرؤساء (I. p. LXIV) .

(٢) Wright, Catalogue of Syriac Manuscripts in the British Museum. (Part I, p 193; No. 248[125]).

(٣) Wright, Catalogue. (II, p. 1079; No. 430).

(٤) Wright, Catalogue. (II, p. 1204; Appendix A, No. XXIX).

(٥) Addai Scher, Catalogue des Manuscrits Syriaques et Arabes conservés dans la Bibliothèque Épiscopale de Séert, (Mosul, 1905; p. 9; No. 9).

خزانة دير الربان هرمزد

من حسن الحظ ، ان خزانة هذا الدير ، ما زالت حتى الآن حافلةً بكثير من المخطوطات الثمينة ، بالرغم مما أصابها من نكبات ومحن خلال مئات سنين .

ودير الربان هرمزد ، في أعالي جبل القوش ، على نحو ٣٠ ميلاً من شمال مدينة الموصل . أسسه هرمزد الراهب الفارسي النسطوري ، في المائة السابعة للميلاد .

ولسنا نعلم متى كان البدء بجمع كتب هذه الخزانة . والظاهر أنها أخذت تنمو وتتسع قرناً بعد قرن ، بهمة رهبانه العاملين الذين عنوا بالعلم والأدب والدين ، فاجتمع فيها شيء كثير من المصنفات الموضوعة باللغة الارامية .

نُضدت هذه الخزانة في أول إنشائها في بيت من بيوت الدير المنقورة في الصخر . ولكن الأحداث المختلفة ، لا سيما هجوم الكرد على الدير نحو سنة ١٨٤٤ م ، أدى إلى تلف عددٍ من كتبها . وقد أفلح الرهبان حينذاك من إنقاذ نحوٍ من خمسمائة مخطوطة وإخفائها عن عيون أولئك المهاجمين ، إذ أودعوها قبواً عتيقاً في الدير . ولكن سوء الطالع أبى إلا أن يرافق تلك الكتب ليأتي على آخرها . فقد اتفق ، بعد إيداعها القبو ، أن هطل مطر غزير مدرار ، فجرت سيول المياه من أعالي الجبل واجتاحت في طريقها ذلك القبو واكتسحت الكتب التي كان يضمها(١) !

---

(١) راجع مقدمة القسم الأول من المجلد الثاني من كتاب :

The Histories of Rabban Hormizd the Persian, and Rabban Bar-'Idta. (ed. Budge. London, 1902).

وكتابنا « أثر قديم في العراق : دير الربان هرمزد بجوار الموصل » (الموصل ١٩٣٤ ، ص ٥٠) .

ولقد كانت تلك الأسفار جليلة القدر . روى الرحالة الآثاري ريج في حديث رحلته ما هذه ترجمته في هذا الصدد :

« بعض المخطوطات التي فُقدت، لاشك أنها كانت تلقي ضوءاً على تاريخ هذه البقعة العجيبة . فقد كان في هذا الدير سابقاً نحو من خمسمائة مجلد مخطوط قديم على الرق. لكن تلك الكتب مزقت وشققت ورميت في الوادي، فتقاذفتها الريح وصارت تداعبها . وقد أراني الرهبان بعض تلك الأوراق المبعثرة ، فاذا هي من انفس الآثار العتيقة »[١].

كما أن شيئاً آخر من تلك الخزانة كان قد احرق[٢] . وأما ما تبقى منها بعد هذه الكوارث ـ وهو شيء قليل تغلب عليه الحداثة ـ فقد نقل سنة ١٨٦٩ م إلى « دير السيدة » الذي أقيم في تلك السنة ، في السهل الذي في أسفل دير الربان هرمزد .

وذكر فلاأشر في رحلته شيئاً عن هذه الخزانة قبل نقلها ، بقوله :

« زرت الخزانة (سنة ١٨٤٢ م) التي كانت موضوعة في كهف . وكان قد انتثر على أرضها أوراق المخطوطات الممزقة والغلف نصف المحترقة التي تحملت بعض التحمل تدمير المخربين ...... وألفيت الرهبان مكبين على استنساخ شيء من تلك القطع التي ما زالت قراءتها ممكنة لهم، وذلك على ورق أشبه شيء بالرق. أما الحبر الذي يتخذونه للكتابة ، فيمتاز بلونه اللماع الجميل . وهم يكتبون بأقلام

---

(١) Rich (C. J.); Narrative of a Residence in Koordistan and Nineveh. (Vol. II, London, 1836; pp. 95-96).

(٢) Badger (G. P.), The Nestorians and their Rituals. (Vol. I, London, 1852; p. 120).

القصب، ويستغنون عن المناضد في أثناء الكتابة بوضع الورق على ركبهم»[١].

وتضم هذه الخزانة في يومنا هذا ، عدداً صالحاً من الكتب ، لا سيما المخطوطات الارامية النفيسة ، واكثرها في الدين والأدب والتاريخ والفلسفة والشعر وغير ذلك .

ولمخطوطات هذه الخزانة فهرسان مطبوعان :

الاول : وضعه بالفرنسية العلامة العراقي المطران أدّي شير (١٨٦٧-١٩١٥م) وصف فيه ١٥٣ مخطوطة ، وطبعه بباريس في المجلة الآسوية الفرنسية[٢].

الثاني : وضعه بالفرنسية أيضاً ، المستشرق الفرنسي الأب فوستي الدومنكي ، واصفاً فيه ٣٣٠ مخطوطة[٣]. فهو أكمل من الفهرست الأول .

وكنا قد استقصينا أمر هذه المخطوطات[٤]، فاذا أقدمها عهداً إنجيل ارامي مكتوب على الرق ، يرقى تاريخه إلى المائة العاشرة للميلاد (Vosté, No 16)، وانجيل ارامي آخر على الرق أيضاً ، كتب لخزانة ديرالرهبان هرمزد ، سنة ١٥١١ اليونانية (= ١٢٠٠ م) (No. 15) . ويليها نسخة من كتاب «المحاورات»

---

(١) Fletcher (J. P.), Narrative of a Two Years' Residence at Nineveh, and Travels in Mesopotamia, Assyria and Syria. (Vol. I, London, 1850; pp. 252-253).

(٢) Addai Scher, Notice sur les Manuscrits Syriaques conservés dans la Bibliothèque du Couvent des Chaléens de Notre-Dame-des-Semences. (Journal Asiatique, Mai-Juin,1906; pp. 479-512, et Juillet-Août, pp. 56-82) .

ثم طبع هذا الفهرست في السنة ذاتها ، في رسالة قوامها ٦٥ صفحة .

(٣) Vosté (J. M), Catalogue de la Bibliothèque Syro-Chaldéenne de Couvent de Notre-Dame des Semences près d'Alqos. (Rome, 1929; 130 p.).

(٤) أثر قديم في العراق (ص ٥٦ ـ ٥٨) .

بالارامية ليعقوب البرطلي (المتوفى سنة ١٢٤١ م) كُتب سنة ١٢٥٥ م . فهي قريبة عهدٍ بالمؤلف (No. 63) . ثم « مقالة في السكوت » لداديشوع القطري ، كُتبت لخزانة هذا الدير أيضاً سنة ١٦٠٠ اليونانية (= ١٢٨٩ م) . (No. 237) .

وهناك مخطوطات كُتبت بعد ذلك ، في المائة الخامسة عشرة للميلاد ، فما بعدها ، إلى المائة التاسعة عشرة . وبعضها قريب عهدٍ بنا كُتب في القرن العشرين .

وفي خزانة المتحف البريطاني[1] ، مخطوطة ارامية كُتبت على الرق في دير الربان هرمزد سنة ١٣٨٥ اليونانية (= ١٠٧٤ م) .

وقد كان في خزانة أبرشية الكلدان في أسعرد، نسخة من الانجيل بالارامية ، كتبت في دير الربان هرمزد ، سنة ١٥٣٤ اليونانية (= ١٢٢٢ م)[2] .

فالذي يؤخذ من هذا الاستقراء ، ان المخطوطات كان رهبان الدير يكتبونها أو يقتنونها لتضاف إلى خزانة كتبه .

خزانة دير باقوقا

كان هذا الدير في باقوقا بأرض حدياب، بالقرب من الضفة اليسرى للزاب الأعلى. وأخربته باقية إلى يومنا هذا ، على مسيرة سبع ساعات من غرب إربل[3] .

ودير باقوقا ، أسسه الراهب صبريشوع الأواني[4] ، في المائة السابعة للميلاد.

---

(١) Wright, Catalogue (I, pp. 182–188; No. 246).

(٢) أدي‌شير : فهرست مخطوطات خزانة اسعرد (الرقم ١٤) .

(٣) التاريخ السعردي (٢ : ٢٦٣ – ٢٦٤ طبعة أدي‌شير في الباترولوجية الشرقية . باريس ١٩١٨) . وتاريخ كلدو واثور لأدي‌شير (٢ : ٢٦٦ ، بيروت ١٩١٣) .

(٤) منسوب الى أوانا . وهي على ما في معجم البلدان (١ : ٣٩٥) : بليدة من نواحي دجيل بغداد ، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من اوقها . (وراجع : مراصد الاطلاع ١ : ١٠٠ طبعة جوينبل) .

وكان فيه في حياة مؤسسه خمسون راهباً[١] . ومن ثمة عرف أيضاً بدير سبريشوع .

تطرقت بعض كتب الديارات العربية إلى ذكر هذا الدير . فقد وصفه ابن فضل الله العمري ، نقلا عن ابن المستوفي في تاريخ اربل (سنة ٦٣٤ هـ - ١٢٣٦ م) بانه « الى الآن باق ، وفيه رهبان كثيرة »[٢] .

وهذا الدير على ما نعلم، ثلاثة تواريخ بالارامية: أحدها ألـفه شعراً جبرائيل قمصا الموصلي في نحو سنة ١٢٨١ م . وثانيها لمؤلف مجهول . وهذا التاريخ الثاني نشره ألفنس منكنا في الموصل[٣] . وثالثها مختصر يحتوي على أخبار أشهر رجال هذا الدير منذ تأسيسه حتى أواخر أيامه ، ولم ينشر ، بيد أن العلاّمـة السيد أدّي شير طبع ترجمته الى الفرنسية في رسالة له قائمة بذاتها[٤] .

لقد كان في هذا الدير خزانة كتب أضاعتها عوادي الزمن، ولم يبق منها إلا شيء ضئيل زهيد ، من ذلك :

أ - نسخة من إيضاحات لمزامير داود : كتبت في هذا الدير سنة ١٢٥٢م . وقد كانت في خزانة الابرشية الكلدانية في اسعرد[٥] .

ب - مخطوطة طقسية ، جاء فيها أنها كتبت في سنة ١٤٦٩م لدير سبريشوع

---

(١) الديورة في مملكتي الفرس والعرب : لايشوعدناح مطران البصرة (نهاية المائة الثامنة للميلاد) . نقله من الارامية الى العربية المطران بولس شيخو (الموصل ١٩٣٩ ، ص ٥٣ - ٥٤ ، الرقم ٥٩) .

(٢) مسالك الأبصار (١ : ٢٨٩) .

(٣) Mingana (A.), Msiha-zkha, (Mossoul, 1907; pp. 171-220).

(٤) Addai Scher, Analyse de l'Histoire du Couvent de Sabriso de Beth Qoqa. (Extrait de la : Revue de l,Orient Chrétien; 16 p.).

(٥) فهرست مخطوطات خزانة اسعرد لأدي شير (الرقم ٢٩) .

في بيث قوقا . وهذه المخطوطة كانت من ضمن خزانة اسعرد المذكورة[١] .

فيؤخذ من تاريخ المخطوطة الثانية ، ان دير باقوقا ، قد كان عامراً زاهراً برهبانه وبخزانة كتبه في المائة الخامسة عشرة للميلاد .

خزانة الدير الاعلى

أنشأ هذا الدير ، الراهب كوريل (جبرائيل) ، المتوفى في باجرمي سنة ٧٣٨ م . ولهذا عُرف أيضاً بدير مار كوريل .

وقد زالت تقريباً معالم هذا الدير الذي كان يقوم في أعلى الموصل ، حوالي البقعة المعروفة اليوم باسم « باش طابيه » . ولئن زالت معالمه ، انّ ذكره خالد في بطون الكتب ، التي تشهد بما كان له من ماضٍ قديم وشهرة واسعة بكونه مركزاً خطيراً لطقوس الكنيسة الكلدانية[٢] . فقد ورد في كثير من كتب الطقوس ، قول الناسخ : « حسب نسخة الدير الأعلى » ، أو قوله : « حسب نسخة مار كوريل ومار ابراهام بالموصل »[٣] . وفي مثل هذه العبارات دلالة على أن الدير كان يحوي خزانة حافلة تعد كتبها المرجع الأسمى في ضبط الطقوس والسير على سننها .

وقد أشار ياقوت الحموي إلى ذلك في صفة هذا الدير بقوله :

---

(١) فهرست مخطوطات خزانة اسعرد (الرقم ٥٠).

(٢) راجع وصف هذا الدير وأقوال الكتبة فيه ، في مقال للعلامة الخوري سليمان صائغ (النجم ٧ [١٩٣٥] ص ١٦٦ ــ ١٧٣) .

(٣) راجع :

Rücker (Adolf), Das «Obere Kloster» bei Mossul und seine Bedeutung für die Geschichte der ostsyrischen Liturgie. (Oriens Christianus, III, Vol. 7 (1932) pp. 180, - 187).

وخلاصة هذا المقال والتعليق عليه للخوري سليمان صائغ (النجم ٥ [١٩٣٣] ص ٢٤ ــ ٢٦) بعنوان « الدير الأعلى وأهميته في الليتورجية الكلدانية » .

« دير الأعلى : بالموصل ، في أعلاها ، على جبل مطل على دجلة ، يُضرب به المثل في رقة الهواء وحُسن المستشرف . ويقال انه ليس للنصارى دير مثله لما فيه من أناجيلهم ومتعبداتهم ... »[١] .

ولم نقف على شيء من بقايا خزانة هذا الدير فيما انتهى الينا من فهارس الكتب . وانما وجدنا مخطوطات ارامية مختلفة تشير – كما ذكرنا – إلى انها كتبت حسب نسخة الدير الأعلى . ففي المتحف البريطاني[٢] مخطوطة من هذا القبيل . وفي خزانة برلين[٣] مخطوطتان أخريان .

وفي خزانة دير الشرفة ببيروت ، مخطوط عربي نفيس يشتمل على الأناجيل الأربعة[٤] ، مؤرخ بسنة ١٥٤٤ اليونانية (١٢٣٣ م) . أوله : « بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب الانجيل الطاهر مفصلاً فصولاً تُقرأ في الروازين[٥] ، في القداديس الواقعة في دائرة السنة ، على ترتيب الدير الأعلى قرب الموصل ، على جبل مطل على دجلة ، كان له طقس خصوصي مشهور ، وكان يشتمل على عدة مصاحف قيمة ، ويُعرف الآن بالطخس (الطقس) الموصلي » . وورد في آخره : « تمت فصول الانجيل التي تقرأ في أوقات الصلوات ، على ما رُتب بالدير الأعلى ، وهو الطخس الموصلي »[٦] .

وفي خزائن الكتب الاخرى ، غير ما ذكرنا من المخطوطات التي تشير إلى طقس الدير الأعلى ، لم نر موجباً لاستيعابها كلها في هذا المقام .

---

(١) معجم البلدان (٢ : ٦٤٤) .

(٢) Wright, Catalogue (I, p. 397, No. 521).

(٣) Sachau, Verzeichniss. (I, p. 181, No. 52; p. 185, No. 55).

(٤) وصف يوسف اليان سركيس (المتوفى سنة ١٩٣٢) هذا المخطوط وصفاً مشبعاً في مجلة المشرق (١١ [بيروت ١٩٠٨] ص ٩٠٢ – ٩٠٧) .

(٥) الروازين: واحدها الرازين ، لفظة ارامية ، يراد بها الأسرار المقدسة عند النصارى لا سيما رتبة القداس .

(٦) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة (ص ٣١٠ – ٣١٢) .

الباب الرابع

خزائن كتب العراق في العصر الاسلامي

القسم الأول

خزائن كتب الخلفاء ببغداد

كان خلفاء بني العباس ، من اكبر المشجعين على ارتياد مناهل العلم والاقبال عليه . وقد بذلوا في سبيل ذلك المبالغ الطائلة ، فأسسوا المدارس وأعمروا الخزائن بالأسفار النفيسة ، ووصلوا العلماء والأدباء والشعراء بالصلات السنية .

ولم يكن قصر الخليفة إلا منتدى، يتبارى فيه الشعراء والادباء والعلماء. و من كان مجلسه يحفل بمثل هذه الطبقة المتعلمة من الناس ، لزم أن يكون ذا وقوف على ما يجري في مجلسه ، بل أن يدرك خفايا ما يدور فيه من مواضيع ، ولا يتسنى للخليفة أن يكون في ذلك المقام إلا بالقراءة والدرس والمذاكرة .

ولقد كان الخلفاء يعنون بتعليم أولادهم . فنشأ بعضهم وهو مسلح بسلاح العلم ، راغب فيه ، مشجع له .

ومن أعظم الأدلة على الرغبة في العلم، إنشاؤهم خزائن كتب في دار الخلافة.

وليس من شك في أن الخلفاء كانوا يتوارثون الكتب ، بالرغم مما كان يصيب تلك الكتب من رزايا بسبب الفتن والاحداث السياسية . فخزانة الخلفاء كانت تجمع أنفس الكتب وأثمنها ، ولم يكن كتاب يعزّ عليهم إحرازه . وسنلمّ بما كانت عليه هذه الخزانة، في أيام بعض هؤلاء الخلفاء ، بحسب ما انتهى إلينا من أخبارها . وإلا فان ذكرها في زمن خليفة خليفة منهم يتعذر علينا ، لفقدان المراجع الوافية بهذا الغرض .

ولقد وقفنا على أخبار يسيرة تخصّ خزائن الخلفاء ، إلا انها لا تشير إلى زمن خليفة ما ، نرى في ايرادها هاهنا فائدة :

فذكر البشاري المقدسي قائلاً : « ووجدت في بعض خزائن الخلفاء ، ان المنصور أنفق على مدينة السلام ، أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهماً »(١).

وأشار المسعودي إلى أنه « عُرض على المهتدي دفاتر خزائن الكتب ، فاذا على ظهر بعضها هذه الأبيات ، قالها المعتز بالله وكتبها بخطه ، وهي ... »(٢) .

وأغلب الظن ان الخزائن المشار إليها في كلام المسعودي كانت خزائن كتب الخلفاء ببغداد .

ولقد انحلّ أمر هذه الخزائن بانحلال الخلافة وتبعثرت كتبها . ولاشك ان مجيء المغول إلى بغداد كان من أشد الضربات عليها ، فبعضها نُقل وبعضها اغرق. ذكر ابن الساعي ان المغول حين سقوط بغداد بيدهم سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) « بنوا اسطبلات الخيول وطوالات المعالف بكتب العلماء عوضاً عن اللبن »(٣).

وقال ابن الفوطي ان في سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣ م)، « وصل نصير الدين محمد الطوسي إلى بغداد ، لتصفح الأحوال والنظر في أمر الوقوف ، والبحث عن الأجناد والمماليك ، ثم انحدر إلى واسط والبصرة ، وجمع من العراق كتباً كثيرة لأجل الرصد ... »(٤).

والمراد بالرصد ، رصد مراغة الذي أنشأه نصير الدين الطوسي في أيام هولاكو . ولا نجانب الصواب في القول ان قسماً من هذه الكتب المنقولة ، كان مما اشتملت عليه خزائن الخلفاء .

وذكر الصفدي في هذا الصدد ، ان نصير الدين الطوسي « ابتنى بمدينـــة

---

(١) أحسن التقاسيم (ص ١٢١) .
(٢) مروج الذهب للمسعودي (٨ : ٢٧ طبعة باريس) .
(٣) مختصر أخبار الخلفاء المنسوب لابن الساعي (ص١٢٧ ، بولاق ١٣٠٩ هـ) .
(٤) الحوادث الجامعة (ص ٣٥٠) .

مراغة قبة ورصداً عظيماً ، واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء وملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة ، حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلد »[١].

ونوه ابن كثير بمآل الكتب التي كانت ببغداد، قال في حوادث سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٨ م) ان نصير الدين الطوسي عمل الرصد بمدينة مراغة « ونقل اليه شيئاً كثيراً من كتب الأوقاف التي كانت ببغداد »[٢].

ولقد أشار بعض المؤرخين المتأخرين ، إلى ما انتهت اليه خزانة الخلفاء من مصير يؤسف له. قال القلقشندي في صفة هذه الخزانة : «ويقال ان أعظم خزائن الكتب في الاسلام ، ثلاث خزائن . إحداها : خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد فكان فيها من الكتب مالا يحصى كثرة ، ولا يقوم عليه نفاسة ، ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر بغداد ، وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ، فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب ، وذهبت معالمها واعفيت آثارها »[٣].

ثم تكلم على الخزانتين الاخريين ، وهما خزانة الفاطميين بمصر، وخزانة خلفاء بني أمية بالاندلس .

خزانة المنصور

أبو جعفر المنصور ، باني مدينة بغداد وثاني خلفاء بني العباس ، من أعاظم الخلفاء العباسيين . تولى الخلافة نيفاً وعشرين سنة (١٣٦ ــ ١٥٨هـ = ٧٥٤ ــ ٧٧٥ م) . وكانت له خزانة كتب فيما يؤخذ مما أورده الخطيب البغدادي في ترجمة محمد بن اسحاق صاحب السيرة ، المتوفى في أواسط المائة الثانية للهجرة .

---

(١) الوافي بالوفيات (١ : ١٧٩ طبعة ريتر . استانبول ١٩٣١) .

(٢) البداية والنهاية (١٣ : ٢١٥) .

(٣) صبح الأعشى (١ : ٤٦٦) وانظر مفتاح السعادة (١ : ٢٤٠) .

فذكر في سبب تأليفه السيرة : « أخبرنا الازهري قال : أنبأنا عبيد الله بن عثمان بن يحيى . قال: سمعت حامداً أبا علي الهروي يقول : سمعت الحسن بن محمد المؤدب قال : سمعت عماراً يقول دخل محمد بن اسحق على المهدي وبين يديه ابنه . فقال له : أتعرف هذا يا ابن اسحاق ؟ قال : نعم! هذا ابن أمير المؤمنين . قال : اذهب فصنف له كتاباً منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا قال : فذهب فصنف له هذا الكتاب . فقال له : لقد طوّلته يا ابن اسحاق ، إذهب فاختصره ! قال : فذهب فاختصره فهو هذا الكتاب المختصر . وألقى الكتاب الكبير في خزانة أمير المؤمنين . قال الحسن : وسمعت أبا الهيثم يقول : صنّف محمد بن اسحاق هذا الكتاب في القراطيس ، ثم صيّر القراطيس لسلمة - يعني أبا الفضل - فكانت تفضل رواية سلمة على رواية غيره لحال تلك القراطيس »(١) .

ولكن الخطيب صحح رواية الخبر بنسبته إلى المنصور لا إلى المهدي ، بقوله :

« قال الشيخ أبو بكر : هكذا قال الراوي دخل ابن اسحاق على المهدي وبين يديه ابنه . وفي ذلك عندي نظر. ولعله أراد أن يقول : دخل على المنصور وبين يديه المهدي ابنه ، لان ذلك أشبه بالصواب والله أعلم »(٢).

وقد أشار صاعد الاندلسي الى أن المنصور كان أول من عني بالعلوم من خلفاء بني العباس ، و « كان مع براعته في الفقه وتقدمه في علم الفلسفة وخاصة في علم صناعة النجوم ، كلفاً بها وبأهلها »(٣) .

وذكر ابن أبي أصيبعة في ترجمة الطبيب جورجيس بن بختيشوع ، المتوفى

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب (١ : ٢٢٠ - ٢٢١) .
(٢) تاريخ بغداد للخطيب (١ : ٢٢١) .
(٣) طبقات الأمم (ص ٤٨ طبعة الأب لويس شيخو اليسوعي . بيروت ١٩١٢) . وانظر: تاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٢٣٥) .

نحو سنة ١٥٢ هـ (٧٦٩ م) انه « نقل للمنصور كتباً كثيرة من كتب اليونانيين إلى العربي »[١].

وأشار إلى ان البطريق كان أحد التراجمة في أيام المنصور ، فقد « أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة ، وله نقل كثير جيد ، إلا أنه دون نقل حنين بن اسحق »[٢] .

ولاشك في ان النسخ الام لهذه الكتب المنقولة ، كانت تحفظ في خزانة المنصور .

خزانة الحكمة ببغداد

(خزانة الرشيد والمأمون)

لا شك في ان خزانة الحكمة ببغداد ، كانت من أعظم خزائن الكتب في الاسلام ، على اختلاف عصوره ودوله . لأنها حوت من الأسفار العتيقة كل جليل ونفيس ، ولم تكن كتبها إلا نتاج ثقافات شرقية وغربية مختلفة : العربية والفارسية والسريانية واليونانية وغيرها بعضها ببعض ، بواسطة النقل والتعريب في صدر الدولة العباسية .

ولهذه الخزانة ذكر مشتت في كثير من المراجع العربية ، قديمها وحديثها[٣]. وقد عُرفت في بعضها باسم « بيت الحكمة » ، وفي بعضها الآخر باسم « دار الحكمة » . فالخزانة والبيت والدار ، يراد بها هاهنا ، المحل أو المباءة التي تجمع فيها الكتب وتنضد بنظام معلوم ليُطالع فيها ويُستفاد من علومها .

---

(١) عيون الأنباء (١ : ١٢٣ و ٢٠٣) .

(٢) عيون الأنباء (١ : ٢٠٥) .

(٣) من أحسن المراجع الحديثة في هذا الموضوع ، ما كتبه العلامة أحمد أمين بك ، في كتابه ضحى الاسلام (٢ : ٦١ ـ ٦٦ طبعة سنة ١٩٣٨) . أما المراجع القديمة فسيرد ذكرها في حواشي هذا البحث .

كان البدء بتأسيس هذه الخزانة، في عهد الخليفة هرون الرشيد ، على مايؤخذ من أقوال ثقات المؤرخين . فقد ذكر ابن النديم في ترجمة « أبي سهل الفضل بن نوبخت »[١] انه « كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد »[٢].

وأشار في ترجمة «علاّن الشعوبي» الى انه كان « منقطعاً إلى البرامكة ، وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة »[٣].

وذكر ابن أبي أصيبعة في ترجمة يوحنا بن ماسويه ان الرشيد « قلده ترجمة الكتب القديمة مما وجده بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون، ووضعه أميناً على الترجمة ، وخدم هرون والأمين والمأمون ، وبقي على ذلك الى أيام المتوكل »[٤].

وهذه الخزانة الحافلة التي أُسست في حياة هرون الرشيد (خلافته ١٧٠ ـ ١٩٣هـ = ٧٨٦ ـ ٨٠٩م)، كان قد علا شأنها وبلغت أوج عزها وازدهارها في خلافة المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ = ٨١٣ ـ ٨٣٣ م) . وقد امتاز المأمون على أكثر خلفاء بني العباس بثقافته الواسعة ، وبمحبته العظيمة للعلم وذويه ، وبميله الظاهر إلى الفلسفة . فلا غرو انه سعى لتوطيد أركان هذه الخزانة وتوسيعها وإغنائها بما استطاع جمعه من الكتب المختلفة .

قال ابن نباتة المصري ، في ترجمة « سهل بن هارون »[٥] ، ان المأمون

---

(١) منجم فارسي الأصل ، له نقول من الفارسي الى العربي . ومعوله في علمه على كتب الفرس . راجع : الفهرست (ص ٢٧٤ فلوجل = ٣٨٢ مصر) ، واخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي (ص ٤٠٩ طبعة ليبرت . ليبسك ١٩٠٣) .

(٢) الفهرست (ص ٢٧٤ فلوجل = ٣٨٢ مصر) .

(٣) الفهرست (ص ١٠٥ فلوجل = ١٥٤ مصر) ، ومعجم الادباء (٥ : ٦٦) .

(٤) عيون الانباء (١ : ١٧٥) .

(٥) رجل فارسي الأصل ، اتصل بالمأمون فولاه خزانة الحكمة . وكان أديباً شاعراً حكيماً شعوبياً يتعصب للعجم على العرب شديداً في ذلك . وكان مشهوراً بالبخل وله في ذلك أخبار كثيرة . وقد صنف كتباً عديدة لم يصل الينا منها شيء سوى رسالته في مدح البخل ! توفي سهل بن هارون سنة ٢١٥ هـ (٨٣٠ م) . راجع أخباره في

نجعله كاتباً على خزانة الحكمة ، وهي كتب الفلاسفة التي نُقلت للمأمون من جزيرة قبرس . وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة ، أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان، وكانت مجموعةعندهم في بيت لا يظهرعليها أحد أبداً. فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته وذوي الرأي واستشارهم في حمل الخزانة الى المأمون ، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة ، إلا مطراناً واحداً ، فانه قال : الرأي أن تعجل بانفاذها إليه، فما دخلت هذه العلوم العقلية علىدولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها . فأرسلها إليه ، واغتبط بها المأمون ، وجعل سهل بن هارون خازناً لها »(1).

فما قولك بهذا المطلب النبيل الغاية ، الذي مع دلالات كثيرة يدل على رغبة المأمون الشديدة في الكتب وتذرعه بمختلف الوسائل للحصول عليها !

وهذا الخبر الطريف الذي نقلناه عن ابن نباتة ، ذكره القفطي بوجه يختلف كثيراً عنه ، فاقتضى علينا إيراده هاهنا استتماماً للبحث . قال في ترجمة « ارسطوطاليس » ، ان المأمون «راسل ملك الروم، وكان قد استطال عليه وأذل دين الكفر، وطلب منه كتب الحكمة من كلام ارسطوطاليس . فطلبها ملك الروم فلم يجد لها ببلاده أثراً ، فاغتمّ لذلك وقال : يطلب مني ملك المسلمين علم سلفي من يونان فلا أجده ؟ أي عذر يكون لي ؟ أم أي قيمة تبقى لهذه الفرقة

= البخلاء للجاحظ (ص ١٠ وما بعدها ، دمشق ١٩٣٨ ، و ص ٢٤٦ - ٢٤٩ من طبعة دار الكاتب المصري سنة ١٩٤٨ بتحقيق طه الحاجري) . والفهرست (ص ١٢٠ فلوجل = ١٧٤ مصر). ومعجم الأدباء (٤ : ٢٥٨ - ٢٥٩) . ووفيات الأعيان (١ : ٢٥٢). وفوات الوفيات (١ : ١٨١) . وقد خصه العلامة محمد كرد علي بك بترجمة وافية (انظر : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (٧ [١٩٢٧] ص ٥ - ٢٧) . وظهرت هذه الترجمة ثانية في كتاب : أمراء البيان . له (١ : ١٥٩ - ١٩٠) .

(1) سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون (ص ١٣٠ بولاق ١٢٧٨ هـ) . وراجع : مفتاح السعادة لطاش كبري زاده (١ : ٢٤٢) .

الرومية عند المسلمين ؟ وأخذ في السؤال والبحث ، فحضر إليه أحد الرهبان المنقطعين في بعض الأديرة النازحة عن القسطنطينية وقال له : عندي علم ما تريد! فقال له : أدركني . فقال : إن البيت الفلاني في موضع كذا الذي يقفل كل ملك عليه قفلا إذا ملك ما فيه . قال : فيه على ما يقال مال الملوك المتقدمين ، وكل ملك يجيء يقفل عليه حتى لا يقال قد احتاج الى ما فيه لسوء تدبيره ففتحه . فقال له الراهب : ليس الأمر كذلك ، وإنما في ذلك الموضع هيكل كانت يونان تتعبد به قبل استقرار ملة المسيح . فلما تقررت ملته بهذه الجهات في أيام قسطنطين بن ألانة ، جمعت كتب الحكمة من أيدي الناس وجعلت في ذلك البيت وأغلق بابه وقفل عليه الملوك إقفالا كما سمعت . فجمع الملك مقدمي دولته وعرّفهم الأمر واستشارهم في فتح البيت ، فأشاروا بذلك ، فاستشار الراهب في تسييرها إذا وجدت الى بلد الاسلام وهل عليه في ذلك خطر في الدنيا أو إثم في الاخرى، فقال له الراهب : سيّرها فانك تثاب عليه ، فانها ما دخلت في ملّة إلا وزلزلت قواعدها . فسار الى البيت وفتحه ووجد الأمر فيه كما ذكر الراهب ، ووجدوا فيها كتباً كثيرة، فأخذوا من جانبها بغير علم ولا فحص، خمسة أحمال وسيّرت الى المأمون . فأحضر لها المأمون المترجمين . فاستخرجوها من الرومية الى العربية . ثم تنبه الناس بعد ذلك على تطلبها بعد المأمون ، وتحيلوا الى أن حصلوا منها الجملة الكثيرة . ولما سيرت الكتب الى المأمون جاء بعضها تاماً وبعضها ناقصاً [1] ، فالناقص منها ناقص الى اليوم ، لم يجد أحد تمامه » [2] .

فهذه الكتب التي نقلت الى بغداد ، لم تكن إلا جانباً من تلك الخزانة اليونانية العظمى ، التي جمعت في أيام الاغريق وجعلت في القسطنطينية .

---

(١) في كلام القفطي (ص ٦١) على « كتاب المخروطات » لأبلونيوس النجار ، ما يؤيد هذا ، فقد قال : « ... ولما أخرجت الكتب من بلاد الروم الى المأمون ، أخرج من هذا الكتاب الجزء الأول لا غير ... » .

(٢) اخبار الحكماء للقفطي (ص ٢٩ ــ ٣٠) .

وأشار ابن النديم في عرض كلامه على إنشاء خزانة الحكمة والعمل على توسيعها « ان المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدّخرة ببلد الروم . فأجاب الى ذلك بعد إمتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة ، منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وسلماً [1] صاحب بيت الحكمة ، وغيرهم . فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا . فلما حملوه اليه، أمرهم بنقله، فنقل وقد قيل ان يوحنا بن ماسويه ممن نفذ الى بلد الروم. وأحضر المأمون أيضاً حنين بن اسحق، وكان فتي السن ، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى العربي واصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمره » [2].

فاذا أخذنا بصحة هذين النصين ، جاز لنا القول ان الكتب التي اختارتها بعثة المأمون – على ما ورد في نص ابن النديم – هي غير احمال الكتب التي ذكرها القفطي . فكأن استيراد كتب الاغريق وايداعها خزانة الحكمة ببغداد ، من أظهر مقاصد المأمون وأقصى رغائبه .

لقد أقبل المترجمون في ذلك العصر على هذه الكنوز اليونانية الرائعة . فنهلوا من ينبوعها ونقلوا منها الى لغة الضاد فنوناً شتى : في الفلسفة والطب والموسيقى والرياضيات والطبيعيات وغير ذلك . فأغنوا بمنقولاتهم الرائعة الثقافة العربية أيما اغناء ، ووسعوا محتويات خزانة الحكمة توسيعاً منقطع النظير ، فصار فيها من الكتب ما تفردت به وفاقت به على ما سواها .

---

(١) قال ابن عبد ربه في العقد الفريد (٢ : ١٢٧ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) : « ودخل جعفر بن يحيى في زي العامة وكتاب النباهة ، على سليمان صاحب بيت الحكمة ، ومعه ثمامة بن أشرس ... » . لعل « سليمان » مصحف من « سلم » . أو لعله شخص آخر .

(٢) الفهرست (ص ٢٤٣ فلوجل = ٣٣٩ مصر) . وراجع : عيون الأنباء (١ : ١٨٧) .

وأغلب هاتيك المنقولات ـ وهي تعد بمئات ـ قد ضاع مأسوفاً عليه . فلا نعرف اليوم من أمر أكثرها إلا عناوينها التي نقرأها في بعض الاسفار القديمة مما تُعنى بمثل هذه المواضيع .

كان في هذه الخزانة طائفة من أكابر العلماء في ذلك العصر ، لا سيما من كان ذا حظ وافر من معرفة لغة أو لغات أجنبية كاليونانية والفارسية والارامية وغيرها من اللغات ذات التراث العلمي القديم . وكان عملهم في خزانة الحكمة ، خزن الكتب ، أو استنساخها ، أو نقلها من لغة إلى أخرى .

وقد حفظ لنا التاريخ أسماءً أو تراجم لغير واحدٍ من أولئك العلماء الأعلام ، وقد مر بنا في مطاوي النصوص التي نقلناها آنفاً ، أسماء سبعة منهم ، ومنهم جماعة غير من ذكرنا ، منهم : بنو موسى بن شاكر المنجم ، وهم ثلاثة أخوة : محمد وأحمد والحسن . ويحيى بن أبي منصور الموصلي المنجم المأموني ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وسعيد بن هارون الكاتب ، (وهو أخو سهل بن هارون) وحنين بن اسحق العبادي ، وابنه اسحق بن حنين ، وابن اخته حبيش بن الحسن الأعسم ، وثابت بن قرّة ، وغيرهم .

وهؤلاء العلماء الذين كانوا على اتصال دائم بخزانة الحكمة ، قد استوفيت تراجمهم وأخبارهم وأُشير إلى كتبهم المنقولة أو الموضوعة ، في جملة مراجع قديمة : كالفهرست لابن النديم ، وأخبار الحكماء للقفطي ، وطبقات الامم لصاعد الاندلسي ، وتتمة صوان الحكمة للبيهقي ، وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ، وكشف الظنون للحاج خليفة ، وغيرها من المظان التي لا يسعنا حصرها في هذا المقام .

* * *

ضمّت خزانة الحكمة كتباً مؤلفة بلغاتٍ مختلفة، فكان فيها أسفار باليونانية والفارسية والارامية والهندية والقبطية ، فضلاً عن العربية . وهذا قلّ ان اتفق وجوده في خزانة أخرى عتيقة .

وهذه الخزانة الحافلة بتراث اليونان والهنود والفرس والعرب وغيرهم من الأمم ، لم تعدم ان تضم في ما تضم ، طرائف وتحفاً خطية . فقد قال ابن النديم انه نقل أنموذجاً لكل من الخط الحميري[١] والحبشي[٢] من هذه الخزانة .

وذكر في موطن آخر ، انه « كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم ، في جلد أدم ، فيه ذكر عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان الحميري من أهل وزل (؟) صنعاء عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة . ومتى دعاه بها أجابه . شهد الله والملكان »[٣].

وحكى المسعودي ، انه رأى عدة مصورات بلدانية تصور الأقاليم السبعة ، قال : « ورأيت هذه الاقاليم مصورة في غير كتاب بأنواع الأصباغ . وأحسن ما رأيت من ذلك في كتاب جغرافيا لمارينوس ، وتفسير جغرافيا قطع الأرض وفي الصورة المأمونية التي عملت للمأمون ، اجتمع على صنعتها عدة من حكماء أهل عصره ، صور فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الامم والمدن وغير ذلك ، وهي أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطلميوس وجغرافيا مارينوس وغيرها »[٤].

فهذا المصور المأموني ، الذي وقف عليه المسعودي ووصفه ، لابد أنه كان موجوداً في خزانة الحكمة .

وذكر صاعد الأندلسي ، ان عمر بن الفرّخان الطبري ، وهو أحد رؤساء التراجمة في ايام المأمون ، قد ترجم كتباً كثيرة في علم حركات النجوم وأحكامها ، وانها كانت في هذه الخزانة[٥].

---

(١) الفهرست (ص ٥ فلوجل = ٨ مصر).
(٢) الفهرست (ص ١٩ فلوجل = ٢٩ مصر) .
(٣) الفهرست (ص ٥ فلوجل = ٨ مصر) .
(٤) التنبيه والاشراف (ص ٣٣ طبعة دي غويه ، ليدن ١٨٩٣ = ص ٣٠ طبعة القاهرة ١٩٣٨) .
(٥) طبقات الامم لصاعد (ص ٥٥)، وانظر : أخبار الحكماء للقفطي (ص ٢٤٢) .

وفي حكاية طريفة وردت بصدد كتاب جاويذان خرد[1] ، ان المأمون « دعا بفهرست كتبه ، وجعل يقلبه فلم يرَ لهذا الكتاب ذكراً . فقال : كيف يسقط ذكر هذا الكتاب عن الفهرست ؟ » . وفي مثل هذا القول دلالة واضحة على ان المأمون كان يريد أن لا تخلو خزانته من أي كتاب كان ، مهما عز وندر وجوده . ويفهم من سياق الحكاية المذكورة ، ان نسخة هذا الكتاب ، قد عثر عليها في أيام المأمون في الخزائن تحت الايوان بالمدائن، وهو الايوان المعروف في زماننا بِ « طاق كسرى » . وقد مرت الاشارة إلى ذلك في كلامنا على « خزانة المدائن » .

وكان لهذه الخزانة من يُعنى بتجليد كتبها . وقد وقفنا على اسم واحد من أولئك المجلدين ، ذكره ابن النديم بقوله انه « كان يجلّد في خزانة الحكمة للمأمون »[2] .

لقد سطع نور هذه الخزانة في أيام المأمون ـ وأيام هذا الخليفة كانت دوراً ذهبياً في حياة الدولة العباسية ـ ، ثم خبا ذلك النور من بعدها ، فصرنا نتلمس أخبارها في بطون الكتب ، فاذا نحن لا نجد فيها ما يشفي الغلة . والراجح عندنا ، ان انتقال الخلافة من بغداد إلى سامراء ، وتعاقب الفتن على بغداد ، وما حل بها من البلايا بتوالي السنين ، كل ذلك تضافر على الحط من مكانة هذه الخزانة وإيصالها إلى حالٍ فقدت معها سالف مجدها ، وصارت كتبها إلى الضياع أو التلف .

---

(١) رسائل البلغاء (ص ٤٧٨ ـ ٤٨٠ من الطبعة الثالثة) .
(٢) الفهرست (ص ١٠ فلوجل = ١٤ مصر) .

خزانة المعتضد

المعتضد بالله الخليفة العباسي السادس عشر ، الذي دامت خلافته من سنة ٢٧٩ إلى ٢٨٩ للهجرة (٨٩٢ ـ ٩٠٢ م)، كانت له خزانة كتب وقفنا على شيء من أخبارها . ذكر ابن النديم في أخبار الزجاج النحوي المتوفى سنة ٣١٠ ﻫ (٩٢٢ م) انه فسّر كتاب جامع النطق « وكتبه بخط الترمذي الصغير أبي الحسن ، وجلّده ، وحمله الوزير (القاسم بن عبيد الله) إلى المعتضد ، فاستحسنه ، وأمر له بثلثمائة دينار . وتقدم إليه بتفسيره كله . ولم يخرج لما عمله الزجاج نسخة إلى أحد إلا إلى خزانة المعتضد . قال محمد بن اسحق (ابن النديم) ثم ظهر في بقيات السلطان هذا التفسير متقطعاً ، ورأيناه وهو في طاحي لطيف . قال : وصار للزّجاج بهذا السبب منزلة عظيمة وجُعل له رزق في الندماء ورزق في الفقهاء ورزق في العلماء ثلثمائة دينار »[1].

وأشار القاضي التنوخي إلى خزانة المعتضد إشارة خفيفة ، في الحكاية التي ساقها عن ذلك الرجل الذي جاء المعتضد برُقْيَة تحبس السم عن الملسوع في الحال، وكيف انه نجح في تطبيقها من وقته على ملسوع ، « فأمر المعتضد ، فكتبت الرقية ، وخلدت في الخزانة ، وأمر للرجل بجائزة سنية »[2].

ويؤخذ من بعض التوضيحات التي ذكرها ابن أبي أصيبعة عن مؤلفات أحمد بن الطيب السرخسي ، ان هذا المؤلف صنف جملة كتب للمعتضد ، منها[3] : اللهو والملاهي ونزهة المفكر الساهي ، وهو كتاب في الغناء والمغنين والمنادمة والمجالسة وأنواع الأخبار والملح. ومنها كتاب الطبيخ ، وكتاب في أدب

---

(١) الفهرست (٦١ فلوجل = ٩٠ مصر) ، ومعجم الأدباء (١ : ٥٨) .
(٢) نشوار المحاضرة (٢ : ١١١ طبعة مرجليوث . دمشق ١٩٤٢) .
(٣) عيون الأنباء (١ : ٢١٥) .

النفس . ولا نشك في أن هذه الأسفار التي وضعت باسم الخليفة قد كانت في جملة ما حوته خزانة كتبه .

وقد تولى أحمد بن الطيب هذا ، في أيام المعتضد الحسبة ببغداد ، وكان أولاً معلماً المعتضد ، ثم نادمه ، وخص به ، ثم دار الزمان دورته فأمر بقتله سنة ٢٨٦ هـ (٨٩٩ م) .

ومما احتوته خزانة المعتضد جوابات عن مسائل[١] ، سأل عنها هذا الخليفة ، طبيبه أبا الحسن ثابت بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ هـ (٩٠٠ م) .

وكان يحيي بن علي بن يحيي المنجم ، المتوفى سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) ، قد صنّف للخليفة المعتضد بالله، رسالة في الموسيقى . ومن هذه الرسالة، نسخة في أربع صفحات ، ضمن مجموع خطي في خزانة المتحف البريطاني[٢] .

خزانة المكتفي

لم ينته الينا من أخبار خزانة هذا الخليفة العباسي (خلافته ٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ = ٩٠٢ـ٩٠٨ م) ، إلا ما ذكره الشابشتي بقوله : « وذكر الصولي : ان المكتفي أخرج اليهم مدارج مكتوبة بالذهب ، من شعر المعتمد ، فكان فيها من الموزون:

طـال والله عـذابي واهتمامي واكتئابي
بغزالٍ من بني الأصـ فر لا يغنيه ما بي
أنا مغرى بهواه وهو مغرىً باجتنابي
وإذا ما قلت صلني كان «لا» منه جوابي

---

(١) عيون الأنباء (١ : ٢٢٠) .

(٢) Rieu (C.), Supplement to the Catalogue of the Arabic Manuscripts in the British Museum. (London, 1894; No. 823ii; p. 561).

وكان فيها أيضاً :

عجّل الحب بفُرقَة ... فبقلبي منه حرقه
مالك بالحب رقي ... وأنا أملك رقه
إنما يستروح الصب ... إذا أظهر عشقه »[١]

والمدارج المذكورة في هذا النص ، جمع مدرج ، وهو الكتاب المطويّ .

خزانة الراضي بالله

كان الراضي بالله العباسي (خلافته من سنة ٣٢٢ الى ٣٢٩ هـ = ٩٣٤ - ٩٤٠ م) أحد الخلفاء الأدباء ، قال فيه الصولي انه « كان أعلم الناس بالشعر ، فكنت أتنخل له الألفاظ ، وأختار علوي الكلام »[٢].

وقد كانت له منذ أول أمره ، أعني قبل تسلمه زمام الخلافة ، خزانة كتب ذكرها الصولي بقوله : « وقد يعلم الله ، أن الراضي بالله ، في حال إمارته ، وأخاه هارون ، لما أمر نصر الحاجب أن يتقدم إلي بخدمتهما ، وأن يجعل عليّ نوبة لهما يومين في كل أسبوع . ففعل ذلك . دخلت إليهما ، فرأيتهما ذكيين فطنين عاقلين ، إلا أنهما خاليان من العلوم ، فعاتبت ابن غالب مؤدبهما على ذلك . وكان الراضي أذكاهما وأحرصهما على الأدب . فحببت العلم إليهما واشتريت لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار قطعة حسنة ، فتنافسا في ذلك ، وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه ، وقرآ عليّ الأخبار والأشعار ... »[٣].

وما من شك ، في أن الراضي وسّع هذه الخزانة وأغناها بأمهات الكتب

---

(١) كتاب الديارات للشابشتي (الورقة ٤٠ من نسخة برلين) . وهذا الكتاب قد حققناه وأعددناه للنشر .

(٢) أخبار الراضي بالله والمتقي لله من كتاب الأوراق للصولي (ص ١٩١ طبعة ج . هيورث دن ، القاهرة ١٩٣٥) .

(٣) أخبار الراضي بالله والمتقي لله (ص ٢٤ - ٢٥) .

وأعيانها بعد استخلافه . وقد أشار الصولي إلى هذه الخزانة في حكاية طويلة تحوم حول اختلاف في رواية بيت من الشعر، فقال فيما قال : «...فقال (الراضي) لي[1] : فلعل الوراق أخطأ عليه، قلت : لا ، ولكن الطبري رأى نبيشاً في كتاب ولم يدر ما هو ، فظنه حبيشاً اسم رجل وهذا الشعر لنهشل بن جزي النهشلي ، وهو في الخزانة . فوجه فطلبه ، فلم يجده . فقلت له : وهذا أيضاً عجب ، يتحدث الناس بأن سيدنا ، مع جلالة علمه وعلو نعمته ، عمل خزانة كتب كما عمل متقدمو الخلفاء ، طلب فيها شعر هذا الشاعر المشهور فلم يوجد ! قال : فما الحيلة وقد شغلنا بغيرها ؟ قلت : كتب عبيدك لك ، فتبتدىء في عمل الأشعار من الخزانة ، تبدأ بمضر ثم ربيعة ثم اليمن ، فما لم يكن فيها حمله عبيدك من كتبهم ، وما كان سماعاً لعبيدك أو شيئاً لا يعتاضون منه ، نسخه ورّاقوك الذين تجري عليهم ، وجلده مجلدو الخزانة . فسكت كالمفكر . فقلت له : إن الذي قلته ليس لشيء اجتلبه إنما هو حيف على كتبي ، ولكني آنف أن يتحدث الناس بشيء يفعله سيدنا لا يكون في نهاية الجلالة . فقال : ويحك ، فاذا جاء ما يشغل كيف نصنع ؟ قلت : يجعل سيدنا هذه الخزانة للأميرين[2] ، ويقتصر على ما يريد النظر فيه . قال : أما هذا فنعم . فأمر باخراج الكتب اليه يوماً يوماً، وأجلسنا فميزناها وقسمها بين يديه ، بين ابنيه . واقتصر على ما أراد ، ووهب لنا الباقي فاقتسمناه . وكان اكثره ما يباع وزناً »[3].

فهذا الخبر النفيس ، أفادنا أن لهذه الخزانة وراقين ومجلدين ، مما يدل على الرغبة في تكثير كتبها بالنسخ ، والاعتناء بها بالتجليد .

وقد ضمّت خزانة الراضي ، في ما ضمت ، طرائف وتحفاً خطية نفيسة، من

---

(١) الضمير يعود الى الصولي .
(٢) هما ولدا الراضي : أبو جعفر وأبو الفضل عبد الله . ولم يليا الخلافة .
(٣) أخبار الراضي بالله والمتقي لله (ص ٣٩ ـ ٤٠) .

ذلك ما ذكره ابن الجوزي في حوادث سنة ٣٢٦ هـ (٩٣٧ م) بقوله ان في هذه السنة « ورد كتاب من ملك الروم إلى الراضي، وكانت الكتابة بالرومية[١] بالذهب ، والترجمة بالعربية بالفضة، يطلب منه الهدنة . وفيه : ولما بلغنا ما رُزقته ايها الأخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الأدب واجتماع الفضائل أكثر ممن تقدمك من الخلفاء ، حمدنا الله تعالى ، إذ جعل في كل أمة من يمتثل أمره وقد وجهنا شيئاً من الألطاف ، وهي أقداح وجرار من فضة وذهب وجوهر وقضبان فضة وسقور[٢] وثياب سقلاطون[٣] ونسيج ومناديل وأشياء كثيرة فاخرة . فكتب اليهم الجواب بقبول الهدية والاذن في الفداء وهدنة سنة »[٤].

خزانة القائم بأمر الله

هو الخليفة السابع والعشرون من خلفاء بني العباس (خلافته من سنة ٤٢٢ هـ إلى ٤٦٧ هـ = ١٠٣١ ـ ١٠٧٥ م) . وخزانة كتبه ، ورثها عمن سبقه من الخلفاء . وكان مما اشتملت عليه من الطرائف ، ما ذكره أبو الفرج ابن العبري في تاريخه المدني الارامي ، قال ما هذا تعريبه :

« في سنة ٤٤٣ للهجرة (١٠٥١ م) وصل رسول من قسطنطين ملك الروم إلى القائم خليفة بغداد ، يحمل رسالة باليونانية ، يتخلل أسطرها ترجمتها العربية مكتوبة بالذهب على قطيفة ... »[٥].

---

(١) أي باليونانية .

(٢) امل الأصل : ستور ، أو سمور .

(٣) السقلاطون : ضرب من ثياب الحرير الوشاة بالذهب . واللفظة دخيلة .

(٤) المنتظم (٦ : ٢٩٣) . وانظر هذا الخبر في الكامل لابن الأثير (٨ : ٢٦٤) ، والبداية والنهاية (١١ : ١٨٨) ، والنجوم الزاهرة (٣ : ٢٦٢ ـ ٢٦٣) ، والتاريخ المدني الارامي لابن العبري (ص ١٧٨ طبعة بيجان ، باريس ١٨٩٠) .

(٥) التاريخ المدني الارامي لابن العبري (ص ٢٣١) .

ومما اشتملت عليه خزانة القائم بأمر الله ، النسخة الام من كتاب « رسوم دار الخلافة » لهلال بن المحسن الصابىء ، المتوفى سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م). فقد ذكر في مقدمته انه الـفه واهداه الى هذا الخليفة[١] .

وذكر هلال أيضاً في مقدمة كتابه الذي صنفه في اخبار الوزراء ، انه اهداه الى الخليفة[٢] ، ولم يصرح بأسم ذلك الخليفة ، فلعله ان يكون القائم بأمر الله . او إلى سالفه القادر بالله .

خزانة المقتدي بأمر الله

المقتدي بأمر الله ، هو الخليفة العباسي الثامن والعشرون . تولى الخلافة بعد القائم ، من سنة ٤٦٧ إلى ٤٨٧ هـ (١٠٧٥ ـ ١٠٩٤م) .

وكانت له ، شأن غيره من خلفاء بني العباس ، خزانة كتب ، حوت كثيراً من أمهات الأسفار ، وبعضها مما صنفه مؤلفوها برسم خزانته . من ذلك كتاب « تقويم الابدان في تدبير الانسان » لأبي علي يحي بن عيسى بن جزلة الطبيب البغدادي ، المتوفى سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م) . قال في مقدمته : « ... وقد جاء في الخبر عن التداوي فقال : تداووا ، فما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء إلا السام .. ولما تحقق سيدنا ومولانا الامام العادل ، المقتدي بأمر الله أمير المؤمنين ... هذه الجملة ، أحب الخادم أن يخدم خزائن الحكمة المولوية المقتدية ، أعلى الله شأنها ، بالقدر الضروري من علم الطب ، يستغني به عن كثير من إطالة الاطباء وعن كتبهم المدونة فيه ، وهو علم تدبير الأمراض ومعرفة الأسباب والأعراض ... »[٣] .

---

(١) رسوم دار الخلافة : لهلال الصابىء (ص ٣ من مخطوط خزانتنا) .

(٢) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء : لهلال الصابىء (ص ٦ ـ ٧ طبعة آمدروز ، بيروت ١٩٠٤) .

(٣) تقويم الأبدان في تدبير الانسان لابن جزلة (ص ٤ ، مطبعة روضة الشام ، دمشق ١٣٣٣ هـ) .

ولابن جزلة ، كتاب نفيس في المواد الطبية ، عنوانه « منهاج البيان فيما يستعمله الانسان » . وقد ألفه أيضاً ـ على ما يؤخذ من مقدمته ـ لخزانة المقتدي بأمر الله . وهذا الكتاب لم يطبع(١).

وقد نوّه ابن أبي أصيبعة(٢) بما ألفه ابن جزلة لخزانة المقتدي ، وهو لا يخرج عما نقلناه أعلاه .

كما انه ذكر ، أن أبا الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين ، الطبيب المتوفى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١م)، ألف للمقتدي بأمر الله كتاب «المغني في الطب».(٣)

خزانة الناصر لدين الله

يعد الخليفة الامام الناصر لدين الله ، من أعظم خلفاء بني العباس وأبعدهم نظراً . وقد أعاد الى الخلافة هيبتها ورونقها ، بعد أن نالها شيء كثير من الضعف والانحلال في أيام بعض من سبقه من الخلفاء . وقد دامت خلافته مدة طويلة ، لم يتفق لخليفة عباسي آخر أن حكم مثله . فقد تولى الخلافة بعد المستضيء بالله، أعني من سنة ٥٧٥ إلى ٦٢٢ هـ (١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م) .

وخزانة كتبه ، كانت جليلة القدر حافلة بالاسفار والتصانيف المعتبرة . ويستدل على ذلك ، ان الخليفة الناصر ، نقل منها جانباً ، فقام مما نقله ثلاث خزائن يأتي الكلام عليها ، وهي :

١ ـ خزانة دار المسناة ببغداد .

٢ ـ خزانة الرباط الخاتوني السلجوقي ببغداد .

---

(١) منه نسخ كثيرة في مختلف خزائن كتب الشرق والغرب . من ذلك نسختان قديمتان في خزانتنا ، الاولى كتبت سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) والثانية سنة ٩٨٠ هـ (١٥٧٢ م) .

(٢) عيون الأنباء (١ : ٢٥٥) .

(٣) عيون الانباء (١ : ٢٥٥) .

٣ ـ خزانة المدرسة النظامية ببغداد .

فقد ذكر القفطي في ترجمة أبي الرشيد الحاسب مبشر بن أحمد بن علي بن أحمد بن عمرو الرازي الأصل البغدادي المولد والدار الملقب بالبرهان ، المتوفى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ، انه « تميز في أيام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد وقرب منه ، واعتمد في اختيار الكتب التي وقفها بالرباط الخاتوني السلجوقي ، وبالمدرسة النظامية ، وبداره المسناة . فانه أدخله إلى خزائن الكتب بالدار الخليفية وأفرده لاختيارها »[١].

خزانة دار المسناة ببغداد

دار المسناة ، على ما ذكره بعض المؤرخين ، بناها الخليفة الناصر لدين الله العباسي ، وقد مر بنا ان خلافته كانت من سنة ٥٧٥ إلى ٦٢٢هـ (١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م) . ويذهب غير واحد من الباحثين المعاصرين ، إلى أن هذه الدار هي البناء العباسي العتيق الذي تقوم بقاياه اليوم في قلعة بغداد ، على ضفة دجلة اليسرى[٢]، وهو الذي اتخذ في السنوات الاخيرة متحفاً للآثار الاسلامية[٣].

ذكر القفطي[٤] ، ان الناصر لدين الله وقف في هذه الدار خزانة كتب ،

---

(١) اخبار الحكماء للقفطي (ص ٢٦٩) .

(٢) راجع : « دار المسناة : بقاياها الايوان الذي بالقلعة » ليعقوب سركيس (لغة العرب ٨ (١٩٣٠) ص ٥٦٣ ـ ٥٦٧) . و « القصر العباسي في القلعة ببغداد وهو دار المسناة العتيقة » للدكتور مصطفى جواد (سومر ١ [١٩٤٥] الجزء الثاني ، ص ٦١ ـ ١٠٤) .

(٣) أصدرت مديرية الآثار القديمة في العراق ، نشرات في صفة هذا البناء وما عرض ليه من آثار . أنظر :

ا ـ بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد (بغداد ١٩٣٥) .

ب ـ دليل معارض القصر العباسي (بغداد ١٩٣٥) .

ج ـ بناية المتحف الاسلامي في القصر العباسي (بغداد ١٩٤٣) .

(٤) أخبار الحكماء للقفطي (ص ٢٦٩) .

وانه نقل الكتب اليها وإلى غيرها من الخزائن[١] ، من خزائنه بالدار الخليفية ، وانه اعتمد أبا الرشيد مبشر بن أحمد بن علي بن أحمد بن عمرو الرازي البغدادي الحاسب الملقب بالبرهان ، المتوفى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣م) في اختيار الكتب المنقولة إلى خزانة دار المسناة . وقد مر بنا نقل هذا الخبر في كلامنا على « خزانة الناصر لدين الله » .

خزانة المستنصر بالله

ذاعت شهرة هذا الخليفة العظيم ، بما كان له من مآثر عمرانية جليلة ، لا سيما مدرسته « المستنصرية » التي ردد ذكرها المؤرخون والكتّاب وأطنب في وصفها الشعراء .

وهذا الخليفة ، هو السابع والعشرون من الخلفاء العباسيين . وقد دامت خلافته من سنة ٦٢٣ إلى ٦٤٠ هـ (١٢٢٦ ـ ١٢٤٢ م) .

وكان للمستنصر بالله ، خزانة كتب خاصة به ، ما خلا الخزانة التي أنشأها في المدرسة المستنصرية . وليس لدينا ما يشفي الغليل عن خزانته الخاصة ، وكل ما نملكه في هذا الموضوع أخبار قليلة وردت عرضاً هنا وهناك .

فقد أشار بعض المؤرخين الى ان المستنصر ، بعد فراغه من بناء مدرسته ، نقل اليها في يوم افتتاحها جملةً صالحة من الكتب[٢] . قال ابن الفوطي انه « نقل اليها في هذا اليوم من الربعات الشريفة ، والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ، ما حمله مائة وستون حمالاً ، وجعلت في خزانة الكتب ، وتقدم (نصير الدين ابن الناقد ، نائب الوزارة) الى[٣] الشيخ عبد العزيز

(١) أنظر الكلام على « خزانة المدرسة النظامية » ، و « خزانة الرباط الخاتوني السلجوقي » في هذا الكتاب .
(٢) أنظر كلامنا على « خزانة المدرسة المستنصرية » في موطن آخر من هذا الكتاب .
(٣) تقدم الى ، بمعنى : أمر .

(ابن دُلف الخازن) شيخ رباط الحريم ، بالحضور بالمدرسة وإثبات الكتب واعتبارها(١)، والى العدل ضياء الدين أحمد ، الخازن بخزانة كتب الخليفة التي في داره أيضاً ، فحضر واعتبرها ورتبها أحسن ترتيب ، مفصلاً لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها »(٢).

وقد كانت وفاة العدل ضياء الدين المذكور ، في سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) .

وممن عُرف أيضاً من خزنة كتب المستنصر ، القاضي أبو محمد عبد الله البادرائي. فقـد ذكر ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) انه « رُتب مدرساً بالمدرسة النظامية وخُلع عليه ، وأقر على خزن الكتب بخزانة الخليفة ، وأُذن له أن يدخل المدرسة بطرحة أسوةً بالمدرسين »(٣).

خزانة المستعصم بالله

المستعصم بالله ، آخر خلفاء بني العباس ، الذي قتله المغول في سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، جمع من خزائن الكتب ما اشتهر ذكره في بطون التواريخ . وسنذكر في هذه النبذة أهم ما وقفنا عليه في هذا الصدد . فمن ذكر هذه الخزانة وأشار إلى موضعها من الكتبة البلدانيين ، ابن عبد الحق البغدادي في كلامه على « منظرة الريحانيين » ، قال إنها « منظرة على السوق المشهور المعروف بالريحانيين ، في وسط بغداد ، يباع فيه الرياحين والفواكه ، ويتصل بسوق الصرف وغيره . وهذه المنظرة أحدثها المستظهر بالله وهي متصلة بالدار التي كان يسكنها الخليفة ، ومن ورائها بستان كبير متسع ، وفيه(٤) خزانتان متقابلتان للكتب أنشأهما الامام الشهيد المستعصم بالله من وراء المنظرة،

---

(١) اثبات الكتب ، أي كتابة أسمائها في دفتر أو ثبت . والاعتبار يقابله « الجرد » في زماننا . يقال اعتبر الكتب أي فحصها واحداً واحداً . والجرد لفظ مولد ، لم يرد في دواوين اللغة .

(٢) الحوادث الجامعة (ص ٥٤) .

(٣) الحوادث الجامعة (ص ١٤٧ ـ ١٤٨) .

(٤) الهاء تعود الى بستان .

وهي بباب بدر وهو أحد أبواب الخلافة ، وكان أولاً يسمى بباب الخاصة يدخل منه من سَمَتَ منزلته ، ثم نسب بعد ذلك إلى بدر أحد خواص الخدم »[١].

ومما يحسن ذكره في هذا الشأن ، ما قاله ابن شاكر الكتبي ، على لسان صفي الدين عبد المؤمن الأرموي الكاتب الموسيقي ، المتوفى سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣م) ، من أن الخلافة لما وصلت إلى المستعصم « عمّر خزانة كتب ، وأمر ان يختار لها كاتبان يكتبان ما يختاره ، ولم يكن في ذلك الوقت أفضل من الشيخ زكي الدين ، وكنتُ دونه في الشهرة ، فرتبنا في ذلك »[٢].

وأوضح من ذلك ، ما ذكره ابن الطقطقي في كلامه على المستعصم بالله . قال : « حدثني صفي الدين عبد المؤمن بن فاخر الارموي ، وكان قد صار في آخر أيام المستعصم مقرباً عنده ومن خواصه ، وكان قد استجد في آخر أيامه خزانة كتب ونقل اليها من نفائس الكتب وسلم مفاتيحها إلى عبد المؤمن . فصار عبد المؤمن يجلس بباب الخزانة ينسخ له ما يريد . وإذا خطر للخليفة الجلوس في خزانة الكتب ، جاء إليها وعدل عن الخزانة الأولى التي كانت مسلمة إلى الشيخ صدر الدين علي بن النيار . قال ، أعني عبد المؤمن . كنت مرة جالساً في حجرة صغيرة ، وأنا أنسخ ، وهناك مرتبة برسم الخليفة إذا جاء إلى هناك جلس عليها وقد بسطت عليها ملحفة لترد عنها الغبار . فجاء خويدم صغير ونام قريباً من المرتبة المذكورة واستغرق في النوم ، فتقلب حتى تلفف في تلك الملحفة المبسوطة على المرتبة ، ثم تقلب حتى صارت رجلاه على المسند. قال : وأنا مشغول بالنسخ فأحسست بوطيء في الدهليز، فنظرتُ فاذا هو الخليفة وهو يستدعيني بالاشارة ويخفف وطأه ، فقمت إليه منزعجاً وقبلت الأرض . فقال لي : هذا الخويدم الذي

---

(١) مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع (٣ : ١٦٢) ، وراجع فيه أيضاً مادة « دار الريحانيين » .

(٢) فوات الوفيات (٢ : ١٨) .

قد نام حتى تلفف في هذه الملحفة وصارت رجلاه على المسند ، متى هجمتُ عليه حتى يستيقظ ويعلم اني قد شاهدته على هذه الحال ، تنفطر مرارته من الخوف . فأيقظه أنت برفق ، فاني سأخرج إلى البستان ثم أعود . قال : وخرج الخليفة فدخلت إلى الخويدم وأيقظته ، فانتبه ثم أصلحنا المرتبة . ثم دخل الخليفة »[١].

فالذي يؤخذ من هذا النص ، ان هناك خزانتين للخليفة المستعصم : احداهما وهي القديمة سلمت الى ابن النيار ، والثانية وهي الجديدة سلمت إلى صفي الدين الارموي. ولكن هذا الخليفة لم يكن من ذوي العلم على ما يُفهم من ترجمة حياته فقد ذكر بعض المؤرخين انه كان « في بعض الاوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة »[٢].

ومما ورد بصدد الخزانة القديمة ، ما ذكره ابن الطقطقى أيضاً بقوله « وحدثني بعض أهل بغداد قال : حدثتُ ان الشيخ صدر الدين بن النيار شيخ الخليفة ، قال : دخلت مرة إلى خزانة الكتب على عادتي ، وفي كمي منديل فيه رقاع كثيرة لجماعة من أرباب الحوائج . فطرحت المنديل وفيه الرقاع في موضعي ثم قمت لبعض شأني ، فلما عدت إلى الخزانة بعد ساعة ، حللت الرقاع من المنديل حتى أتأملها وأقدم منها المهم ، فرأيتها جميعها وعليها توقيع الخليفة بالاجابة إلى جميع ما فيها . فعلمت ان الخليفة قد جاء إلى الخزانة عند قيامي ، فرأى المنديل وفيه الرقاع ، ففتحها ووقع على جميعها »[٣].

وقد أشار ابن الفوطي إلى هذه الخزانة ، أنه في يوم مبايعة المستعصم بالخلافة ، سنة ٦٤٠هـ (١٢٤٢م) ، « تقدم الخليفة باحضار شيخه العدل شمس الدين علي بن النيار ، فحضر عنده وأكرمه وسلم اليه خزانة الكتب التي لخاصته ، وأمره بالترداد والملازمة »[٤].

---

(١) الفخري لابن الطقطقى (ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤ طبعة أهلورد) .
(٢) الفخري (ص ٣٨٣) .
(٣) الفخري (ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥) .
(٤) الحوادث الجامعة (ص ١٦٣) .

ولابن الفوطي إشارة أخرى حسنة إلى خزانة المستعصم ، قال في حوادث سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) ، ان فيها « أمر الخليفة بعمل خزانة للكتب في داره ، وكتب على جهاتها أشعار ، منها ما نظمه صفي الدين عبدالله بن جميل ، متقدم شعراء الديوان :

أنشأ الخليفة للعلوم خزانة   سارت بسيرة فضله أخبارها
تجلو عروساً من غرائب حسنها   در الفضائل والعلوم نثارها
أهدى مناقبه لها مستعصم   بالله من لألائه أنوارها »[1]

---

(١) الحوادث الجامعة (ص ١٨٤) .

القسم الثاني

خزائن كتب الملوك والسلاطين

خزانة عضد الدولة البويهي

عضد الدولة ، هو أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة البويهي ، الذي دامت ولايته بالعراق خمس سنين ونصفاً[1] ، وتوفي ببغداد سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) .

وقد وُصف عضد الدولة ، في ما وصف ، بانه « كان محباً للعلوم وأهلها ، مقرباً لهم محسناً إليهم . وكان يجلس معهم يعارضهم في المسائل ، فقصده العلماء من كل بلد ، وصنّفوا له الكتب ، منها : الايضاح في النحو ، والحجـة في القراءات ، والملكي في الطب ، والتاجي في التاريخ ، إلى غير ذلك »[2] .

وقد جمع عضد الدولة لنفسه خزانة كتب كبيرة ، كان جملها أولاً في قصره بمدينة شيراز ، ولكنها نقلت فيما بعد إلى بغداد على ما نظن . ووجدنا البشاري المقدسي وهو من معاصري عضد الدولة ، إذ كان عائشاً سنة ٣٧٥ هـ يصف هذه الخزانه وصفاً حسناً ، لأنه كان قد دخل فيها وشاهدها واستفاد من بعض كتبها ، فقال : « وخزانة الكتب ، حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ، ولم يبقَ كتاب صنّف إلى وقته من أنواع العلوم كلها إلا وحصله فيها . وهي أزج طويل في صفـة كبيرة ، فيه خزائن من كل وجه ، وقد أُلصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من

---

(١) الكامل لابن الأثير (٩ : ١٣) .

(٢) الكامل لابن الأثير (٩ : ١٦) . وراجع تفصيل ذلك في « ذيل تجارب الامم » للوزير أبي شجاع الروذراوري (ص ٢٣ و ٦٨ طبعة امدروز) .

الخشب المزوّق ، عليها أبواب تنحدر من فوق . والدفاتر منضدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب ، لا يدخلها إلا وجيه »[١] .

وسبق للبشاري أن اشار إلى هذه الخزانة أيضاً إشارتين خفيفتين بقوله : « قرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة ... »[٢] ، ثم نقل نصين من ذينك الكتابين .

خزانة الملك العادل نور الدين ارسلان شاه بالموصل

ساق ابن خلكان ، نسب صاحب هذه الخزانة ، بقوله : « أبو الحرث أرسلان شاه ، بن عز الدين مسعود ، بن قطب الدين مودود ، بن عماد الدين زنكي ، بن آق سنقر ، صاحب الموصل المعروف بأتابك ، الملقب الملك العادل نور الدين »[٣] .

وقد ملك نور الدين الموصل ، سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ، وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهراً[٤] . وكان ملكاً شهماً عارفاً بالامور ، و « بنى مدرسة » للشافعية بالموصل ، قلّ ان توجد مدرسة في حسنها . وتوفي ليلة الأحد التاسع والعشرين من رجب سنة سبع وستمائة (١٢١١م) في شبارة بالشط[٥] ظاهر الموصل ، والشبارة عندهم هي الحراقة[٦] بمصر ، وكتم موته

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ص ٤٤٩ وحاشية الصفحة ٤٥٠ ـ ٤٥١) .
(٢) أحسن التقاسيم (ص ١٣٣ و ٤٤٨) .
(٣) وفيات الأعيان (١ : ٨٦ ـ ٨٧) .
(٤) الكامل في التاريخ (١٢ : ١٩١) .
(٥) يريد بالشط : نهر دجلة .
(٦) الشبارة والحراقة من السفن النهرية ، كانت كثيرة الاستعمال في دجلة .

حتى دُخل به إلى دار السلطنة بالموصل ، ودفن في تربتـه التي بمدرسته المذكورة ».[١]

وكان للملك نور الدين هذا ، خزانة كتب ، تشتت شملها وآل أمرها إلى الضياع ، وهذا شأن أكثر خزائن الكتب القديمة ، إذ لم نقل كلها .

وغاية ما انتهى الينا من أسفارها ، نسخة نفيسة من « كتاب السموم » لشاناق الهندي . فقد ذكر العلامة المرحوم عبد الله مخلص[٢] (المتوفى سنة ١٩٤٦) ، ان من هذا الكتاب ، نسخة خزائنية محفوظة في خزانة الكتب الخالدية بالقدس ، كتبها يحيي بن اسماعيل الربيعي ، جاء في أولها بماء الذهب انها كتبت لخزانة الملك العادل نور الدين ارسلان شاه . وقد أغفلنا إيراد كلام الناسخ المذكور ، لأنه لم يدع نعتاً من النعوت الجليلة ، ولا صفة من الصفات الطيبة إلا وصفه بها .

خزانة بدر الدين لؤلؤ بالموصل

الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ ، كان صاحب الموصل ، وقد حكم فيها مدة طويلة ، أعني من سنة ٦١٥ إلى ٦٥٧ هـ (١٢١٨ ـ ١٢٥٨ م) وهي السنة التي توفي فيها . وله ذكر حسن في التاريخ ، وآثار بعضها ماثل إلى يومنا في مدينة الموصل ، أشهرها البناء المسمى اليوم بـ « قره سراي » على ضفة دجلة اليمنى .

وكان لبدر الدين لؤلؤ يد بيضاء على العلم والعلماء . فذكر ابن الفوطي ان بدر الدين « طلب من الشيخ عز الدين بن الأثير ، أن يجمع تاريخاً ويجعله باسمه ، ففعل وعمل التاريخ ، فأجزل صلته ».[٣]

---

(١) وفيات الأعيان (١ : ٨٧) .

(٢) « كتاب السموم ، لجنك أم لشاناق ؟ » لعبد الله مخلص (لغة العرب ٩ [١٩٣١] ص ٤٨٣ ـ ٤٨٨ ، المراجعة ص٤٨٣) . وانظر : برنامج المكتبة الخالدية العمومية (ص ٦٩ السطر الأخير ، القدس ١٩٠٠) .

(٣) الحوادث الجامعة (ص ٣٣٧) .

وقد نوه ابن الأثير نفسه بذلك في مقدمة تاريخه(١) ، مما يدل على عناية بدر الدين بالكتب وتشجيعه للمؤلفين .

ووصف ابن الطقطقي ما كان يجري في مجلس أنسه بقوله : « وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، رحمه الله ، أكثر ما يجري في مجلس أنسه ، إيراد الأشعار المطربة والحكايات الملهية . فاذا دخل شهر رمضان أحضرت له كتب التواريخ والسير وجلس الزين الكاتب وعز الدين المحدث يقرآن عليه أحوال العالم »(٢).

فكتب « التواريخ والسير » تلك ، كان يؤتى بها اليه من خزانة كتبه التي كانت تضم شيئاً كثيراً من التصانيف .

وقد أشار ابن الطقطقي أيضاً ، إلى أن بدر الدين ، كان قد أهدى إلى الوزير ابن العلقمي هديةً ، من جملتها كتب(٣) . ولا مراء في ان تلك الكتب كانت مما تخيره من خزانته ليليق بالاهداء .

وقد ذكر أبو الفرج ابن العبري في تاريخه الكنسي الارامي ، ان مار سويريوس يعقوب البرطلي ، المتوفى سنة ١٢٤١ م (٦٣٩ هـ) ، كان في آخر أيام حياته ، « انقلب إلى الموصل ، وفيها لقي ربه . فحمل جثمانه الى دير مار متى حيث دفن سنة ١٢٤١ م . وأخذت كتبه الكثيرة وضمت إلى خزانة كتب حاكم الموصل »(٤) .

وحاكم الموصل يومئذٍ هو بدر الدين لؤلؤ . لأن سنة وفاة يعقوب البرطلي كانت إحدى سني حكم بدر الدين الموصل .

---

(١) الكامل (١ : ٦) .

(٢) الفخري (ص ٦ ـ ٧) .

(٣) الفخري (ص ٣٨٩) .

(٤) التاريخ الكنسي الارامي لابن العبري (نسخة مخطوطة لدى القس بطرس سابا ببغداد، القسم الثاني ، وجه الورقة ١١٤) . وانظر رسالة العلامة البطريرك أفرام برصوم ، في ترجمة « مار سويريوس يعقوب البرطلي مطران دير مار متى واذربيجان » .

القسم الثالث

خزائن الكتب العامة

القديمة في العراق

خزائن المساجد والمدارس والربط ودور العلم وغيرها

لا نظن أن مدرسة من المدارس القديمة في العصر العباسي ، أو مسجداً جامعاً، أو غير ذلك من معاهد العلم ومناهل المعرفة، كانت تخلو من خزانة كتب. بل أن بعضها كان ذا خزائن جسيمة تحفل بأمهات الأسفار وأعيان التآليف .

إلا أن أغلب أخبار تلك الخزائن العامة قد ضاع بضياع الكتب ذاتها ، أو انه مما لم يعنَ المؤرخون بتدوينه . ومن ثمة ، فاننا لا نذكر من تلك الخزائن في هذا الفصل ، إلا ما ردّد التاريخ ذكره وأشاد بفضل منشئيه .

وقد جرينا في ترتيب هذه الخزائن «العامة» ، على حسب سياقتها التاريخية، وهذا دأبنا في جميع فصول الكتاب .

الخزانة الحيدرية في النجف

وهي خزانة المشهد الشريف الغروي . وهذا المشهد من أقدم الآثار الاسلامية في العراق وأكثرها روعةً وجمالاً . وفيه قبر أمير المؤمنين الامام عليّ بن أبي طالب (ع)[١].

---

(١) أفاض البحاثة الشيخ جعفر بن الشيخ باقر آل محبوبه النجفي ، في صفة هـذا المشهد وتاريخه وما طرأ عليه من بناء وترميم على مر العصور . (راجع كتابه : ماضي النجف وحاضرها . ص ٢٩ ـ ٦٤ ، مطبعة العرفان ، صيدا ١٣٥٣ هـ) . وراجع : « تاريخ الحياة العلمية في جامع النجف الأشرف » لضياء الدين الدخيلي (الرسالة ٦ [١٩٣٨] العدد ٢٧١ ص ١٠٠٩ ـ ١٠١١ ، العدد ٢٧٢ ص ١٠٤٨ ـ ١٠٥٠).

وفي صحن هذا المشهد ، خزانة كتب اُنشئت منذ عهدٍ بعيد . وقد عُني بأمر هذه الخزانة وإغنائها بالكتب الخطية الثمينة ، غير واحد من السلاطين والأمراء والوزراء والعلماء وذوي اليسار . ومن أشهرهم عضد الدولة البويهي ، المتوفى سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) .

قال الشيخ جعفر آل محبوبه النجفي في معرض كلامه على هذه الخزانة ، انه قد كان فيها منذ قديم الزمن « من الكتب الثمينة النادرة الوجود ما لم يوجد في غيرها . وأغلبها بخط مصنفيها أو عليها خطوطهم ، بخط جيد متقن ، على ورق ثمين ، مخطوطة في العصور القديمة ، ولم يوجد فيها ما هو مخطوط في القرن العاشر ، بل كلها ما قبله ، فهي من النفائس التي لا يوجد لها نظير . وفيها مصاحف ثمينة لأشهر الخطاطين محلاة بالذهب ، وهي من هدايا سلاطين الشيعة ووزرائهم في مختلف العصور مختلفة الخط : ففيها الكوفي والأندلسي واليماني . ومنها قطعة من مصحف بقطع سفينة[1] ، مكتوب على رقّ بخط كوفي ، وفي آخره : (تم سنة أربعين من الهجرة كتبه علي بن أبي طالب) . ويحسب بعض الأعلام الخبيرين انه خط الأمير (ع) وأكثر ما فيهذا المخزن اليوم مصاحف، ففيه ما يقرب من أربعمائة مصحف ، وفيها خط الأربعمائة من الهجرة . وبالجملة ، فهي من الأعلاق التي لا تقدر بثمن »[2].

ولم تسلم هـذه الخزانة الجليلة ، التي كانت تحفل بنفائس الكتب النـادرة وطرائف الآثار الخطية، من نكبات الدهر، وعبث العابثين بها على مر الأزمان. فلقد أصابها في سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) حريق ، على ما يؤخذ مما ذكره ابن عنبة المتوفى سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٤ م) ، قال : ما هذا نصه « وقد كان بالمشهد

---

(١) أي يفتح مما يلي عرضه لا مما يلي طوله . وكنا شرحنا معنى هذه اللفظة في مقالنا : « السفينة : بمعنى المجموع الأدبي » : (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (١٨ [١٩٤٣] ص ٥٥١ - ٥٥٢) .

(٢) ماضي النجف وحاضرها (ص ١٠٠) .

الشريف الغروي ، مصحف في ثلاث مجلدات ، بخط أمير المؤمنين عليه السلام ، احترق حين احترق المشهد سنة خمس وخمسين وسبعمائة ، يقال انه كان في آخره: « وكتب علي بن أبو طالب » . ولكن حدثني السيد النقيب السعيد تاج الدين أبو عبدالله محمد بن القاسم بن معية الحسني النسابة ، وجدي لأمي المولى الشيخ العلامة فخر الدين أبو جعفر محمد بن الحسين بن حديد الأسدي رحمه الله ، ان الذي كان في آخر ذلك المصحف : « علي بن أبي طالب » ، ولكن الياء مشتبهة بالواو في الخط الكوفي[1] الذي كان يكتبه علي عليه السلام »[2].

وقد قال بعض الواقفين على تاريخ هذه الخزانة المطلعين على أحوالها ، انه « لتطاول الأيام واهمال القائمين بهذا المخزن وخلوهم عن العلم ، تلف بعضها وأكلت الارضة الباقي منها بعد ما عاثت بها أيدي السراق والمستعيرين الذين يأخذون هذه الكتب ولا يرجعونها وتوجد اليوم في بعض البيوت ، في النجف وخارجه ، من هذه الكتب وعليها صورة وقف الحضرة العلوية »[3].

وكان البحاثة الاستاذ كاظم الدجيلي ، قد زار هذه الخزانة في سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) فذكر ان «الكتب الموجودة في خزانة الأمير ، تقسم ثلاثة أقسام: قسم لصقت أوراقه بعضها ببعض من الرطوبة . وقسم أكلته الأرضة وتمزقت أوراقه ، وقسم بين ناقص وتام »[4]. وفي هذا القول ، على ما فيه من اسراف،

---

(١) قال الاستاذ محمد صادق آل بحر العلوم ، الذي عني بتحقيق كتاب عمدة الطالب : ان منشأ الاشتباه هو ان كلا من الواو والياء يكتب بالخط الكوفي مربعاً ، غير ان رأس الياء منفتح ورأس الواو منضم . ولعله انطمست مربعة رأس الياء فاشتبهت بالواو ، فقرأها القارىء واواً .

(٢) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب لابن عنبة (ص ٥ ، طبع النجف سنة ١٣٥٨ هـ) .

(٣) ماضي النجف وحاضرها (ص ١٠٢ ــ ١٠٣) .

(٤) وصف كتب خزانة الأمير (عم) : لكاظم الدجيلي (لغة العرب ٤ [تموز ١٩١٤] ص ٤٠) .

دليل على ما أصاب كتب الخزانة من محن .

وبالرغم مما حلّ بهذه الخزانة العظيمة الشأن من رزايا وملمات في خلال مئات سنين ، فانها ما زالت الى يومنا هذا تحوي كتباً عديدة ، بينها العتيق والفريد والنفيس ، لا سيما المصاحف الثمينة . وقد وصف بعض الباحثين[1] جملةً من هذه الاسفار ، ولا يسعنا ذكرها هاهنا كلها ، بل نذكر منها أقدمها . فمن المصاحف :

١ ـ مصحف قديم جداً ، مكتوب على الرق بالخط الكوفي ، وتُنسب كتابته إلى الامام علي .

٢ ـ مصحف قديم جداً ، مكتوب على الرق بالخط الكوفي ، وتنسب كتابته إلى الامام الحسن بن الامام علي . وكلا هذين المصحفين من أنفس الآثار الخطية في هذه الخزانة وأثمنها ، وأقدمها عهداً .

٣ ـ مصحف بالخط الكوفي ، كتب سنة إحدى وثلثمائة (٩١٣ م) .

وهنالك مصاحف أخرى كثيرة ، أحدها بخط ياقوت المستعصمي ، والآخر بخط أحمد النيريزي الخطاط الشهير .

وأغلب المصاحف التي تضمها هذه الخزانة ، من أحسن ما كتبه الكاتبون ، وأجود ما جلده المجلدون ، وذهبه المذهبون وزخرفه المزخرفون . فيها تتجلى فنون النسخ والتزويق والتجليد بأجلى مظاهرها .

ومن المخطوطات الاخرى التي تُرى اليوم في هذه الخزانة :

١ ـ كتاب قوى الاغذية : لعله من مؤلفات حنين بن اسحق . وهي نسخة

---

(١) راجع في هذا الصدد :

أ ـ خزانة كتب الامام علي : لكاظم الدجيلي (لغة العرب ٣ [١٩١٤ ص ٥٩٥ ـ ٦٠٠) .

ب ـ وصف خزانة كتب الأمير (عم) : لكاظم الدجيلي (لغة العرب ٤ [تموز ١٩١٤] ص ٤٠ ـ ٤٥) .

ج ـ ماضي النجف وحاضرها (ص ١٠٠ ـ ١٠٢) .

قديمة جداً ، كتبها محمد بن يوسف الوراق ، بخط كوفي .

٢ ـ المسائل الشيرازية : لأبي علي الفارسي ، أوحد زمانه في علم العربية . وهي نسخة قديمة جداً ، قرئت على المؤلف في سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) .

٣ ـ شرح مقصورة ابن دريد : لابن خالويه. قرئت على شارحها ابن خالويه في سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) وعليها إجازة بخطه .

٤ ـ شرح شعر النابغة ومقصورة ابن دريد وقصائد للاعشى وأمرىء القيس قطعة صغيرة منه ، كُتبت في نحو المائة الخامسة للهجرة .

٥ ـ كتاب المعتبر في الحكمة : لأبي البركات هبة الله بن علي بن ملكا البغدادي ، طبيب المستنجد بالله (قطعة منه ، كُتبت في بغداد سنة ٥٣٨ هـ ـ ١١٤٣ م) .

٦ ـ التبيان في تفسير القرآن : لأبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي ، المتوفى في النجف سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م) . الجزء الثاني ، كتب سنة ٥٧٦ هـ[١] (١١٨٠ م) .

٧ ـ معجم الادباء : لياقوت الحموي ، المتوفى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) . الجزء الاول بخط المؤلف[٢] .

٨ ـ كتاب في اللغة : (على غرار فقه اللغة للثعالبي ، وليس به . كتب في حلب سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) .

---

(١) الذريعة الى تصانيف الشيعة : للعلامة محمد محسن الشهير بالشيخ آغا بزرك الطهراني (٣ [النجف ١٣٥٧ هـ] ص ٣٣٠) .

(٢) في سنة ١٩٠٧ ، نشر المستشرق الشهير مرجليوث (D. S. Margoliouth) الجزء الأول من معجم الأدباء . ثم أعاد طبعه مصححاً في سنة ١٩٢٣ . وقد ذكر هذا الناشر انه لم يعثر الا على نسخة خطية واحدة من هذا الجزء ، محفوظة في خزانة بدليان باكسفرد . وهي نسخة حديثة الخط ، كثيرة التصحيف والتحريف ، كتبت في نحو المائة السابعة عشرة للميلاد . فما أنفس نسخة الخزانة الغروية وما أعظمها شأناً !

٩ ـ الأسرار الخفية : في المنطق والطبيعي والالهي : للحسن بن يوسف بن المطهر الحلي ، المتوفى سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٥ م) . ثلاثة أجزاء ، بخط المؤلف[١] .

١٠ ـ التقريب : لابي حيان النحوي الاندلسي ، المتوفى سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م) بخط المؤلف .

١١ ـ شرح كتاب الايلاقي في الطب : لعبد الرحمن بن محمد بن ابراهيم المعروف بابن العتائقي الحلي ، من أبناء المائة الثامنة للهجرة . كتبه شارحه سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) في المشهد الغروي[٢].

١٢ ـ التصريح في شرح التلويح إلى أسرار التنقيح في الطب[٣] . لابن العتائقي المذكور . الجزء الثاني كتبه شارحه بخطه في سنة ٧٧٢ هـ (١٣٧٠ م) في المشهد الغروي .

١٣ ـ شرح الملخص : لعلي بن عمر الكاتبي القزويني . الجزء الثاني ، أوقف سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) .

١٤ ـ شرح ديوان المتنبي : لابن العتائقي المذكور . (قطعة صغيرة منه ، بخط الشارح ، سنة ٧٨١ هـ ـ ١٣٧٩ م) .

١٥ ـ شرح صفوة المعارف (في الهيئة) : لابن العتائقي . وهي بخط الشارح ، كتبها سنة ٧٨٧ هـ (١٣٨٥ م) في المشهد الغروي .

١٦ ـ الشهدة شرح تعريب الزبدة (في الهيئة) : لابن العتائقي . وهي بخط الشارح .

وهنالك من الكتب مالا يمكن حصره في هذا المقام ، من ذلك مؤلفات

---

(١) عن هذه النسخة ، راجع : الذريعة (٢ : ٤٥ الرقم ١٧٥) ، وعن مؤلفها أنظر الذريعة (١ : ٥١٠ الرقم ٢٥٠٧) .

(٢) في خزانة هذا المشهد من تصانيف ابن العتائقي ، نحو ثلاثين كتاباً .

(٣) الذريعة (٤ [طهران ١٣٦٠] ص ١٩٦ الرقم ٩٧٥) .

لابن كمونة اليهودي البغدادي ، كتبت بخطه في حدود الستمائة والسبعين (١٢٧١ م) .

* * *

لقد ردد التاريخ ذكر غير واحد من خزنة كتب هذه الخزانة في مختلف العصور ، منهم :

١ ـ يحيى بن عليان : كان من كبار علماء عصره ، وقد ورد ذكره في فرحة الغري[١] .

٢ ـ محمد بن أحمد بن شهريار : وقفنا على ذكره في أول كتاب الصحيفة السجادية[٢] ، في قول القائل : « حدثنا السيد الاجل نجم الدين بهاء الشرف أبو الحسن محمد بن الحسن بن أحمد بن علي بن محمد بن عمر بن يحيى العلوي الحسيني رحمه الله . قال : أخبرنا الشيخ السعيد أبو عبد الله محمد بن أحمد بن شهريار الخازن لخزانة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) في شهر ربيع الاول من سنة ست عشرة وخمسمائة (١١٢٢ م) قراءةً عليه وأنا أسمع ، قال ... » .

٣ ـ محمد جعفر الكيشوان[٣] .

٤ ـ محمد حسين الكتاب دار بن محمد علي الخادم : قال البحاثة الشيخ جعفر محبوبه ، ان بعض الاعلام « وقف على كتاب عمدة الطالب بخطه ، فرغ من كتابته سنة ١٠٩٥هـ (١٦٨٣ م) وعليه حواشٍ كثيرة بخطه ، وهو من العلماء

---

(١) الرسالة (٦ : ١٥٤٨) .

(٢) الصحيفة السجادية ، كتاب في الأدعية ، مروي عن الامام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بزين العابدين . ولهذا الكتاب نسخ خطية عديدة في كثير من خزائن الكتب ، ومنه نسخة حسنة في خزانة كتب المتحف العراقي ، برقم ١٩٦ .

(٣) ماضي النجف وحاضرها (ص ١٠٢) .

في النسب »[١] . فيكون هذا الرجل من أبناء المائة الحادية عشرة للهجرة ، ولعله أدرك أوائل المائة الثانية عشرة .

دار العلم بالموصل

وهي من الخزائن العامة للكتب . أنشأها أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي ، الفقيه الشافعي ، المولود سنة ٢٤٠ ، المتوفى سنة ٣٢٣ هـ (= ٨٥٤ ـ ٩٣٤م) . كان شاعراً أديباً ناقداً للشعر ، صنّف جملة كتب في الأدب والفقه الشافعي ضاعت جميعاً . نقل ياقوت الحموي في ترجمته انه « كانت له ببلده دار علم ، قد جعل فيها خزانة كتب[٢] من جميع العلوم ، وقفاً على كل طالب لعلم ، لا يُمنع أحد من دخولها ، إذا جاءها غريب يطلب الأدب وإن كان معسراً أعطاه ورَقاً ووَرِقاً ، تفتح في كل يوم ، ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه . ويجتمع اليه الناس ويملي عليهم من شعره وشعر غيره ومصنفاته مثل الباهر وغيره من مصنفاته الحسان ثم يملي من حفظه من الحكايات المستطابة وشيئاً من النوادر المؤلفة وطرفاً من الفقه وما يتعلق به »[٣] .

خزانة الوقف بالبصرة

أنشأها أبو علي بن سوّار الكاتب من رجال عضد الدولة . عاش في المائة الرابعة للهجرة . وكان ابن سوار محباً للعلوم ، شديد الشغف بها . قال لابن النديم يوماً ، وكان معاصراً له: إن في خزانته مؤلفاتٍ لأبي القاسم البستي ، وكان ابن

---

(١) ماضي النجف وحاضرها (ص ١٠٢) .

(٢) ترجمه ابن النديم في الفهرست (ص ١٤٩ فلوجل = ٢١٣ مصر) دون الاشارة الى خزانة الكتب هذه .

(٣) معجم الأدباء (٢ : ٤٢٠) .

النديم لم ير شيئاً منها . وقد ذكر له أسماء تلك المؤلفات التي ننقلها عنه هاهنا ، ليستدل القارىء من أسمائها على ما كانت تحويه هذه الخزانة من نفائس الأسفار:

كتاب الأشجار والنبات . كتاب وصف هواء جرجان . كتاب جوابه في قِدَم العالم . كتاب في علة الوزير الموّجه بوجهين . كتاب صون العلم وسياسة النفس . رسالة في سبر العضو الرئيس من بدن الانسان[1] .

وهذه الكتب قد ضاعت ، فلا يُعلم شيء منها في زماننا .

وقد أشار البشاري المقدسي إلى هذه الخزانة ، في كلامه على مدينة « رام هرمز » ، فقال : « ... وبها دار كتب كالتي بالبصرة . والداران جميعاً اتخذهما ابن سوار ، وفيهما اجراء على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ ، إلا أن خزانة البصرة أكبر وأعمر وأكثر كتباً »[2] .

وفي المقامة الثانية من مقامات الحريري ، وهي المعروفة بـ « الحلوانية » ، ذكر لهذه الخزانة. قال الحريري على لسان الحرث بن همام البصري ما هذا بعضه: « ... فلما اُبتُ من غربتي ، إلى منبت شعبتي[3] ، حضرتُ دار كتبها التي هي منتدى المتأدبين ، وملتقى القاطنين منهم والمتغربين . فدخل ذو لحية كثة، وهيئة رثة ، فسلم على الجلاّس ، وجلس في اُخريات الناس ، ثم أخذ يُبدي ما في وطابه، ويُعجب الحاضرين بفصل خطابه ، فقال لمن يليه : ما الكتاب الذي تنظر فيه ؟ فقال : ديوان أبي عبادة[4] ، المشهود له بالاجادة ... »[5].

فهذا النص ، على ما فيه من سجع ، يصف بعض ما كان يجري في مجالس العلماء في هذه الخزانة ، نحو أوائل المائة السادسة للهجرة ، لأن الحريري كان قد توفي في سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) .

---

(١) الفهرست (ص ١٣٩ فلوجل = ١٩٩ مصر) .
(٢) أحسن التقاسيم (ص ٤١٣) .
(٣) يريد انه عاد الى مدينة البصرة .
(٤) هو البحتري الشاعر المشهور .
(٥) مقامات الحريري (ص ١٥ ، بولاق ١٣٠٠هـ) .

دار كتب بالبصرة

لم يتحقق عندنا كون هذه الدار ، هي « خزانة الوقف »(١) التي أنشأها أبو علي بن سوّار بالبصرة، أو هي خزانة ثانية ، وهل كانت الخزانتان في عصر واحد ؟

ذكر ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، ان « في جمادى الأولى ، ورد البصرة رجل كان ينظر في علوم النجوم يقال له تليا ، واستغوى جماعةً ، وادعى انه الامام المهدي . وأحرق البصرة فأُحرقت دار كتب عملت قبل عضد الدولة(٢) ، وهي أول دار كتب عُملت في الاسلام ... » .(٣)

وأشار ابن الأثير أيضاً إلى احراق هذه الخزانة النفيسة في أحداث تلك السنة من تاريخه ، قال في خبر نهب العرب الذين استغواهم تليا المذكور ، انهم أحرقوا في البصرة مواضع عدة ، « وفي جملة ما أحرقوا دارين للكتب ، إحداهما وقفت قبل أيام عضد الدولة بن بويه ، فقال عضد الدولة : هذه مكرمة سُبقنا إليها . وهي أول دار وقفت في الاسلام . والاخرى وقفها الوزير أبو منصور بن شاه مردان ، كان بها نفائس الكتب وأعيانها »(٤).

وخبر خزانة ابن شاه مردان ، أوردناه في موطن آخر من هذا الكتاب.

والذي يؤخذ من هذا النص ، ان عضد الدولة البويهي ـ وهو ممن أحرز خزانة كتب جليلة(٥) ـ ، قد رأى هذه الخزانة البصريه ، واعترف بسبق واقفها إلى هذه المكرمة .

---

(١) سبق الكلام عليها في الصفحة ١٣٧ ـ ١٣٨ من هذا الكتاب .
(٢) كانت وفاته في سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) .
(٣) المنتظم (٩ : ٥٣) .
(٤) الكامل في التاريخ (١٠ : ١٢٢) .
(٥) في الصفحة ١١٦ ـ ١٢٧ من هذا الكتاب ، وصف لخزانة عضد الدولة .

دار العلم ببغداد (= خزانة سابور)

كانت هذه الخزانة مفخرة أدبية رائعة ، ومأثرة أسداها إلى عشاق البحث ، رجل جمع بين الأدب والسياسة ، فخلد التاريخ ذكره بها .

ذلك الرجل ، هو « أبو نصر سابور بن أردشير »[١] ، المتوفى سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) ، وهو الذي وزر لبهاء الدولة البويهي ثلاث مرات ، ووزر أيضاً لشرف الدولة . وكان سابور كاتباً سديداً ، عفيفاً عن الأموال ، كثير الخير . غير ان أشهر ما اشتهر به كان خزانة الكتب التي أنشأها ببغداد في محلة الكرخ سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) ، ووقف عليها الوقوف[٢] . فانه في هذه السنة « ابتاع داراً في الكرخ ، بين السورين[٣] ، وعمّرها وبيّضها وسماها دار العلم ، ووقفها على أهله ونقل اليها كتباً كثيرة ابتاعها وجمعها ، وعمل لها فهرستاً . وردّ النظر في أمورها ومراعاتها والاحتياط عليها ، إلى الشريفين أبي الحسين محمد بن أبي شيبة[٤] ، وأبي عبدالله محمد بن أحمد الحسني ، والقاضي أبي عبدالله الحسين بن هارون الضبي ، وكلف الشيخ أبا بكر محمد بن موسى الخوارزمي فضل

---

(١) في بعض المراجع : شابور بن أزدشير .

(٢) المنتظم (٨ : ٢٢) .

(٣) قال ياقوت (معجم البلدان ١ : ٧٩٩ طبعة وستنفلد ، في مادة « بين السورين ») انها : « اسم لمحلة كبيرة كانت بكرخ بغداد ، وكانت من أحسن محالها وأعمرها . وبها كانت خزانة الكتب التي وقفها الوزير أبو نصر سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة ، ولم تكن في الدنيا أحسن كتباً منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولهم المحررة . واحترقت فيما أحرق من محال الكرخ عند ورود طغرل بك أول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧ ...» . والصحيح انها احترقت سنة ٤٥١ هـ (راجع المنتظم ٨ : ٢٠٥) . وقد ذكر هذه المحلة ، ابن عبد الحق (مراصد الاطلاع ١ : ١٩٢) ولكنه أغفل ذكر الخزانة فيها .

(٤) تصحفت هذه اللفظة في شذرات الذهب (٣ : ١٠٤) الى : سنية .

عناية بها »[١].

وأشار بعض المؤرخين ، إلى أن عدد ما اشتملت عليه هذه الخزانة ، كان أكثر من عشرة آلاف مجلد[٢] ، بل كان عددها بوجه التدقيق « عشرة آلاف مجلد وأربعمائة مجلد من أصناف العلوم ، منها مائة مصحف بخطوط بني مقلة »[٣].

وكانت هذه الدار موئلاً للعلماء والباحثين ، يترددون اليها للدرس والمناظرة والمباحثة . ومن أشهر روادها ، الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري[٤] ، المتوفى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، فقد طالما ذكرها وذكر بعض القائمين على أمرها[٥] ، وآثر الاقامة بها[٦] يوم كان ببغداد .

وكان جماعة من العلماء يهبون مؤلفاتهم لهذه الخزانة ، يؤيد ذلك ما ذكره ياقوت في ترجمة ولي الدولة أحمد بن علي بن خيران الكاتب ، صاحب ديوان الانشاء بمصر ، المتوفى سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م) ، انه سلم إلى بعضهم « جزءين من شعره ورسائله ، واستصحبها الى بغداد ليعرضها على الشريف المرتضى أبي

---

(١) المنتظم (٧ : ١٧٢) . وراجع خبر انشائها في ذيل تجارب الأمم للوزير أبي شجاع (ص ٢٥٢ الحاشية ٢ طبعة امدروز) فقد نقل الناشر هذا الخبر عن تاريخ الاسلام للذهبي . وانظر أيضاً في هذا الصدد : الكامل لابن الأثير (٩ : ٧١) ، والبداية والنهاية (١١ : ٣١٢ ، ١٢ : ١٩) ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي (ص ٢٧٣ ، القاهرة ١٣٥١ هـ) ، وشذرات الذهب (٣ : ١٠٤) .

(٢) المنتظم (٨ : ١٢) ، والكامل لابن الأثير (٩ : ٢٤٦) .

(٣) الكامل لابن الأثير (١٠ : ٥) ، ومعجم البلدان (٢ : ٢٤٢) .

(٤) أبو العلاء وما اليه : لعبد العزيز الميمني الراجكوتي (ص ١١٣ — ١٣٠ ، القاهرة ١٣٤٤ هـ) ، ومقدمة مرجليوث (بالانكليزية) على رسائل أبي العلاء (ص ٢٤) .

(٥) رسالة الغفران للمعري (ص ٧٣ و ١٨٤ بتحقيق الشيخ ابراهيم اليازجي . القاهرة ١٩٠٣) ، وديوان سقط الزند للمعري (ص ١٠٣ و ١٢٠ و ١٢٧ ، القاهرة ١٩٠١) ، وشرح التنوير على سقط الزند المعري ، والشرح ليوسف بن طاهر النحوي (٢ : ٥١ و ١٠٠ و ١٢٠ ، بولاق ١٢٨٦ هـ) .

(٦) رسائل أبي العلاء المعري (ص ٣٤ طبعة مرجليوث ، اكسفرد ١٨٩٨ = ص ٨٣ طبع بيروت ١٨٩٣) .

القاسم وغيره ممن يأنس به من رؤساء البلد ، ويستشير في تخليدها دار العلم ، لينفذ بقية الديوان والرسائل إن علم ان ما أنفذه أرتضي واستجيد ... »[١].

وذكر ابن أبي أصيبعة ، ان جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع ، المتوفى سنة ٣٩٦ هـ (١٠٠٥ م) ، تمم كنّاشه الكبير في الطب في خمس مجلدات ، وسماه بـ «الكافي» ، بلقب الصاحب بن عباد[٢] ، لمحبته له ، «ووقف منه نسخة على دار العلم ببغداد »[٣] .

وقد ضمت هذه الخزانة نوادر الكتب وأعلاقها . من ذلك نسخة من ديوان عدي بن زيد[٤].

ولقد أسعفتنا عدة من المراجع التاريخية ، في معرفة غير واحد ممن نيط بهم أمر هذه الخزانة والاشراف عليها وتنظيم كتبها وفهارسها . وقد ذكرنا أسماء أربعة منهم في خبر نقلناه من المنتظم قبل قليل . وممن وقفنا على ذكرهم ، غير هؤلاء الأربعة :

ـ أبو أحمد عبد السلام بن الحسين بن محمد بن أحمد البصري اللغوي ، المعروف بالواجكا ، المتوفى سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) . كان يتولى خزانة الكتب هذه وحفظها والاشراف عليها . كان من أخلص أصدقاء أبي العلاء المعري[٥]. ولقد ذكره أبو العلاء غير مرة تلميحاً وتصريحاً[٦] . ووصفه مترجموه أنه كان صدوقاً عالماً أديباً قارئاً للقرآن عارفاً بالقراءات[٧].

---

(١) معجم الأدباء (١ : ٢٤٢) .
(٢) توفي الصاحب سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) ، وكان يلقب بكافي الكفاة .
(٣) عيون الانباء (١ : ١٤٦) .
(٤) رسالة الغفران (ص ١٠) .
(٥) وفيات الأعيان (٢ : ٥٢١) .
(٦) شرح التنوير على سقط الزند (٢ : ١٠٠ــ١٠١ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٤٠) .
(٧) تاريخ بغداد للخطيب (١١ : ٥٧ ــ ٥٨) ، ورسالة الغفران (ص ١٨٤) ، ونزهة الألباء في طبقات الادباء للانباري (ص ٤١٢ ، القاهرة ١٢٩٤ هـ) ،

٢ ـ أبو منصور محمد بن علي بن اسحق بن يوسف الكاتب ، خازن دار العلم ، المتوفى سنة ٤١٨ هـ[١] (١٠٢٧ م) .

٣ ـ أبو منصور محمد بن أحمد الخازن لدار الكتب القديمة ، المتوفى سنة ٥١٠ هـ[٢] (١١١٦ م) .

٤ ـ الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الحسن الموسوي نقيب الطالبيين ، وهو صاحب « الأمالي » المعروفة به ، المتوفى ببغداد سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٤ م) كانت مراعاة دار العلم قد آلت بعد سنين كثيرة من وفاة سابور اليه[٣] .

٥ ـ أبو عبد الله بن حمد : كان مشرفاً على هذه الخزانة مع أبي منصور المذكور في الرقم ٢ . وكان أبو عبد الله بن حمد « داهية » ، فصمد لأبي منصور كيداً ومكراً ، فصار يتلهى به دائماً . فمن ذلك أنه قال له يوماً : قد هلكت الكتب وذهب معظمها ، فقال له وانزعج : بأي شيء ؟ قال : بالبراغيث وعبثهم بها ! قال : فما نفعل في ذلك ؟ قال: تقصد الأجلّ المرتضى وتطالعه بالحال وتسأله إخراج شيء من دوائهم المعد عنده لهم لننشره بين الورق ويؤمن الضرز .

= والمنتظم (٧ : ٢٧٣ ـ ٢٧٤) ، وفهرست ابن الخير الاشبيلي (ص ٣٣١ و ٣٨٧ طبع سرقسطة ١٨٩٤) ، و بغية الوعاة (ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦)وهذا المرجع الاخير ، جعل وفاة عبد السلام في سنة ٤٢٩ هـ (٩٤٠ م) ، وهو وهم ، فان تلك السنة كانت سنة ولادته . ومن أحسن المراجع الحديثة عنه : أبو العلاء وما اليه للميمني (ص١٢١ـ ١٢٦) .

(١) تاريخ بغداد للخطيب (٣ : ٩٣ ـ ٩٤) ، ورسالة الغفران (ص ٧٣) ، وأبو العلاء وما اليه للميمني (ص ١٢٦ ـ ١٣٠)

(٢) المنتظم (٩ : ١٨٩) ، ومعجم الادباء (٦ : ٣٥٩ و ٣٦٠) ، ولسان الميزان لابن حجر العسقلاني (٥ : ٣٨ طبع حيدر آباد) ، وبغية الوعاة (ص ١١) .

(٣) معجم الادباء (٦ : ٣٥٩) . وراجع ترجمته في تاريخ بغداد للخطيب (١١ : ٤٠٢ ـ ٤٠٣) ، والمنتظم (٨ : ١٢٠ ـ ١٢٦) ، ومعجم الادباء (٥ : ١٧٣ـ ١٧٩) ، ووفيات الأعيان (١ : ٤٧٨ـ ٤٨٠) ، والبداية والنهاية (١٢ : ٥٣) ، وبغية الوعاة (ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦) ، وروضات الجنات في أحوال العلماء والسادات للخوانساري (ص ٣٨٣ ـ ٣٨٨) .

فمضى إلى المرتضى وخدمه وقال له بسكون ووقار ومن طريق النصح والاحتياط : يتقدم سيدنا إلى الخازن باخراج شيء من دواء البراغيث، فقد أشرفت الكتب على الهلاك بهم لنتدارك أمرهم بتعجيل إخراج الدواء المانع لهم المبعد لضررهم . فقال المرتضى : البراغيث البراغيث ؟ مكرراً . لعن الله ابن حمد ، فأمره كله طنز وهزل ! قم أيها الشيخ مصاحباً ، ولا تسمع لابن حمد نصيحة ولا قولا »(١).

٦ ـ وممن خدم في دار العلم ، جارية ذكرها المعري في رسالة الغفران ، بقوله على لسانها : « أتدري من أنا يا علي بن منصور ؟ أنا توفيق السوداء التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد على زمان أبي منصور محمد بن علي الخازن ، وكنت أخرج الكتب إلى النساخ »(٢).

* * *

لم تعش هذه الخزانة طويلاً . بل لم يتجاوز عمرها سبعين سنة ، لأن الاحداث الجسام التي حلت ببغداد وشمثت مجدها ، كان لها أسوأ الاثر في هذه الخزانة . قال أبو الفرج بن الجوزي في جملة حوادث سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م): « احترقت بغداد ، الكرخ وغيره وبين السورين، واحترقت فيه خزانة الكتب التي وقفها أردشير(٣) الوزير ، ونهبت بعض كتبها . وجاء عميد الملك الكندري(٤) فاختار من الكتب خيرها ، وكان بها عشرة آلاف مجلد وأربعمائة مجلد من أصناف العلوم ، منها مائة مصحف بخطوط بني مقلة وكان العامة قد

---

(١) معجم الأدباء (٦ : ٣٥٩ ـ ٣٦٠) .

(٢) رسالة الغفران (ص ٧٣) .

(٣) يريد سابور بن أردشير .

(٤) وزير طغرل بك . قتل سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) . راجع : الانساب (ظهر الورقة ٤٨٨) ، والمنتظم (٨ : ٢٣٨ ـ ٢٣٩) ، ومعجم الأدباء (٥ : ١٢٤ ـ ١٢٦)، ووفيات الأعيان (٢ : ١٠٣ ـ ١٠٦) . وسيأتي بنا ذكر خزانته .

نهبوا بعضها لما وقع الحريق ، فأزالهم عميد الملك وقعد يختارها ، فنُسب ذلك إلى سوء سيرته وفساد اختياره . وشتان بين فعله وفعل نظام الملك[1] الذي عمّر المدارس ودُور العلم في بلاد الاسلام ، ووقف الكتب وغيرها »[2] .

* * *

وقد ذكر ابن الجوزي ، في كلامه على محالّ الجانب الغربي من بغداد ، ان الكرخ « جمعت منازل عجيبة بديعة البناء . ومنها درب الزعفران وفيه الدار العجيبة ، ودرب رياح ، وشارع ابن أبي عوف ، وباب محول . وكان بسور الحلاويين ، خزانة كتب فيها اثنا عشر ألف مجلد »[3] .

ولا يبعد ان تكون هذه الخزانة الجسيمة ، « دار العلم » بعينها ، وإن لم يصرح باسمها .

خزانة المدرسة النظامية ببغداد

المدرسة النظامية ، من أشهر مدارس بغداد وأجلها شأناً وأقدمها عهداً . كان الوزير نظام الملك ، المتوفى سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢ م)، قد بدأ بعمارتها سنة ٤٥٧هـ (١٠٦٤ م) ، وفرغ منها سنة ٤٥٩[4]هـ (١٠٦٦ م) . وظلت هذه المدرسة عامرةً زاهية بطلابها ومدرسيها مدى بضعة قرون ، ثم أخذ شأنها يقل رويداً

---

(١) سيأتي الكلام على « خزانة المدرسة النظامية » في هذا الكتاب .
(٢) الكامل لابن الأثير (١٠ : ٥) . وراجع خبر احراق دار العلم في المنتظم (٨ : ٢٠٥ و ٢١٦) ، ومعجم البلدان (مادة : بين السورين) ، وتواريخ آل سلجوق [زبدة النصرة ونخبة العصرة] لعماد الدين الأصفهاني واختصار البنداري (ص ١٨ طبعة هوتسما . ليدن ١٨٨٩) ، والبداية والنهاية (١٢ : ١٩) . وقد ذكر ابن الأثير في موطن آخر من تاريخه (٩ : ٢٤٦ ـ ٢٤٧) ان دار العلم احترقت سنة ٤٥٠ هـ .
(٣) مناقب بغداد (ص ٢٨) .
(٤) المنتظم (٨ : ٢٤٦) ، ووفيات الأعيان (١ : ٢٠٢) .

رويداً ، حتى تهدم بنيانها وزال أثرها زوالاً نهائياً ، وصرنا اليوم لا نهتدي إلى موقعها الحقيقي إلا بطول الجهد وبعد التحري[١].

ومما اشتملت عليه هذه المدرسة ، دار كتب حافلة بأصناف المؤلفات التي كانت تتوارد اليها بالشراء والاهداء والوقف.

فمن وقف كتبه على هذه الخزانة ، المؤرخ البغدادي الشهير محب الدين ابن النجار ، المتوفى سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) ، صاحب « ذيل تاريخ بغداد » ، وقد أشار إلى ذلك مدوّنو أخباره ، فذكر ابن كثير أن ابن النجار « وقف خزانتين من الكتب بالنظامية ، تساوي ألف دينار ، فأمضى ذلك الخليفة المستعصم »[٢].

وفي سنه ٥٩٠ هـ (١١٩٦ م) ، كاد يصيب هذه الخزانة مصيبة دهماء ، فقد ذكر ابن الأثير انه « في هذه السنة ، وقعت النار في الحظائر المجاورة للمدرسة النظامية ببغداد ، فاحترقت الأخشاب التي بها ، واتصل الحريق إلى درب السلسلة ، وتطاير الشرر إلى باب المراتب فاحترقت منه عدة دور ، واحترقت خزانة كتب النظامية وسلمت الكتب ، لأن الفقهاء لما أحسوا بالنار نقلوها »[٣].

وخبر هذه الحادثة ساقه ابن الجوزي بوجه يقرب مما ذكره ابن الأثير ، فاكتفينا بالاشارة اليه[٤].

وساق ابن الأثير ، في حوادث سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م)، خبراً نفيساً بصدد

---

(١) راجع : « المدرسة النظامية ببغداد : موقعها » للبحاثة الدكتور مصطفى جواد (المعلم الجديد ٨ [١٩٤٢] ص ١١٢ ـ ١١٩).

(٢) البداية والنهاية (١٣ : ١٦٩). وراجع : تذكرة الحفاظ للذهبي (٤ : ٢١٣ حيدرآباد ١٣٣٤ هـ) ، وفوات الوفيات (٢ : ٢٦٤) ، وشذرات الذهب (٥ : ٢٢٧).

(٣) الكامل في التاريخ (١٠ : ٣٦٦ ـ ٣٦٧)، وانظر أيضاً البداية والنهاية (١٢ : ١٧٩).

(٤) المنتظم (٩ : ١٨٤).

هذه الخزانة ، هذا نصه : « فيها ، أمر الخليفة الناصر لدين الله ، .بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ، ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها »[١].

وهذه مأثرة جليلة أسداها هذا الخليفة العظيم إلى العلم . ولنا أن نقول دون ما تردد ، إن ألوف الكتب التي أشار ابن الأثير إلى نقلها إلى خزانة النظامية، قد جيء بها من الخزانة الخاصة لهذا الخليفة . ودليلنا على ذلك ، ما ذكره القفطي في ترجمة أبي الرشيد مبشر بن أحمد الحاسب الملقب بالبرهان ، المتوفى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) قال بحقه أنه « تميّز في أيام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد وقرب منه، واعتُمد في اختيار الكتب التي وقفها بالرباط الخاتوني السلجوقي، وبالمدرسة النظامية ، وبداره المسناة[٢] . فانه أدخله إلى خزائن الكتب بالدار الخليفية وأفرده لاختيارها »[٣] .

وهذا الخبر كنا أوردناه في أثناء كلامنا على « خزانة الناصر لدين الله » ، واقتضى ايراده ثانية هاهنا لعلاقته بموضوعنا .

وقد حوت خزانة المدرسة النظامية كل طريف ونفيس من أمهات الكتب وأعلاق المخطوطات . فقد ورد في ترجمة عبد السلام بن بندار القزويني[٤] ، المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) انه « أهدى إلى نظام الملك أربعة أشياء لم يكن لأحد مثلها : غريب الحديث لابراهيم الحربي ، بخط أبي عمر بن حيويه في عشر مجلدات ، فوقفه نظام الملك بدار الكتب ببغداد . ومنها : شعر الكميت بن زيد ، بخط أبي المنصور في ثلاثة عشر مجلداً . ومنها : عهد القاضي عبد الجبار ،

---

(١) الكامل في التاريخ (١٢ : ٦٧) . وهذا الخبر ، ذكره ابن كثير (البداية والنهاية ١٣ : ٦) بقوله أن الخليفة الناصر لدين الله « جدد خزانة كتب المدرسة النظامية ببغداد ، ونقل اليها الوفاً من الكتب الحسنة المثمنة » .

(٢) الصواب : دار المسناة .

(٣) أخبار الحكماء للقفطي (ص ٢٦٩) .

(٤) سيأتي الكلام على خزانة عبدالسلام هذا ، في موطن آخر من كتابنا .

بخط الصاحب بن عباد وإنشائه ، قيل كان سبعمائة سطر ، كل سطر في ورقة سمرقندي ، وله غلاف آبنوس يطبق كالاسطوانة الغليظة . والرابع : مصحف بخط بعض الكتّاب المجوّدين بالخط الواضح، وقد كتب كاتبه اختلاف القراء بين سطوره بالحمرة ، وتفسير غريبه بالخضرة ، وإعرابه بالزرقة ، وكتب بالذهب العلامات على الآيات التي تصلح للانتزاعات في العهود والمكاتبات وآيات الوعد والوعيد وما يكتب في التعازي والتهاني »[١].

وذكر العلامة محمد محسن الشهير بآغا بزرك الطهراني ، نقلاً عن ابن طاوس ، في كلامه على كتاب «الأربعين حديثاً » في المناقب لأبي الفوارس محمد بن مسلم ، « ان أصل النسخة موجودة (كذا) في الخزانة النظامية ببغداد »[٢].

وقد علق الباحث الكبير الدكتور مصطفى جواد ، على هذا الكلام بما يأتي : « قوله (النظامية) يفيد نسبتها إلى نظام الملك الطوسي ؛ والصواب (خزانة النظامية العتيقة) أي خزانة المدرسة النظامية التي هي - أعني الخزانة - عتيقة ولا يجوز الأول ، وتعرف أيضاً بدار الكتب العتيقة »[٣].

وكان لهذه الخزانة النفيسة ، خزنة ومشرفون يتولون أمرها والنظر في شؤونها ، ولهم من مغلاّت وقوف المدرسة قسط لقاء عملهم[٤] . وقد تطرقت بعض المراجع القديمة إلى ذكر غير واحد من هؤلاء ، منهم :

١ - القاضي أبو يوسف يعقوب بن سليمان الاسفرايني[٥] ، المتوفى سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) .

٢ - يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن بسطام الشيباني

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣ : ٢٣٠) .
(٢) الذريعة الى تصانيف الشيعة (١ [النجف ١٣٥٥ هـ] ص ٤٢٧ ، الرقم ٢١٨٤) .
(٣) نظرات في الذريعة : للدكتور مصطفى جواد (البيان ١ [النجف ١٩٤٦] ص٦٢).
(٤) المنتظم (٩ : ٦٦) .
(٥) معجم الادباء (٦ : ٣٤٣) .

أبو زكريا ابن الخطيب التبريزي[١] ، المتوفى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) .

٣ ـ محمد بن أحمد الأبيوردي[٢] ، المتوفى سنة ٥٠٧ هـ (١١١٣ م) وهو صاحب « ديوان » الشعر المعروف باسمه .

٤ ـ علي بن أحمد ، وقيل: علي بن عمر بن أحمد بن عبد الباقي بن بكري[٣] المتوفى سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) .

٥ ـ عبد القادر بن داود بن أبي نصر الواسطي ، المعروف بالمحب[٤] ، المتوفى سنة ٦١٩ هـ[٥] (١٢٢٢ م) .

٦ ـ أكرم الدين أبو سهيل، خازن دار الكتب النظامية[٦]، ولم تقف على سنة وفاته .

وممن وقفنا على ذكرهم من المشرفين :

١ ـ أبو جعفر عمر بن أبي بكر بن عبيد الله الدباس : قال ابن الساعي أنه « أقام مشرفاً بدار الكتب العتيقة بالمدرسة النظامية ، إلى أن توفي ثامن جمادى الآخرة من سنة إحدى وستمائة »[٧] (١٢٠٤ م) .

فقوله « دار الكتب العتيقة بالمدرسة النظامية » ، يشير إلى خزانة الكتب الأصلية للنظامية ، لا إلى « خزانة الكتب » التي أنشأها في النظامية ، الخليفة الناصر لدين الله .

٢ ـ عمر بن عبد الله بن أبي السعادات : قال ابن الدبيثي انه تولى إشراف

---

(١) معجم الأدباء (٧ : ٢٨٦ ـ ٢٨٧) ، وبغية الوعاة (ص ٤١٤) .
(٢) معجم الادباء (٦ : ٣٤٣) .
(٣) معجم الادباء (٥ : ١٠٤ ـ ١٠٥) ، وبغية الوعاة (ص ٣٢٦) .
(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٣ : ٣٨٢) .
(٥) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٥ : ١١٩) .
(٦) بدائع البدائه لابن ظافر الازدي (ص ٢٢٣ ، بولاق ١٢٧٨ هـ) .
(٧) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير لابن الساعي (٩ : ١٦٠ بتحقيق الدكتور مصطفى جواد، بغداد ١٩٣٤) . وانظر ترجمته في بغية الوعاة (ص٣٦١).

دار الكتب بالمدرسة النظامية[١] .

ومما شرطه نظام الملك في من يتولى كتب هذه المدرسة : أن يكون شافعياً، وكذلك المدرس والواعظ الذي يعظ بها[٢] .

وذكر هندوشاه النخجواني ، في كلامه على نصير الدين بن مهدي ، المتوفى سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ، وقد تولى النقابة والوزارة في أيام الناصر لدين الله ، خبراً نفيساً يتعلق بهذه الخزانة وما كان يتناوله خازنها في كل شهر ، قال ان ابن مهدي « دعا مدرس النظامية وناظرها فقال له : فلان العلوي ، أريد أن أجعله خازناً لدار الكتب الناصرية ، وأجعل له راتباً شهرياً قدره خمسة دنانير ، وقد عينته في هذه الوظيفة . فقال المدرس : أيها العلامة ، إن خازن دار الكتب الناصرية ، حسب نص الواقف ، لا راتب له . أما خازن دار الكتب القديمة ، فباني المدرسة وضع له راتباً شهرياً قدره عشرة دنانير ، ولكن لا يصل لهذا الخازن إلا ثلاث دنانير . فقال الوزير فوراً : عينت هذا العلوي خازناً لدار الكتب النظامية ، أما الخازن الحالي فقد جعلته نائباً له ، وبذلك لم نخالف روح الوقفية ، فتعطى سبعة دنانير للعلوي الذي عيناه ، وتعطى ثلاث دنانير للنائب ، وهو علوي مثله . فيكون ذلك على حسب شرط الواقف للاوقاف النظامية ، فتصبح ثلاثة دنانير لخازن الخزانة الناصرية . فعجب الناس من سرعة الجواب وهذا الحل، فعين راتباً للعلوي الذي أراده ولم يغير شرط الواقف»[٣].

وقد بلغت مجلدات هذه الخزانة في أيام ابن الجوزي ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) ، جملة آلاف . قال في هذا الصدد « ... ولقد نظرت في ثبت

---

(١) نظرات في الذريعة للدكتور مصطفى جواد (البيان ١ : ٦٢) .
(٢) المنتظم (٩ : ٦٦) .
(٣) تجارب السلف (بالفارسية) لهندوشاه (ص ٣٣٤ طبعة عباس اقبال . طهران ١٩٣٤) . وقد تفضل صديقنا الاستاذ عبد الحميد الدجيلي ، بنقل هذا النص الى العربية . فله أوفر الشكر .

الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية ، فاذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد »[١].

ان هذه الخزانة الحافلة التي ازدانت بها المدرسة النظامية ، قد تشتت شملها وتبعثرت كتبها بتوالي الأحداث عليها . فلسنا نجد اليوم في خزائن الكتب المفهرسة ، شيئاً من بقايا كتب هذه الخزانة المندثرة .

خزانة الكتب في مشهد أبي حنيفة

ما زال هذا المعهد باقياً إلى يومنا هذا ، في « الاعظمية » على نحو من ثلاثة أميال من شمالي بغداد . وكان يتصل بهذا المشهد مدرسة جليلة الشأن ، هي أول مدرسة فُتحت في العراق في العصر الاسلامي . وقد عرفت بمدرسة الامام أبي حنيفة . بناها شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور العميد الخوارزمي، مستوفي المملكة للسلطان ألب أرسلان السلجوقي . وقد فُتحت سنة ٤٥٩ هـ[٢] (١٠٦٦ م) .

وكان في هذه المدرسة خزانة كتب نفيسة موقوفة على طلبة العلم ، لها من يتعهد كتبها ويعتني بأمر خزنها . فمن خزنتها : ابن الأهوازي ، المتوفى سنة ٥٦٩ هـ[٣] (١١٧٣ م) ، وعبد العزيز بن علي بن أبي سعيد الخوارزمي ، المتوفى بعد سنة ٥٦٨ هـ[٤] .

وفي التوقيع الذي كتب سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) لضياء الدين أبي الفضل أحمد بن مسعود التركستاني الحنفي ، نص صريح على ما نيط به من أمر خزانة هذه المدرسة بالاضافة الى التدريس. وقد أورد هذا التوقيع بكماله ، ابن الساعي

---

(١) صيد الخاطر (ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧) .
(٢) راجع : « أول مدرسة في العراق : مدرسة الامام أبي حنيفة» للدكتور مصطفى جواد (المعلم الجديد ٦ [١٩٤٠] ص ٣٣ ـ ٤٤ ، المراجعة ص ٣٨) .
(٣) المنتظم (١٠ : ٢٤٨) .
(٤) المعلم الجديد (٦ : ٤٢) .

المؤرخ البغدادي. ونحن نقتطف منه هاهنا ، ما يخص الخزانة دون غيرها، قال:

« ... وليثبت[١] ما بخزانة الكتب من المجلدات وغيرها ، معارضاً ذلك بفهرسته ، متطلباً ما عساه قد شذّ منها . وليأمر خازنها بعد استصلاحه بمراعاتها ونفضها في كل وقت ، ومرمة شعثها ، وأن لا يُخرج شيئاً منها إلا إلى ذي أمانة ، مستظهراً بالرهن عن ذلك »[٢].

وكفى بهذا الشرط دليلاً على العناية بسلامة كتب هذه الخزانة والمحافظة عليها . ولكن هذا الأمر لم يدم ، لأن تلك الكتب قد تبعثرت وتشتت شملها بمرور السنين ، حتى لم يبق منها اليوم شيء يذكر .

أما في القديم ، فكانت تزخر بأمهات الكتب . من ذلك « تفسير » كبير القرآن غاية الكبر ، لأبي يوسف عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار القزويني ، المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) فإنه وقفه على طلاب العلم بمدرسة أبي حنيفة ، وهو في سبعمائة[٣] مجلدة ، وقيل في أربعمائة[٤] ، وقيل في ثلثمائة[٥] .

وقد كانت هـــذه الخزانة في زمن أبي الفرج بن الجوزي ، المتوفى سنة

---

(١) أي يكتب أسماء المجلدات في ثبت . وقد مر بنا شرح هذه اللفظة .

(٢) الجـــامع المختصر (٩ : ٢٣٦) . وراجع المعلم الجديد (٦ : ٤٢) . وما نقلناه أعلاه من هذا التوقيع ، يذكرنا بما ورد في وقفية دار الحديث الأشرفية بدمشق . فقد قال الواقف في هذا الصدد : « ... ويصرف الى خازن الكتب ثمانية عشر درهماً في كل شهر. وعليه الاهتمام بترميم الكتب واعلام الناظر أو نائبه ليصرف من مغل الوقف ما يفي بذلك، وكذا اذا مست الحاجة الى تصحيح كتاب أو مقابلته». (انظر : اللمعات البرقية في النكت التاريخية لمحمد بن طولون . ص ٢٢ ، دمشق ١٣٤٨ هـ) .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣ : ٢٣٠) .

(٤) المعلم الجديد (٦ : ٤١) .

(٥) الجواهر المضية في طبقات الحنفية لمحيي الدين القرشي (١ : ٣١٦ ، حيدرآباد ١٣٣٢ هـ) ، وشذرات الذهب (٣ : ٣٨٥) .

٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) ، حافلة بالكتب الكثيرة . ولها ثبت وقف عليه وعلى غيره من أثبات الخزائن الأخرى(١).

وكان في جملة ما اشتملت عليه هذه الخزانة ، أكثر مؤلفات الجاحظ . ولا يخفى أن الجاحظ كان أحد المكثرين من التأليف المجيدين له . فقد بلغت مصنفاته زهاء ثلاثمائة وستين كتاباً ورسالة في ألوان شتى من المعرفة. وقد وقف سبط ابن الجوزي ، المتوفى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) على أكثر هذه الأسفار في خزانة مشهد أبي حنيفة(٢) .

وذكر الحاج خليفة ، المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ (١٦٥٦ م) ، انه وقف في خزانة كتب هذا المشهد ، على نسخة من « الكشاف عن حقائق التنزيل » للزمخشري ، بخط مؤلفها (٣) ، وليس من أثر لهذه النسخة في يومنا هذا ، على قرب عهد الحاج خليفة من زمننا .

وقد روى غير واحد من المؤرخين، ان ابن جزلة الطبيب البغدادي المشهور المتوفى سنه ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م) ، « لما مرض مرض موته ، وقف كتبه لمشهد الامام أبي حنيفة »(٤).

* * *

---

(١) صيد الخاطر (ص ٣٦٧) .

(٢) الحيوان للجاحظ (المجلد الأول ، ص ٥ ـ ٦ من مقدمة محققه الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٣٥٧ هـ) وفيه نقل الخبر عن « مرآة الزمان » لسبط ابن الجوزي (النسخة المصورة بدار الكتب المصرية ، الورقة ٥٨ من المجلد الثالث من الجزء العاشر) . وانظر : « التاج » المنسوب للجاحظ (ص ٣٧ من مقدمة ناشره أحمد زكي باشا ، القاهرة ١٩٠٤) .

(٣) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للحاج خليفة (٢ : ١٤٨٢ طبعة وزارة المعارف التركية ، سنة ١٩٤٣) .

(٤) تاريخ مختصر الدول (ص ٣٣٩) ، ووفيات الاعيان (٢ : ٣٨٨)، وأخبار الحكماء للقفطي (ص ٣٦٦) ، والمنتظم (٩ : ١١٩) ، ومرآة الزمان (في حوادث سنة ٤٩٣ هـ) .

أما الخزانة التي ترى اليوم في المشهد ، فهي موضوعة في حجرة من كلية الشريعة . وفيها جملة من الكتب المطبوعة والمخطوطة ، وهذا القسم الأخير يغلب عليه الحداثة . وقد نُقل شيء من كتبها المخطوطة ، وهو زهاء مائة وأربعين كتاباً[1] ، إلى خزانة الأوقاف العامة ببغداد . وأغلب هذا المنقول لا طائل تحته .

خزانة كتب الوقف بمسجد الزيدي[2]

كان هذا المسجد بدرب دينار الصغير ، في الجانب الشرقي من بغداد ، ولعل « الجامع القبلاني » القائم اليوم بُني في مكانه .

وخزانة هذا المسجد ، وقفها الشريف الزيدي، وهو أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الزيدي ، المولود ببغداد سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) ، المتوفى فيها سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) . كان الزيدي أحد الأفراد الأعلام الذين جمعوا بين علو النسب وحسن العلم والميل إلى الزهد .

وأظهر ما خلد ذكره وأبقى اسمه على مر الزمان ، هو إنشاؤه خزانة الكتب[3] التي نحن بصدد الكلام عليها . « وقصة تأسيسه لها ، أن عضد الدين محمد بن رئيس الرؤساء ، وكان وزيراً للخليفة المستضيء بأمر الله ، عُزل عن الوزارة مرة ، ثم أعيد إليها . فكتب إلى الخليفة المذكور رقعةً يقول فيها : اني نذرت

---

(١) راجع بحثنا « أقدم المخطوطات في خزانة الأوقاف العامة ببغداد » (سومر ٣ [١٩٤٧] ص ٢٣٨) .

(٢) راجع في هذا الموضوع ، بحثاً نفيساً للدكتور مصطفى جواد ، عنوانه « الاخاء في الثقافة ووقف الكتب » : (مجلة « الحضارة » ٣ [بغداد ١٩٤٤ ــ ٤٥] ، العدد ٣٣ ، ص ٧ ــ ٨ والعدد ٣٤ ص ٧ــ٩) .

(٣) ذكر ياقوت هذه الخزانة في مادة « أرعنز » من معجم البلدان ، بقوله في أحمد بن أحمد بن أحمد أبي العباس انه « سمع ببغداد مع أبي الحسن علي بن أحمد العلوي الزيدي صاحب وقف الكتب بدار دينار ببغداد . . . » .

إن عدت إلى الوزارة، بعثت إلى الشريف الزيدي بألف دينار ». فأرسل الخليفة إليه يقول : « وأنا أيضاً أحمل إليه ألف دينار » . فحملت الدنانير الألفان اليه . فلم يتصرف بها، بل اشترى داراً بدرب دينار الصغير، وبناها مسجداً ، واشترى بالباقي كتباً ووقفها في المسجد لينتفع الناس بها . قال سبط ابن الجوزي : وهي باقية إلى هلم جراً[1] (سنة ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦م) . وقال ابن الدبيثي: « ووقف الزيدي كتبه قبل موته على المسلمين كافة ، وجعلها في موضع بمسجده الذي كان يؤم فيه الناس في أوقات الصلوات ، بدار دينار الصغير بسوق الثلاثاء من شرقي بغداد، وشركه رفيقه صبيح بن عبدالله عتيق نصر بن العطار في وقفه لها أيضاً، وكانت كثيرة ، انتفع الناس بها »[2].

فالشريف الزيدي ، منشىء خزانة الوقف هذه ، لم ينفرد بهذه المأثرة الجليلة ، بل شاركه فيها اثنان سارا سيرته واقتفيا خطواته في هذا المضمار :

أولهما : أبو الخير صبيح بن عبد الله الحبشي ، المتوفى ببغداد سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) . كتب خطاً حسناً ، وسمع كثيراً من الحديث النبوي ، وشارك الشريف الزيدي في وقف الكتب الكثيرة بدار دينار من سوق الثلاثاء . وكان صبيح يتولى خزنها وإعارتها طلاب العلم إلى حين وفاته[3] .

وثانيهما : أبو الخطاب العليمي ، وهو عمر بن محمد بن عبدالله الدمشقي ، المولود سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) . كان أحد التجار الذين ضربوا في الآفاق للتجارة وطلب الحديث النبوي . وقدم بغداد سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣ م) ، وصارت له صحبة مع الشريف الزيدي . ثم رجع إلى دمشق مسقط رأسه ، وتوفي بها سنة ٥٧٤هـ (١١٨٧ م) . قال ابن النجار : «سمعت أبا الفضل عبدالله

---

(١) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (٨ : ٢٢٧ ، شيكاغو ١٩٠٧) .
(٢) مجلة الحضارة (العدد ٣٣ ص ٨) .
(٣) مجلة الحضارة (العدد ٣٤ ص ٧) .

محمد بن عبد الله العليمي[1] يقول : لما كان أخي ببغداد يسمع الحديث ، عاهد الشريف أبا الحسن الزيدي وصبيحاً النصري أن يوقف كتبه وأجزاءه ويرسلها إلى بغداد لتكون في خزانتها ببغداد . فلما مرض مرض الموت أوصى إليّ بذلك . فلما توفي أنفذتها إلى بغداد إلى مسجد الشريف الزيدي. قال مجد الدين : وصلت الكتب إلى بغداد بعد وفاة الزيدي ، فتسلمها صبيح ، وهي الآن (٦٤٣ هـ = ١٢٤٥ م) في خزانة الزيدي ، رحمة الله عليهم جميعاً »[2].

فهذا الوقف العجيب الذي تضافر عليه ثلاثة من أفاضل عصرهم وتآزروا على إنشائه والسير به بنيّـة صادقة ووفاق تام ، قد حمل بعض العلماء الآخرين على الاقتداء بهم ومشاركتهم في هذا الفضل العميم . منهم ياقوت الحموي المؤرخ البلداني الأديب ، المتوفى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) ، فذكر ابن خلكان انه « كان قد وقف كتبه على مسجد الزيدي الذي بدرب دينار ببغداد، وسلّمها إلى الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن الأثير صاحب التاريخ الكبير ، فحملها إلى هناك »[3] .

وكانت خزانة كتب ياقوت الحموي ، فيما نحسب ، من أنفس الخزائن وأحفلها بالكتب الثمينة . ولا غرو أن يكون هذا العالم المؤلف الرحالة، الذي اتخذ الاتجار بالكتب حرفة له ، قد جمع لنفسه ، وللناس من بعده ، كل ما نفُس وطاب من التصانيف المختلفة . ولو ان خزانته لم تكن تشتمل إلا على مجموعة تآليفه ، لكفاها فخراً واعتزازاً بذلك ، فكيف وقد جمعت إلى ذلك أمهات الأسفار وذخائر الأعلاق التي أشار إلى بعضها كقوله انه ابتاع جزءاً من كتاب الحيوان للجاحظ[4] ، وغير ذلك .

---

(١) هو أخو عمر المذكور .
(٢) مجلة الحضارة (العدد ٣٤ ص ٧) .
(٣) وفيات الأعيان (٢ : ٣١٨) . وانظر أيضاً شذرات الذهب (٥ : ١٢٢) .
(٤) معجم البلدان (٤ : ٤٤٨ ، آخر مادة « المدائن ») .

فهذه الخزائن المختلفة ، قد اجتمعت في صعيد واحد ، وحصل من اجتماعها خزانة كتب كبيرة أفاد منها الناس فوائد كثيرة ، ولبثت منهلاً عذباً لطلاب العلم مدة مديدة . فقد ذكر ابن عنبة[1] هذه الخزانة . مما يؤخذ منه انها كانت لم تزل حافلة في زمانه ، أي في المائة الثامنة وأوائل المائة التاسعة للهجرة[2].

ولكن كتبها تبعثرت فيما بعد ذلك وضاع أغلبها . فأشار العلامة السيد محمود شكري الآلوسي في عرض كلامه على « الجامع القبلاني » الحالي : «... وفي هذا المسجد مدرسة وخزانة كتب ... وليس فيها الكتب التي كانت موقوفة عليها ، فقد لعبت بها أيدي السراق حتى لم تبق فيها شيئاً مذكوراً ... »[3].

خزانة الرباط الخاتوني السلجوقي

هذه الخزانة ، وقفها الخليفة الامام الناصر لدين الله العباسي ، الذي دامت خلافته من سنة ٥٧٥ إلى ٦٢٢ للهجرة (١١٨٠ - ١٢٢٥ م) ، في تربة زوجته سلجوقة خاتون ، بباب البصرة من الجانب الغربي في بغداد ، وكانت قد توفيت سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) . قال ابن الأثير في أحداث تلك السنة : « فيها ، توفيت سلجوقة خاتون ، بنت قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان ، زوجة الخليفة . وكانت قبله زوجة نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن[4] . فلما توفي عنها تزوجها الخليفة . ووجد الخليفة عليها وجداً عظيماً ظهر للناس كلهم[5] وبنى على قبرها تربة بالجانب الغربي ، وإلى جانب التربة رباطه

---

(١) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب (مخطوط بدار الكتب الوطنية بباريس . الرقم ٢٠٢١ الورقة ١٨٢) .

(٢) مجلة الحضارة (العدد ٣٤ ص ٨) .

(٣) تاريخ مساجد بغداد وآثارها للسيد محمود شكري الآلوسي (ص٥٨، بغداد ١٣٤٦هـ).

(٤) يريد به ، حصن كيفا .

(٥) رثاها الشاعر سبط ابن التعاويذي بقصيدة رائية . (راجع ديوانه ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ طبعة مرجليوث ، القاهرة ١٩٠٣) . وقد سميت هناك « سلجوكي » بالكاف .

المشهور بالرملة »[١] .

وذكر القفطي[٢] ، ان الناصر اختار كتب هذه الخزانة ، من خزائنه بالدار الخليفية ، وانه اعتمد في اختيارها على أبي الرشيد مبشر بن أحمد الحاسب الملقب بالبرهان ، المتوفى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ، وقد مرت الاشـارة إلى ذلك غير مرة في هذا الكتاب .

ومن خزنة كتب هذه الخزانة ، أبو محمد عبد العزيز بن دُلف بن أبي طالب أبو محمد البغدادي المعروف بالخازن والناسخ ، المتوفى سنة ٦٣٧ هـ[٣] (١٢٣٩ م) .

وقد أشار ياقوت الحموي ، في ترجمة علي بن فضال القيرواني ، المتوفى سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) إلى أن له « كتاب الدول في التاريخ » وهو كتاب عظيم الحجم ، كان منه نسخة في خزانة هذا الرباط ، وقف عليها ياقوت فقال : « رأيت في الوقف السلجوقي ببغداد منه ثلاثين مجلداً ، ويعوزه شيء آخر »[٤] .

وفي سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) ، توفي نجاح[٥] بن عبد الله الملقب نجم الدولة ، شرابي الخليفة الناصر لدين الله . ذكر سبط ابن الجوزي انه « كانت له خمسمائة مجلدة ، فأوقفها في تربة أم الخليفة وكُتب عليها اسم الشرابي »[٦] .

وللاستاذ البحاثة الدكتور مصطفى جواد ، إشارة نفيسة بصدد رباط

---

(١) الكامل في التاريخ (١٢ : ١٦) . والرملة على ما قال ياقوت الحموي (المشترك وضعاً والمفترق صقعاً . ص ٢١٠ طبعة وستنفلد ، غوتنجن ١٨٤٦) : «محلة كانت ببغداد في مشرعة الكرخ الى دجلة ، ثم خربت ، وهي في الجانب الغربي » . وقد ذكرها ابن عبد الحق في مراصد الاطلاع (٢ : ٤٣٤ في مادة « قطيعة عيسى ») .

(٢) أخبار الحكماء للقفطي (ص ٢٦٩) .

(٣) راجع مقالتنا « المدرسة المستنصرية ببغداد » (سومر ١ [١٩٤٥] الجزء الأول . ص ٩٩ ـ ١٠٠) .

(٤) معجم الأدباء (٥ : ٢٩٠) .

(٥) في النسخة المطبوعة : لجاح . والقراءة أعلاه للدكتور مصطفى جواد .

(٦) مرآة الزمان (٨ : ٣٩٤ ـ ٣٩٥) .

سلجوقة خاتون ، قال فيها انه كان « على دجلة ، بالجانب الغربي من بغداد ، قرب الموضع المعروف اليوم بخضر الياس . وقد هوّرت دجلة قبرها ودار كتبها وآثارها ، بعد أن رآها نيبهر الرحالة الدانمركي قبل قرن ونصف ، وشهدها المعمرون من أهل القرن التاسع عشر »[١].

خزانة كتب الرباط بالحريم الطاهري ببغداد

ليس لدينا من الأنباء عن هذه الخزانة ، أكثر مما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) بقوله ان « في ربيع الأول ، فُرغ من عمارة الرباط الذي أمر بانشائه الخليفة (الناصر لدين الله) أيضاً بالحريم الطاهري غربي بغداد على دجلة ، وهو من أحسن الربط ، ونقل اليه كتباً كثيرة من أحسن الكتب »[٢].

دار الكتب التي برباط المأمونية ببغداد

كان هذا الرباط في « المأمونية » ، إحدى محلات بغداد العتيقة[٣] . ولسنا نعلم من أمر دار الكتب فيه سوى إشارات خفيفة أوردها بعض الكتبة المؤرخين ، من ذلك ما نقله ياقوت الحموي في ترجمة ابن الدهان الضرير الواسطي المعروف بالوجيه ، المتوفى سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) فقد قال[٤] : « وحدثني محب الدين محمد بن النجار، قال : حضر الوجيه النحوي بدار الكتب التي برباط

---

(١) دور العلم العراقية في العصور العباسية (مجلة « عالم الغد » . العدد ٩ ص ١٤) .
(٢) الكامل في التاريخ (١٢ : ٦٧ ـ ٦٨) .
(٣) معجم البلدان (٤ : ٣٩٨) . ويقول البحاثة الدكتور مصطفى جواد (سومر ٢ [١٩٤٦] ص ٦٩) انها « كانت في أرض محلة عقد القشل والهيتاويين وصبابيغ الآل الى الصدرية » .
(٤) أوردنا هذه الحكاية في كلامنا على « غسل الكتابة والكتب » (أنظر الصفحة ٣٨ من هذا الكتاب) . وقد أعدنا نقلها هاهنا لمقتضى سياق البحث .

المأمونية ، وخازنها يومئذٍ أبو المعالي أحمد بن هبة الله . فجرى حديث المعري، فذمه الخازن وقال : كان عندي في الخزانة كتاب من تصانيفه فغسلته . فقال له الوجيه : وأي شيء كان هذا الكتاب ؟ قال : كان كتاب نقض القرآن[١] . فقال له : أخطأت في غسله . فعجب الجماعة منه وتغامزوا عليه ، واستشاط ابن هبة الله وقال له : مثلك ينهى عن مثل هذا ؟ قال : نعم ! لا يخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن أو خيراً منه أو دونه . فان كان مثله أو خيراً منه ، وحاش لله أن يكون ذلك ، فلا يجب أن يفرط في مثله ، وإن كان دونه، وذلك ما لا شك فيه ، فتركه معجزة للقرآن ، فلا يجب التفريط فيه . فاستحسن الجماعة قوله ، ووافقه ابن هبة الله على الحق وسكت »[٢].

ومما قرأناه[٣] بصدد خزانة هذا الرباط انه « كان فيها كتاب الفنون لابن عقيل الحنبلي . ذكر الذهبي انه ٤٩٠ مجلداً . وقال سبط ابن الجوزي : « هو مائتا مجلدة، جمعه طول عمره . واختصر منه جدّي عشر مجلدات فرّقها في تصانيفه وقد طالعت منه في بغداد ، في وقف المأمونية ، نحواً من سبعين . وفيه حكايات ومناظرات وغرائب وعجائب وأشعار »[٤].

---

(١) يريد به كتاب « الفصول والغايات في معارضة السور والآيات » . وقد طبع بعضه في القاهرة .

(٢) معجم الأدباء (٦ : ٢٣٥) .

(٣) سومر (٢ : ٦٩ ـ ٧٠ الحاشية ٨٩ من مقال « عمارات القرن السادس الفخمة في الجانب الشرقي من بغداد ، خارج دار الخلافة » للدكتور مصطفى جواد .

(٤) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (٨ : ٥١ طبعة جويت في شيكاغو سنة ١٩٠٧) .

خزانة مشهد عبيد الله بن علي في المذار

المذار على ما ذكره ياقوت ، « بلدة في ميسان ، بين واسط والبصرة ، وهي قصبة ميسان ، بينها و بين البصرة مقدار أربعة أيام. و بها مشهد عامر كبير جليل عظيم ، قد أنفق على عمارته الأموال الجليلة ، وعليه الوقوف و تساق اليه النذور. وهو قبر عبد الله[1] بن علي بن أبي طالب »[2] .

وما زال هذا الموضع قائماً يزار إلى يومنا هـــذا ، ويعرف بمزار الامام عبد الله بن علي بن أبي طالب[3] .

أما خرائب « المذار » ، فانها بالقرب من هذا المشهد . و يرى موضعها ، في الخريطة التي ألحقها لسترنج بكتاب ابن سرابيون[4] . وفي الخرائط الحديثة ، يرى اسم هذا المشهد على مقربة من ضفة دجلة اليسرى ، في الجنوب الشرقي من قلعة صالح .

وكان في هذا المشهد ، خزانة كتب تضمّ طرائف خطية ، من ذلك مصحف مكتوب بالخط الكوفي ، رآه ابن عنبة العلوي (المتوفى سنة ٨٢٨هـ - ١٤٢٤م) وذكره بقوله : « وقد رأيت أنا مصحفاً بالمذار ، في مشهد عبيد الله بن علي ،

---

(١) هكذا ورد في معجم البلدان ، وهكذا هو يسمى اليوم . والصواب انه « عبيد الله »، على ما ذكره صاحب عمدة الطالب وغيره من المؤلفين الأثبات . فان « عبد الله » قتل في وقعة الطف . « وأما عبيد الله بن النهشلية ، فلم يحضر الطف ، وجاء الى المختار يطلب الرفد فلم يصله ، فالتحق بمصعب وجاء معه . فلما وصل المذار من سواد البصرة، وجد في فسطاطه مذبوحاً ولم يعلم قاتله » . راجع كتاب « العباس بن الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) » لعبد الرزاق الموســوي المقرم (ص ٥٩ طبع النجف) .

(٢) معجم البلدان (مادة : المذار) .

(٣) العراق قديماً وحديثاً : لعبد الرزاق الحسني (ص ١٦٦ ، صيدا ١٩٤٨) .

(٤) LE STRANGE (G.), DESCRIPTION OF MESOPOTAMIA AND BAGHDAD BY IBN SERAPION. (LONDON, 1895).

بخط أمير المؤمنين عليه السلام، في مجلد واحد، وفي آخره بعد تمام كتابة القرآن المجيد : (بسم الله الرحمن الرحيم . كتبه علي بن ابي طالب) ... واتصل بي بعد ذلك ، ان مشهد عبيد الله احترق ، واحترق المصحف الذي فيه »[1] .

خزانة جامع قمرية ببغداد

مازال جامع قُمرية ، قائماً الى اليوم ببغداد ، في الضفة الغربية من دجلة ، يقابله « السراي » في الضفة الشرقية .

وقد كان في هذا الجامع خزانة كتب في المائة السابعة للهجرة، على ماذكره ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) بقوله : « في شعبان ، تكامل بناء المسجد المستجد المعروف بقمرية[2]، بالجانب الغربي على شاطىء دجلة المقابل للرباط البسطامي ، ونقل اليه الفرش والآلات وقناديل الذهب والفضة والشموع وغير ذلك. وفتح في شهر رمضان ، ورتب فيه مصلياً الشيخ عبد الصمد ابن أحمد بن أبي الجيش ، وأثبت فيه ثلاثون صبياً يتلقنون القرآن عليه ، ورتب فيه معيد يحفظهم التلاقين، ورتب أيضاً فيه الشيخ حسن بن الزبيدي محدثاً يقرأ عليه الحديث النبوي في كل يوم اثنين وخميس ، ورتب أيضاً قارىء للحديث . وجعل في المسجد خزانة للكتب وحُمل اليها كتب كثيرة »[3] .

---

(١) عمدة الطالب (ص ٥) .

(٢) وردت هذه التسمية في بعض المراجع مقرونة بأل التعريف ، وفي بعضها من دونه . راجع في هذا الشأن ما كتبه يعقوب سركيس في لغة العرب (٩ [١٩٣١] ص ١١٦ ـ ١١٧) . ومصطفى جواد (لغة العرب ٩ : ٢٩٦) .

(٣) الحوادث الجامعة (ص ٤) .

خزانة المدرسة المستنصرية ببغداد

المدرسة المستنصرية التي شيدها الخليفة العباسي المستنصر بالله ، سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م)، في الجانب الشرقي من بغداد، من أشهر المباني العباسية التي ما زالت بقاياها قائمة على ضفة دجلة اليسرى الى يومنا هذا . ولهذه المدرسة شهرة تاريخية واسعة ، بكونها من اعظم مراكز العلم في بغداد خلال نحو مائتي سنة . ثم أخذ أمرها في الاضمحلال حتى انتهت الى ما هي عليه اليوم . ولقد افردنا لهذه المدرسة بحثاً خاصاً جمعنا فيه من الأخبار والأنباء والأوصاف ، ما يكشف عن كثير من ماضيها ، وما يفصح عن قيمتها الأثرية والفنية[1] .

كان في هذه المدرسة ، خزانة كتب حافلة بأنواع المصنفات وأمهات الأسفار . وقد أشار بعض المؤرخين ، إلى أن المستنصر بالله ، بعد أن فرغ من بناء مدرسته ، « نقل إليها في هذا اليوم (أي يوم افتتاحها) من الربعات[2] الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ما حمله مائة وستون حمالا[3] ، وجعلت في خزانة الكتب . وتقدم إلى الشيخ عبد العزيز (ابن دلف الخازن) ، شيخ رباط الحريم ، بالحضور بالمدرسة وإثبات الكتب واعتبارها[4]، وإلى ولده العدل ضياء الدين أحمد ، الخازن بخزانة كتب الخليفة التي في داره

---

(١) أنظر بحثنا « المدرسة المستنصرية ببغداد » ، المنشور في مجلة سومر (١ [١٩٤٥] الجزء الأول) ص ٧٦ ــ ١٣٠) . وقد نشر على حدة (مطبعة التفيض الأهلية ــ بغداد ١٩٤٥ ، ٥٦ ص) .

(٢) الربعات ، واحدتها الربعة . وقد مر ذكرها في الصفحة ١٤ و ١٢١ من هــذا الكتاب . وهي على ما في تاج العروس (٥ : ٣٤٣) بمعنى صندوق فيه أجزاء المصحف الكريم ، وهي مولدة لا تعرفها العرب ، بل هي اصطلاح أهل بغداد .

(٣) في تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص ٣٠٦ ، القاهرة ١٣٥١ هـ) ، ان ما نقل الى خزانة المستنصرية « مائة وستون حملاً من الكتب النفيسة » .

(٤) أوضحنا معنى « انبات » الكتب «واعتبارها» في الصفحة ١٢٢ الحاشية ١ من هذا الكتاب) .

أيضاً ، فحضر واعتبرها ورتبها أحسن ترتيب ، مفصلاً لفنونها ، ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها »(١) .

وفي تاريخ ابن كثير تلميح إلى هذه الخزانة ، فقد قال ان المستنصر « وقف فيها كتباً نفيسة ليس في الدنيا لها نظير »(٢).

فهذه الكتب الكثيرة التي جيء بها في ذلك اليوم المشهود ، إنما نُقلت من خزانة المستنصر الخاصة ، فما أعظمها هبةً !

وأما عدد مجلدات هذه الخزانة الجليلة القدر ، فقد نقل ابن عنبة العلوي ، ان المستنصر « أودع خزانته في المستنصرية ثمانين ألف مجلد »، ثم زاد على ذلك قوله « والظاهر أنه لم يبق منها شيء ، والله الباقي »(٣).

فيكون زوال هذه الخزانة ، قد حصل قبل زمان ابن عنبة المذكور ، الذي توفي سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٤ م) !

وفي رواية عبد الرحمن الاربلي ، نقلاً عن تاريخ ابن الساعي في بني العباس ان المستنصر « جعل فيها (أي في المستنصرية) خزانة كتب ، ونقل اليها من الربعات الشريفة والأصول ، سوى ما نقل اليها بعد ذلك »(٤).

فيؤخذ من هذا الكلام ، ان كتب الخزانة كانت في تزايد وتكاثر من بعد افتتاح المدرسة .

ولقد كان في هذه الخزانة ، غير واحدٍ من الموظفين الذين يعنون بأمورها . وهم في الجملة على ثلاثة أصناف :

---

(١) الحوادث الجامعة (ص ٥٤) .

(٢) البداية والنهاية (١٣ : ١٥٩) .

(٣) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب لابن عنبة (ص ١٩٥ ، طبعة النجف ١٣٥٨ هـ) .

(٤) خلاصة الذهب المسبوك لعبد الرحمن الاربلي (ص ٢١٢ ، بيروت ١٨٨٥) .

أولاً : الخازن .

ثانياً : المشرف .

ثالثاً : المناول .

هذا إلى بواب وفراشين ، عليهم حراستها وتنظيفها .

ومما شرطه المستنصر لمدرسته ، « أن يكون لخازن الكتب في كل يوم عشرة أرطال خبزاً وأربعة لحماً ، وفي كل شهر عشرة دنانير .

« وأن يكون للمشرف على هذا الخازن في كل يوم خمسة أرطال خبزاً ورطلان لحماً ، وفي كل شهر ثلاثة دنانير .

« وأن يكون للمناول في هذه الخزانة في كل يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طبيخاً ، وفي كل شهر ديناران »[1] .

وقد وقفنا على تراجم أو أخبار طائفة من هؤلاء الخزنة والمشرفين عليها والمناولين فيها . وسنذكرهم في ما يلي بحسب تسلسل وفياتهم . فمن الخزنة :

١ ـ الشيخ عبد العزيز بن دلف بن أبي طالب أبو محمد البغدادي الناسخ[2] المتوفى سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) . وهو في طليعة المشتغلين بهذه الخزانة .

٢ ـ العدل ضياء الدين أحمد[3] ابن الشيخ عبدالعزيز المتقدم ذكره . وقد توفي سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) .

٣ ـ الشمس علي بن الكتبي[4] : وهو أول خازن ثابت في هذه الخزانة .

٤ ـ ابن الساعي[5] : وهو أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين ، المؤرخ

---

(١) أنظر النص المنقول في شروط هذه المدرسة ، في بحثنا «المدرسة المستنصرية ببغداد» (سومر ١ : ٩٨ و ١١٩) .

(٢) الحوادث الجامعة (ص ٥٤) .

(٣) الحوادث الجامعة (ص ٥٤) .

(٤) الحوادث الجامعة (ص٥٦) . وقد ذكر ابن الفوطي ٤١٤ ممن حلم عليهم يوم افتتاح المدرسة المستنصرية .

(٥) راجع ترجمته وأخباره في : الحوادث الجامعة (ص ٣٨٦) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي

البغدادي المشهور ، المتوفى سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ ـ ٦ م) .

٥ ـ ابن الفوطي[1] : وهو أبو الفضل كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد بن محمد البغدادي ، المتوفى سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) . وكان في أول أمره مشرفاً على هذه الخزانة .

٦ ـ ياقوت المستعصمي : وهو الخطاط الذائع الصيت ، المتوفى سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) . قال ابن الفوطي في ترجمة قوام الدين محمد بن علي العكيكي البغدادي : « ... قدم بغداد وأنا بها ، وكان يتردد إلى خزانة الكتب بالمدرسة المستنصرية ، أيام كنتُ مشرفاً على الخازن جمال الدين ياقوت المستعصمي »[2].

وأما المشرفون على هذه الخزانة ، فقد اشتهر منهم :

١ ـ العماد علي بن الدباس : وهو أول مشرف في خزانة المستنصرية[3].

٢ ـ ابن الفوطي : وقد مر ذكره بين الخزنة .

٣ ـ محيي الدين ابن العاقولي[4] ، المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٦ م) .

وأما المناولون ، فأشهر من وقفنا على ذكره :

= (٤ : ٢٥٠) ، والاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي (ص ١٢٣) ، وشذرات الذهب (٥ : ٣٤٣ ـ ٣٤٤) ، ومقدمة ناشر الجامع المختصر (صفحة ط ـ ذ) ، وتاريخ العراق بين احتلالين للمحامي عباس العزاوي (١ : ٢٨٣ ـ ٢٨٤) .

(١) وردت ترجمته في : فوات الوفيات (١ : ٢٧٢ ـ ٢٧٣) ، والبداية والنهاية (١٤ : ١٠٦) ، والدرر الكامنة (٢ : ٣٦٤ ـ ٣٦٥ الرقم ٢٤١٤) والنجوم الزاهرة (٩ : ٢٦٠) ، وشذرات الذهب (٦ : ٦٠ ـ ٦١) ، و « مقدمة » الدكتور مصطفى جواد على الحوادث الجامعة (صفحة ن ـ ش) ، ورسالة العلامة محمد رضا الشبيبي في « ابن الفوطي » (بغداد ١٩٤٠ ، ١٦ ص) ، وتاريخ العراق بين احتلالين (١ : ٤٨١ ـ ٤٨٢) .

(٢) تلخيص مجمع الألقاب لابن الفوطي (ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ من النسخة المصورة) .

(٣) الحوادث الجامعة (ص ٥٦) . وهو ممن خلع عليهم يوم افتتاح المدرسة المستنصرية .

(٤) ترجمته في منتخب المختار في تاريخ علماء بغداد للتقي الفاسي المكي (ص ١٨٥ ـ ١٨٦ الرقم ١٥٨ طبعة المحامي عباس العزاوي . بغداد ١٩٣٨) .

١ ـ الجمال ابراهيم بن حذيفة(١) : وهو أول مناول في خزانة المستنصرية .

٢ ـ محمد بن سعيد بن محمد بن أبي النجم الحدادي : كان معاصراً لابن الساعي ، وهو من أقدم المناولين في هذه الخزانة(٢) .

٣ ـ عبد الرحيم بن محمد، وهو ابن محمد السابق ذكره . مات سنة ٧٤١هـ(٣) (١٣٤٠ م) .

وفي بعض المراجع التاريخية ، إشارات وتلميحات إلى هذه الخزانة ، تفيدنا في تعرّف بعض الشيء من تاريخها . فمن ذلك ما ذكره ابن الفوطي ، ان الخليفة المستعصم « قصد المستنصرية يوم الجمعة سابع شعبان (سنة ٦٤٠ هـ ـ ١٢٤٢م) ومعه الشيخ شمس الدين علي بن النيار ، واعتبر خزانة الكتب التي بها ، وأنكر عدم ترتيبها ، ووكل بالنواب يومين ، ثم أفرج عنهم »(٤) .

فزيارة المستعصم لهذه الخزانة ، كانت بعد تبوئه الخلافة بنحو من شهرين .

ومن طريف ما ورد من أخبارها ، ان في سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) : « أنهى خازن المدرسة المستنصرية . انه شاهد ختم الخزانة متغيراً والقفل بحاله ، فاعتبروا ما فيها من الرهون والعين ، فشذ منها شيء ، ومن المال ثلثمائة دينار . فانهى ذلك الى الخليفة ، فأمر بالزام الفقهاء والحاشية برمي تراب(٥) . ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ، فلم يجدوا شيئاً . فتقدم بتقسيط ذلك على البواب بالخزانة والفراشين على قدر أحوالهم ، فاستوفى ذلك منهم ، ورتب عوضهم »(٦) .

فالذي يستخلص من هذا الخبر النفيس ، ان خزانة كتب المستنصرية ، كانت

---

(١) الحوادث الجامعة (ص ٥٦) . وهو ممن خلع عليهم يوم افتتاح المدرسة المستنصرية .

(٢) الدرر الكامنة (٢ : ٣٦٠ الرقم ٢٤٠٥) .

(٣) الدرر الكامنة (٢ : ٣٦٠ الرقم ٢٤٠٥) .

(٤) الحوادث الجامعة (ص ١٧٠ ـ ١٧١) .

(٥) أي رمى كل واحد كومة من التراب . فالسارق يدس السرقة في الكومة ، فلا يعرف . وهذا كالمفاءلة عند العرب (حاشية الناشر) .

(٦) الحوادث الجامعة (ص ٢٢٣) .

تقفل وتختم في أوقات معلومة . والظاهر انها كانت تنم ، فيا تضم ، دراهم ورهوناً تؤخذ من الناس في مقابل إعارتهم بعض كتبها ، وان عين الخليفة ـ وهو يوم ذاك المستعصم ـ كانت ساهرة على حفظ مصالح هذه الخزانة، يقظة على سلامتها من عبث العابثين .

وساق ابن الفوطي ، خبر وصول نور الدين أرسلان شاه بن عماد الدين زنكي صاحب شهرزور ، إلى بغداد ، وصل في خامس صفر سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) ، ثم ذكر انه « في رابع عشريه ، عمل له دعوة بالمدرسة المستنصرية ، وحضر اليها وجلس على طرف إيوانها الصغير ، وفُرقت الربعات وقُرئت الختمات ، وذكر المدرسون بها الدروس . ثم نهض فدخل دار كتبها فجلس بها ساعة ، ثم خرج متوجهاً إلى داره »[١] .

وذكر ابن الفوطي أيضاً ، ان السلطان غازان ، زار المستنصرية سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) « فدخل خزانة الكتب ولحها »[٢] .

ومما ذكره ابن الفوطي في ترجمة قطب الدين الخالدي الزنجاني[٣] ، انه قدم بغداد صحبة المعسكر الايلخاني سنة ٦٩٦ هـ (١٥٦٦ م) ، « وحضر عندنا في خزانة كتب المدرسة المستنصرية ، في جماعة من علماء قزوين ، فلما عاين تلك الكتب المنضدة التي لم يوجد مثلها في العالم ، لم يطالع منها شيئاً ، لكنه سأل : هل تحتوي هذه الخزانة على (الهياكل السبعة)، فقد كانت لي نسخة مذهبة منه شذّت عني ، أريد استكتب عوضها »[٤] .

وقال في ترجمة قوام الدين محمد بن علي العكيكي البغدادي الصدر الأديب ، انه « سافر الكثير ، دخل بلاد الشام وحج بيت الله الحرام ودخل بلاد اليمن ثم

---

(١) الحوادث الجامعة (ص ٨٩) .
(٢) الحوادث الجامعة (ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣) .
(٣) قتل قطب الدين سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) .
(٤) تلخيص مجمع الألقاب (ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥ من النسخة المصورة) .

قدم بغداد وأنا بها ، وكان يتردد إلى خزانة الكتب بالمدرسة المستنصرية ، أيام كنتُ مشرفاً على الخازن جمال الدين ياقوت المستعصمي ، وكان يوردنا الأخبار وينشدنا الأشعار ، كتبتُ عنه من شعره وشعر غيره ، ثم خرج مسافراً سنة ٦٩٩ هـ »[١] (١٢٩٩ م) .

لقد لبثت هذه الخزانة ردحاً طويلاً من الزمن تحفل بكتبها التي تعد بعشرات الألوف ، وتزخر بالمطالعين والمستفيدين من نفائس مكنوناتها . ولا غرابة في أن تتسع بمثل هذا الاتساع ، بعد أن مرَّ بنا ما كان من عناية المستنصر بها ، ثم المستعصم من بعده ، تلك العناية الفائقة التي شهد بها المؤرخون .

ولكن نكبات مختلفة انتابتها فزعزعت أركانها . وكان في طليعة تلك الرزايا، حادثة استيلاء المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، وتدميرهم معالم العلم والعمران فيها .

ويمكننا أن نستنتج مما ذكره ابن شاكر الكتبي والصفدي ، في ترجمة « نصير الدين الطوسي » ، ان جانباً كبيراً من هذه الخزانة نُقل من بغداد إلى مراغة ، عند استيلاء المغول على العراق . فان نصير الدين « كان ذا حرمة وافرة ومنزلة عالية عند هولاكو ، وكان يطيعه فيما يشير به عليه ... وابتنى بمراغة قبةً ورصداً عظيماً ، واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء وملأها من الكتب التي نُهبت من بغداد والشام والجزيرة ، حتى تجمّع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلد »[٢].

ولقد مر بنا آنفاً ، قول ابن عنبة المتوفى سنة ٨٢٨ هـ بصدد هذه الخزانة ، وهذا إعادة بمضه : « ... والظاهر انه لم يبق منها شيء ، والله الباقي »[٣] !

---

(١) تلخيص مجمع الألقاب (ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ من النسخة المصورة) .
(٢) فوات الوفيات (٢ : ١٤٩) والوافي بالوفيات (١ : ١٧٩) .
(٣) عمدة الطالب (ص ٨٢) .

لخزانة كتب المستنصرية ، كانت منذ بداية المائة التاسعة للهجرة ، خالية خاوية إذ تشتتت كتبها بالحرق والنهب والتمزيق والتفريق . والذي سلم منها لا يُعلم اليوم مصيره ، ما خلا كتاباً واحداً ، وهو « ربيع الأبرار » للزمخشري ، فان نسخة المستنصرية ، منه هي اليوم في الخزانة الوطنية بباريس(١) !

وأورد ابن العبري خبراً طريفاً بصدد أحد كتب هذه الخزانة ، ننقله عنه في ما يلي ، وإن كنا نجهل أين صار ذلك الكتاب ، قال :

« ومما يستدل به على علوّ همة الحكيم عيسى بن القسيس ، انه نسخ كتاب القانون(٢) بخطه في شبيبته ، ثم خرجت النسخة عن ملكه بحكم شرعي وحصلت في خزانة المدرسة المستنصرية . فلما أسنّ ، طلب النسخة وقابلها وصححها وأعادها إلى مكانها . فنسبه باغضوه إلى فضول وحبوه إلى مثوبة يتوخاها . فقال : كلا الفريقين مخطيء ، وانما فعلتُ ذلك لئلا يزرى عليّ بعد موتي »(٣) .

وذكر المقريزي أحد كتب هذه الخزانة ، وهو « كتاب الياسه » الذي يحتوي على القوانين التي وضعها جنكز خان لقومه ، وضمنها النواهي والزواجر ، قال : وأخبرني العبد الصالح الداعي إلى الله تعالى ، أبو هاشم أحمد بن البرهان رحمه الله ، انه رأى نسخةً من الياسه بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد »(٤) .

وقد ذكر الحاج خليفة ، ان نسخة من « تاريخ بغداد » لأبي بكر الخطيب

---

(١) راجع : Blochet : Catalogue de la Collection de Manuscrits Orientaux Arabes, Persans et Turcs formée par M. Charles Schefer et acquise par l' État. (Paris, 1900, p. 37-38; No. 5685).

Blochet : Catalogue des Manuscrits Arabes des Nouvelles Acquisitions (1884-1924). (Paris, 1924, p. 155; No. 5985).

(٢) يريد به « القانون في الطب » لابن سينا .

(٣) تاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٤٧٩) .

(٤) خطط المقريزي (٣ : ٣٥٨ مطبعة النيل ١٣٢٥ هـ) .

البغدادي ، بخط المؤلف ، كانت في وقف المستنصرية ، أربعة عشر مجلداً »(١) .

وقال ابن تغري بردي في كلامه على « أبي بكر طه بن ابراهيم بن أحمد بن اسحق البخاري ثم البغدادي ، المتوفى حدود سنة ٦٥٠ هـ : له كتاب في الأدبيات نحو العشرين مجلداً ، يشتمل على شعر وترسل وحكايات وغير ذلك ، كان بخطه وقفاً بالمستنصرية(٢) .

خزانة رباط باتكين في البصرة

أنشأ هذه الخزانة ، الأمير أبو المظفر باتكين بن عبد الله الرومي الناصري ، المتوفى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) . دوّن ترجمته ابن الفوطي ، ومما جاء في ذلك انه « كان مملوكاً لعائشة ابنة الخليفة المستنجد بالله المعروفة بالفيروزجية. واشتغل بالعلم وحفظ القرآن المجيد ، وخدم جندياً ، وأقام بتكريت مدة ، ثم سلمت اليه البصرة بحربها وخراجها ، فأقام بها ثلاثاً وعشرين سنة، فعمّرها وجدّد مدارس كانت بها قد دثرت ، وأنشأ مدرسة للحنابلة ، ولم يكن يُعرف بالبصرة لهم مدرسة ، وعمل مدرسة يُقرأ فيها علم الطب ، وعمّر مارستاناً كان قد خرب وتعطل . ولما احترق جامع البصرة في سنة أربع وعشرين وستمائة واستهدم معظمه ، أعاد عمارته وأحضر حجارة أساطينه من جبل الأهواز ، وجلب له الخشب الصنوبر والساج من البحر وشيراز ورحبة الشام . وأنشأ رباطاً متصلاً بالجامع ، ورباطاً آخر قريباً منه ، وأسكن فيهما جماعة من الصوفية . وبنى في دهليز الجامع حجرتين، جعل في إحداهما كتباً . ووقف في جميع المدارس كتباً، وانتشر العلم في زمانه . وكان العلماء وغيرهم يقصدونه من جميع الآفاق فيرفدهم ... »(٣)

---

(١) كشف الظنون (١ : ٢٨٨) .
(٢) أصول التاريخ والأدب [من مجاميع الدكتور مصطفى جواد الخطية] (١٦ : ١٧٤) .
(٣) الحوادث الجامعة (ص ١٨١) .

فهذا الخبر يشير إلى زمن إنشاء هذه الخزانة ، وأما أخبارها الأخرى فلم يصل إلينا شيء منها .

وليس بين من تكلم على هذا الأمير – غير ابن الفوطي – ، كابن أبي الحديد[١] وابن الأثير[٢] وابن خلكان[٣] وغيرهم ، مَن ذكر شيئاً عن هذه الخزانة .

خزانة المدرسة البشيرية ببغداد

أنشئت هذه المدرسة ببغداد في أواخر العصر العباسي . وقد ذكر ابن الفوطي خبر فتحها في حوادث سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م) بقوله : « فيها ، فُتحت المدرسة البشيرية ، بالجانب الغربي من بغداد تجاه قطفتا ، التي أمرت ببنائها حظية الخليفة المستعصم أم ولده أبي نصر ، المعروفة بباب بشير . وجعلتها وقفاً على المذاهب الأربعة ، على قاعدة المدرسة المستنصرية ، ووقفت عليها وقوفاً كثيرة قبل فراغها . وكان فتحها يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة ، وحضر الخليفة وأولاده فجلسوا في وسطها ، وحضر الوزير وأرباب المناصب ومشايخ الربط والمدرسون . وكان المدرس بها سراج الدين النهرقلي أقضى القضاة ، وشرف الدين عبد الله بن أستاذ الدار ، ومحيي الدين بن الجوزي ، ونور الدين محمد بن الغربي الخوارزمي الحنفي ، وعلم الدين أحمد بن الشرمساحي المالكي ، وعُملت وظيفة عظيمة ، وخُلع على المدرسين المذكورين ، وعلى الناظر بها ، ونواب العمارة ، والفراشين ، وخدم القبة . وأنشدت الأشعار ، وكان يوماً مشهوداً . وكانت وفاة البشيرية في السنة الماضية على ما ذكرناه »[٤].

---

(١) شرح نهج البلاغة (١ : ٣٧٠ و ٣ : ٣٨٢) .
(٢) الكامل في التاريخ (١٢ : ٢٧٧) وقد تصحف فيه الى « ملتكين » .
(٣) وفيات الأعيان (١ : ٥٦٩ و ٥٧٠ ، ٢ : ٥١٨) .
(٤) الحوادث الجامعة (ص ٣٠٧ - ٣٠٨) .

وبمراجعة الخبر عن وفاتها في السنة التي أشار اليها ، وهي سنة ٦٥٢ ﻫ (١٢٥٤ م) وجدنا ابن الفوطي يقول : « وفي سلخ شعبان ، فُتحت دار القرآن التي أمرت بعمارتها والدة الأمير أبي نصر محمد بن الخليفة المستعصم ، المعروفة بباب بشير ، التي بنت المدرسة البشيرية ، وهذه الدار على شاطىء دجلة بغربي بغداد . وتوفيت البشيرية في تاسع شوال من هذه السنة ، ودُفنت تحت القبة التي أعدتها بجانب المدرسة المذكورة ، وتوفي بعدها ولدها أبو نصر محمد، في ثاني عشر ذي القعدة ، ودفن عندها »[1].

كان مما وقفته صاحبة هذه المدرسة ، خزانة كتب ، يرجع اليها طلاب العلم . وقد عبث الزمان بكتبها ، فلم ينته الينا منها ، فيما نعهد ، إلا المجلد الخامس من تفسير القرآن الكريم المسمى بـ « العيون والنكت » للماوردي (المتوفى سنة ٤٥٠ ﻫ ـ ١٠٥٨ م) . وهذا المجلد ، محفوظ اليوم في خزانة كتب آل باش أعيان العباسي في البصرة . وهو في ٥٥٦ صفحة ، بحجم ٢٤ × ١٧ سم . يبدأ بتفسير « سورة لقمان » ، وينتهي بنهاية « سورة ق » .

على ظهر أول صحيفة منه ، وقفية الكتاب ، ونرى من المفيد ان ننقلها بنصها فيما يأتي ، لما فيها من فائدة تاريخية :

« هذا ما وقفه ، وتصدق به ، الجهة[2] الشريفة المكرمة المقدسة الزكية المعظمة ، السيدة الكبيرة الرضية الأمينة الرحيمة الرءوفة النبوية الامامية الطاهرة البرّة ، جهة سيدنا ومولانا ، الامام المفترض الطاعة على جميع الأنام ، أبي أحمد عبد الله المستعصم بالله أمير المؤمنين ، ثبت الله دولته وأعلى كلمته ، على طلاب العلم رغبةً فيما عند الله من حسن الثواب وذخراً صالحاً ليوم المآب . وأمرت أن تكون بالمدرسة الميمونة التي أمرت بانشائها بظاهر محلة شارع ابن

---

(١) الحوادث الجامعة (ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦) .

(٢) الجهة : كناية عن المرأة السيدة . وهي هاهنا زوجة الخليفة .

رزق الله ، بالجانب الغربي من مدينة السلام . وأن يعار برهن حافظ للقيمة . فمن بدل بذلك ، أو قصر في حفظه ممن يتولاه ، أو يستعيره ، أو غيرهما ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً . (فمن بدله بعدما سمعه ، فانما إثمه على الذين يبدلونه ، إن الله سميع عليم)(١) . وكُتب في شهر رمضان المبارك ، من سنة اثنتين وخمسين وستمائة . وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله » .

فهذه الوقفية ، وان لم يُذكر فيها اسم المدرسة صريحاً ، إلا أننا نرجح(٢) ان تكون المدرسة البشيرية ، لانه لم يذكر عن جهة الخليفة أنها أقامت مدرسة غير هذه .

خزانة المدرسة المجاهدية ببغداد

تأتي الاشارة اليها ، في كلامنا على « خزانة ابن عبد الحق » .

خزانة مدرسة سيدي خان العباسي

هذه المدرسة في العاقولية . أسستها الأميرة زاهدة العباسية(٣) ، المتوفاة سنة ٧٢٩ هـ (١٣٢٨ م) ، وجعلت فيها خزانة كتب . وكانت هذه المدرسة تعرف أولاً بالمدرسة الزاهدية ، ولكن الأمير سيدي خان العباسي ، جددها في سنة ١٠٢٤ هـ (١٦١٥ م) فعرفت به .

ذكر الدكتور داود الچلبي ، ان خزانة هذه المدرسة ، كانت في سنة ١٩٢٠ تحتوي على نحو ألف قطعة من الكتب . غير انها أُحرقت في فتنة وقعت هناك في تلك السنة ، ولم يسلم منها سوى نحو ٣٥ كتاباً .(٤)

---

(١) سورة البقرة (الآية ١٨١) .

(٢) ممن ذهب هذا المذهب ، الاستاذان الباحثان ناجي معروف وعبد العزيز الدوري ، في مؤلفهما « موجز تاريخ الحضارة العربية » (ص ١٦٥ ، بغداد ١٩٤٨) .

(٣) أنظر ترجمتها في مجلة الثقافة (العدد ٤٣٣ ، ص ١٦ – ١٨) .

(٤) مخطوطات الموصل للدكتور داود الچلبي (ص ٢٠١ ، بغداد ١٩٢٧) .

خزانة مدرسة قاسم العباسي في العمادية(١)

أنشأ هذه المدرسة ، الأمير غياث الدين قاسم بن بهاء الدين العباسي ، في سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ، وجعل فيها خزانة حوت كثيراً من الكتب في شتى العلوم . وقد ضاعت كتب هذه الخزانة ، وآل أمر المدرسة إلى الخراب(٢).

خزانة مدرسة قبهان في العمادية(٣)

تقوم هذه المدرسة ، في « العمادية » إحدى بلدان شمالي العراق الذائعة الصيت في التاريخ . وقد سماها الكرد بمدرسة قُبّهان (بضم أوله ، وتشديد ثانيه مع الفتح) ، لوجود قباب فيها .

أسس هذه المدرسة الأمير سلطان حسين العباسي(٤)، أحد حكام بهدينان(٥)، في أواسط المائة العاشرة للهجرة . وقد درّس في هذه المدرسة علماء كثيرون ، نشأ منهم شيخ الاسلام أبو السعود العمادي الشهير .

---

(١) عن « تاريخ الامارة العباسية » (مخطوط) لخضر العباسي .

(٢) مخطوطات الموصل (ص ٢٥٠) .

(٣) راجع كتاب : مخطوطات الموصل للدكتور داود الجلبي (ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ ، بغداد ١٩٢٧) .

(٤) ولد سنة ٩٠٠ وتوفي سنة ٩٨١ هـ (١٤٩٤ ـ ١٥٧٣ م) .

(٥) قال الدكتور داود الجلبي (مخطوطات الموصل . ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤)، ان بهدينان ، هي البقعة الممتدة من الزاب الأكبر الى حوالي نهر الهيزل . وكانت بهدينان تحت حكم الأمراء البهدينانية ، وهي سلالة تنتمي الى العباسيين . ولفظة بهدينان مركبة من (بهدين) و (آن) . فبهدين ، على تلفظ الكرد ، محرفة أو مختصرة من بهاء الدين . والألف والنون أداة الجمع بالفارسية والكردية . فيكون معنى بهدينان (آل بهاء الدين) . حكم هؤلاء الامراء بهدينان قبل استيلاء العثمانيين على هذه الاصقاع وبعده أيضاً . وكانت العمادية عاصمة ملكهم .

قلنا : كان انتهاء مدة حكمهم في سنة ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) .

ولهذه المدرسة خزانة حافلة بالكتب، أنشأها الأمير سلطان حسين المذكور، حوت آلاف المجلدات من مختلف العلوم . وما زال من تلك الكتب إلى اليوم زهاء ألفي مجلد على ما يقال ، أكثرها من وقف سلطان حسين نفسه ، وعليها ختمه . وبين هذه الكتب ما هو نفيس ، محلى بالذهب، وبعضها بخطوط مؤلفيها . من ذلك كتاب « جمع الجوامع » لتاج الدين السبكي ، فان هذه النسخة بخط مؤلفها .

خزانة مدرسة العقر

أنشأ هذه المدرسة سلطان حسين العباسي ، المتقدم ذكره . وجعل فيها خزانة كتب ، ما زال جانب منها باقياً إلى الآن ، وقدره نحو ١٣٠ كتاباً(١) .

خزانة مدرسة قباذ العباسي

في مايه

كان قباذ من أمراء بهدينان، وهو ابن سلطان حسين العباسي المتقدم الذكر. وقد أنشأ قباذ مدرسته في قرية مايه ، من قرى برواري زير التابعة إلى العمادية ، في أواخر المائة العاشرة للهجرة ، ووضع فيها خزانة كتب تشتت شمل اكثرها بمرور الأيام وانتهى الأمر ببقيتها إلى الحرق في سنة ١٩٢٤(٢) .

خزانة مدرسة مراد خان

في العمادية

هذه المدرسة ، أنشأها الأمير مراد خان العباسي(٣) ، في أواخر المائة العاشرة للهجرة ، وجعل فيها خزانة ضاعت كتبها بمرور الزمن(٤) .

---

(١) تاريخ الامارة العباسية ، ومخطوطات الموصل (ص ٢٥٣) .
(٢) مخطوطات الموصل (ص ٢٥٤) .
(٣) هو ابن سلطان حسين ، وأخو قباذ المذكورين قبل هذا .
(٤) تاريخ الامارة العباسية .

القسم الرابع

خزائن كتب الوزراء في العراق

عُرف جماعة من وزراء الدولة العباسية بميلهم إلى الأدب ، وضربهم بسهم وافر في ميدان البحث والتأليف . ولا غرو، فان الوزراء لم يكونوا حينذاك رجال سياسة حسب ، بل كانوا يجمعون بين ثقافات مختلفة . فعلى الوزير أن يكون ، إلى وقوفه على أحوال السياسة وإدارة شؤون الدولة، أديباً كاتباً منشئاً ، بصيراً بالتاريخ والأخبار ، واقفاً على كثير من مسائل الدين واللغة .

ومَن كان هذا شأنه ، وجب ان يستكمل عدته ويتأهب للانصراف إلى مثل هذه المناحي الفكرية . ولا يتسنى للوزراء أن يروّضوا أنفسهم على ذلك إلا بالمطالعة والمراجعة .

ومن ثمة ، عُني جماعة منهم بجمع خزائن كتب جليلة، نوّه بذكرها المؤرخون. وقد جعلنا هذا القسم من الكتاب ، خاصاً بذكر ما انتهى الينا من أخبار خزائن كتب الوزراء في العصر العباسي وأوائل العصر المغولي .

خزانة يحيى البرمكي

هو يحيى بن خالد البرمكي ، من أشهر رجال البرامكة . كان المهدي قد ضم هارون الرشيد إليه وجعله في حجره ، فلما استخلف هارون عرف ليحيى حقه ، وكان يعظمه ، وإذا ذكره قال أبي ، وجعل إصدار الأمور وإيرادها إليه ، إلى أن نكب هارون البرامكة ، فغضب عليه ، وخلده الحبس إلى أن مات فيه[1] سنة ١٩٠ هـ (٨٠٥ م) .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب (١٤ : ١٢٨ ــ ١٢٩) ، ووفيات الأعيان (٢ : ٣٦١) .

ويبدو من تصفح أخبار يحيي ، انه كان محباً للادب ، مكرماً الادباء والشعراء مغدقاً عليهم أجزل العطايا والهبات . وكان يقول لوُلده : « اكتبوا أحسن ما تسمعون ، واحفظوا أحسن ما تكتبون ، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون »[١].

ومن كان هذا ذوقه الأدبي وهذا سخاؤه ، لا يعدم أن يحرز خزانة كتب جليلة حافلة . ولقد ذكر الجاحظ خبراً نفيساً بصدد هذه الخزانة قال : «حدثني موسى بن يحيي ، قال : ماكان في خزانة كتب يحيي البرمكي وبيت مدارسه كتاب ، إلا وله ثلاث نسخ »[٢].

خزانة كتب الوزير ابن شاه مردان

بالبصرة

هذه الخزانة ، وقفها على طلاب العلم بالبصرة ، الوزير أبو منصور بن شاه مردان . ولا ندري متى وقفها ، بيد أننا نعرف الخاتمة المحزنة التي انتهت اليها كتبها . فقد ذكر ابن الأثير في أحداث سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، ان العرب حين نهبهم البصرة في تلك السنة ، أحرقوا، في ما أحرقوا ، هذه الخزانة التي « كان بها نفائس الكتب وأعيانها »[٣] .

خزانة محمد بن عبد الملك الزيات

بسُرّ من رأى

كان ابن الزيات ، من أشهر الوزراء العلماء في العصر العباسي . وزر للمعتصم والواثق وأياماً قلائل في خلافة المتوكل . وقد نكبه المتوكل وقتله في تَنّور الحديد سنة ٢٣٣ هـ (٨٤٧ م) على ما هو مشهور في كتب التاريخ والسير .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب (١٤ : ١٢٩) ، ووفيات الأعيان (٢ : ٣٦١) .
(٢) الحيوان للجاحظ (١ : ٣٠) .
(٣) الكامل في التاريخ (١٠ : ١٢٢) .

وقد جمع ابن الزيات خزانة كتب زاخرة على ما يؤخذ من الخبر الآتي :

«قال الجاحظ : أردتُ الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم، ففكرتُ في شيء أهديه له ، فلم أجد شيئاً أشرف من كتاب سيبويه . فلما وصلت إليه ، قلتُ : لم أجد شيئاً أهديه لك مثل هذا الكتاب ، وقد اشتريته من ميراث الفرّاء . فقال : والله ما أهديتَ لي شيئاً أحب إليّ منه ! ورأيت في بعض التواريخ : ان الجاحظ لما وصل إلى ابن الزيات بكتاب سيبويه وأعلمه به قبل إحضاره، فقال له ابن الزيات : أو ظننتَ أن خزائننا خالية من هذا الكتاب؟ فقال الجاحظ : ما ظننتُ ذلك ، ولكنها بخط الفرّاء ، ومقابلة الكسائي ، وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ ، يعني نفسه . فقال ابن الزيات : هذه أجلّ نسخة توجد وأعزها ! فأحضَرَها إليه ، فسُرّ بها ووقعت منه أجمل موقع »[1].

وهذه الحكاية ، وردت في جملة مراجع قديمة[2] ، باختلافات يسيرة ، فاكتفينا بنقلها من وفيات الأعيان ، لأنها فيه أوفى وأكمل .

وذكر ابن أبي أصيبعة ان محمد بن عبد الملك الزيات « كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ في كل شهر ألفي دينار . ونقل باسمه كتب عدة . وكان أيضاً ممن نقلت له الكتب اليونانية وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء ، مثل يوحنا بن ماسويه ، وجبرائيل بن بختيشوع ، وبختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع، وداود بن سرابيون ، وسلمويه بن بنان ، واليسع ، واسرائيل بن زكريا بن الطيفوري ، وحُبيش بن الحسن»[3] .

ولسنا نعلم من أمر خزانة هذا الوزير سوى هذا القدر . وفي مثل هذه الأنباء خير دليل على ما كانت تضمه من نفائس الكتب وأمهاتها . أما عن مصير

---

(١) وفيات الاعيان (١ : ٥٤٩) .

(٢) راجع مثلا : تاريخ بغداد للخطيب (١٢ : ١٩٦) ، ونزهة الألباء (ص ٧٤ – ٧٥)، ومعجم الأدباء (٦ : ٨٥ – ٨٦) .

(٣) عيون الأنباء (١ : ٢٠٦) .

هذه الخزانة فنظن انها صودرت فيما صودر من أموال ابن الزيات حين نكبته التي أشرنا إليها آنفاً .

خزانة الفتح بن خاقان

كان الفتح بن خاقان ، وزيراً للمتوكل الخليفة العباسي ، وقد قُتل معه في سامراء سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) .

أُغرم الفتح بجمع الكتب ، فكانت له خزانة جليلة القدر « لم يُرَ أعظم منها كثرة وحسناً »(١) .

وأشار ابن النديم ، إلى أن أبا الحسن علي بن يحيي بن أبي منصور المنجم ، المتوفى سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٨ م) ، هو الذي عُني بجمع خزانة الفتح ، فقد «اتصل بالفتح بن خاقان، وعمل له خزانة حكمة، نقل اليها من كتبه ومما استكتبه الفتح ، أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط »(٢).

ومما يدل على ولع الفتح بالمطالعة ، «انه كان يحضر لمجالسة المتوكل. فاذا أراد القيام لحاجة ، أخرج كتاباً من كمه أو خفـــه وقرأه في مجلس المتوكل إلى حين عوده اليه ، حتى في الخلاء »(٣) .

وقد شمل الفتح برعايته كثيراً من أكابر العلماء ، وكان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفيين والبصريين(٤)، وله معهم مواقف تدل على سمو منزلته من العلم .

---

(١) الفهرست (ص ١١٦ فلوجل = ١٦٩ مصر).

(٢) الفهرست (ص ١٤٣ فلوجل = ٢٠٥ مصر) . وانظر : معجم الأدباء(٥: ٤٥٩) ، وفوات الوفيات (٢ : ١٢٣) .

(٣) الفهرست (ص ١١٦ فلوجل = ١٦٩ مصر) ، ومعجم الادباء (٦ : ٥٦) ، والفخري (ص ٣) ، وفوات الوفيات (٢ : ١٢٣) .

(٤) الفهرست (ص ١١٦ فلوجل = ١٦٩ مصر) .

وصنف غير واحد من العلماء كتباً حرروها للفتح : فالجاحظ ، ألف كتابيه : « التاج في أخلاق الملوك »[١] ، و « مناقب الترك وعامة جند الخلافة »[٢] .

وألف له محمد بن الحارث الثعلبي (التغلبي) كتابه المعروف بـ « أخلاق (أخبار) الملوك » ، الذي يغلب على الظن انه ضائع .

وألف له محمد بن حبيب (٢٤٥ هـ - ٨٥٩ م) كتاب القبائل الكبيرة والأيام . وهو من التصانيف الضائعة .

ولسنا نعلم لمن صارت هذه الخزانة بعد مقتل صاحبها !

خزانة الوزير القاسم بن عبيد الله

أبو الحسين القاسم[٣] بن عبيد الله بن سليمان ، المتوفى سنة ٢٩١ هـ (٩٠٣م) كان وزيراً للمعتضد ثم المكتفي . ولم تحمد سيرته أيام وزارته . وكان في أيام صباه يتأدب على أبي اسحق الزجاج النحوي .

وقد اقتنى القاسم بن عبيد الله ، خزانة كتب أبي العباس ثعلب النحوي ، بأبخس ثمن . وسيرد خبر ذلك في كلامنا على « خزانة ثعلب » .

---

(١) نشره أحمد زكي باشا (القاهرة ١٩١٤) . ويرى بعض الباحثين ان هـذا المنشور منسوب الى الجاحظ .

(٢) نشر في ٥٣ صفحة ، ضمن « مجموعة رسائل الجاحظ » (طبعة الساسي . القاهرة ١٣٢٤ هـ) .

(٣) انظر ترجمته في المنتظم (٦ : ٤٦ - ٤٧) . وأخباره منثورة في جملة كتب ، منها : مروج الذهب (٨ : ٢٢٦) ، ونشوار المحاضرة (١ : ٤٢ ، ٥٠ ، ١٣٤ ، ١٦٦) ، وتجارب الامم لمسكويه (٥ : ٢٣٨ طبعة امدروز) ، وتحفة الامراء في تاريخ الوزراء لهلال الصابيء (في مواطن عديدة ، راجع فهرست ذلك الكتاب من طبعة امدروز ، بيروت ١٩٠٤) ، ومعجم الادباء (١ : ٤٨) ، والنجوم الزاهرة (٣ : ١٣٣) .

خزانة الوزير سابور بن اردشير

أنشأ هذا الوزير ببغداد ، خزانة كتب من أعظم الخزائن وأجلها ، عرفت بِـ « دار العلم » . وقد أطلنا الكلام عليها[١] في سياق البحث في خزائن الكتب العامة .

خزانة الوزير ابن هبيرة

عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة ، صار وزيراً للمقتفي العباسي سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) ثم من بعده لابنه المستنجد ، وظل وهو في الوزارة حتى توفي سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) .

وقد صنّف أحد معاصريه كتاباً بعنوان « سيرة ابن هبيرة » أشار اليه ابن خلكان[٢] وابن العماد الحنبلي[٣] ، وهذه « السيرة » لم تنته الينا .

وابن هبيرة هذا ، أحد الوزراء العلماء، كانت له معرفة حسنة بالنحو واللغة والعروض . وقد صنّف في تلك العلوم . وكان إلى ذلك محباً للعلماء لا يكاد يخلو مجلسه منهم .

وكان ابن الخشاب البغدادي، المتوفى سنة ٥٦٧ هـ[٤] ، قد شرح «مقدمة» الوزير ابن هبيرة في النحو ، فيقال انه وصله عليها بألف دينار[٥] .

ويؤخذ مما ذكره الحاج خليفة ، ان لابن هبيرة خزانة كتب ، فقد قال : إن أبا محمد بن عبد الرحمن الأندلسي ، ألّف سنة ٥٥٦ هـ (١١٦٠ م) كتاباً ذكر

---

(١) راجع الصفحة ١٤٠ ـ ١٤٥ من هذا الكتاب .
(٢) وفيات الأعيان (٢ : ٣٦٦ و ٣٧٢) .
(٣) شذرات الذهب (٤ : ١٩٤) .
(٤) أنظر كلامنا على « خزانة ابن الخشاب » .
(٥) معجم الادباء (٤ : ٢٨٧) .

فيه « انه سأله بعضهم أن يذكر له نسبه وبلاده ، وما شاهده من عجائب البلدان ؟ فأجاب . قال : فرأيت أن اسمي هذا المجموع : المُعرب عن بعض عجائب المغرب، وأجعله برسم خزانة مولانا الوزير عون الدين يحي بن محمد بن هبيرة ، وأن أذكر إحسانه . قال : فاني لما وصلتُ إلى بغداد سنة ٥٩٦ أنزلني أحسن دُوره، فأقمت ضيفه أربع سنين . ولما رجعتُ اليها سنة ٥٥٥ أنزلني أيضاً بأحسن مقامه وأكرمني على عادته »[١] .

وهذا الكتاب المهدى إلى ابن هبيرة ، نقل عنه القزويني غير مرة ، من ذلك قوله « ذكر أبو حامد الأندلسي في كتابه الذي ألّفه للوزير ابن هبيرة... »[٢] .

خزانة الوزير مؤيد الدين ابن القصاب

هو مؤيد الدين أبو المظفر محمد بن أحمد بن القصاب . وهو رجل أعجمي الأصل ، كان أبوه يبيع اللحم على رأس درب البصريين ببغداد ، ونشأ هو مشتغلاً بالعلوم والآداب فبرع في كثير منها[٣] حتى تولى كتابة الانشاء . ثم قلد الوزارة سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) في أيام الخليفة الناصر لدين الله العباسي . وقد قاد الجيوش وفتح الفتوح في خوزستان وغيرها . فجمع بين رئاستي السيف والقلم . وكانت وفاته بهمذان ، في رابع شعبان سنة ٥٩٢ هـ[٤] (١١٩٥ م) .

ومن أجلّ ما قام به هذا الوزير، أنه أنشأ خزانة للكتب في « درب الخياطين » ببغداد . ووقف على الطلاب كثيراً من الكتب النفيسة التي كتب وقفيتها بخطه .

وكان إلى ذلك حسن الخط ، معظماً لأهل العلم . وبمواهبه وعطاياه وسيرته الحسنة اجتذب حب الناس له[٥] .

---

(١) كشف الظنون (٢ : ١١٢٧ — ١١٢٨ من طبعة وزارة المعارف التركية) .
(٢) عجائب المخلوقات (ص ١٢٤ طبعة وستنفلد . غوتنجن ١٨٤٨) .
(٣) الفخري لابن الطقطقى (ص ٣٧٣) .
(٤) الكامل في التاريخ (١٢ : ٨١) .
(٥) تجارب السلف لهندوشاه (ص ٣٣١) .

خزانة الكندري

والكندري هذا ، منسوب إلى كُنْدُر ، قرية من نواحي نيسابور من أعمال طريثيث[١] . واسمه عميد الملك ابو نصر محمد بن أبي صالح منصور بن محمد الكندري . استوزره السلطان طُغرُلبك السلجوقي ، ونال عنده المرتبة العالية والمنزلة الجليلة[٢] . ثم استوزره ألب أرسلان السلجوقي . وتقلبت به الأحوال بين صعود ونزول إلى أن قُتل سنة ٤٥٦ هـ[٣] (١٠٦٣ م) وقيل سنة ٤٥٧[٤] هـ (١٠٦٤ م) وقيل ٤٥٩[٥] هـ (١٠٦٦ م). وقد خصه غير واحد من الشعراء بالمدح والثناء ، كالباخرزي[٦] وصرّدرّ[٧] وغيرهما . وقد اختلف المؤرخون في أمره ، وتضاربت أقوالهم في سيرته فمن مادح ومن قادح ، ويبدو من متابعة أخبار هذا الوزير ، انه كانت لديه خزانة كتب ، جمع جملةً من كتبها بوجه لا يليق بكرامة من بمنزلته .

فقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) انه « احترقت بغداد : الكرخ وغيره وبين السورين . واحترقت فيه خزانة الكتب التي وقفها

---

(١) الانساب للسمعاني(ظهر الورقة ٤٨٨)، ومعجم البلدان (مادة : كندر)، ووفيات الاعيان (٢ : ١٠٦) .

(٢) وفيات الاعيان (٢ : ١٠٣) .

(٣) وفيات الاعيان (٢ : ١٠٥) ، وأخبار الدولة السلجوقية لصدر الدين الحسيني (ص ٢٥ طبعة محمد اقبال في لاهور سنة ١٩٣٣) .

(٤) المنتظم (٨ : ٢٣٨) .

(٥) معجم البلدان (مادة : كندر) .

(٦) الملتقط من ديوان الباخرزي (نشره محمد راغب الطبّاخ في آخر « دمية القصر » للباخرزي (ص ٢ ـ ٤) ، ومعجم الأدباء (٥ : ١٢٥) .

(٧) ديوان صردر (ص ٥٣ ـ ٥٦ طبعة دار الكتب المصرية)، ووفيات الاعيان (٢ : ١٠٣ ـ ١٠٤).

أردشير[١] الوزير ، ونُهبت بعض كتبها . وجاء عميد المُلك الكندري ، فاختار من الكتب خيرها ، وكان بها عشرة آلاف مجلد وأربعمائة مجلد من أصناف العلوم منها مائة مصحف بخطوط بني مقلة. وكان العامة قد نهبوا بعضها لما وقع الحريق فأزالهم عميد الملك وقعد يختارها ، فنُسب ذلك إلى سوء سيرته وفساد اختياره . وشتان بين فعله وفعل نظام المُلك الذي عمّر المدارس ودور[٢] العلم في بلاد الاسلام جميعها ووقف الكتب وغيرها »[٣].

وهذا الخبر الطريف ، كنا قد نقلناه في خبر المحنة التي أحاقت بخزانة سابور وأعدنا نقله هاهنا لصلته بخزانة الكندري .

وقد أشار البنداري إشارة خفيفة إلى صنيع الكندري بما وقع بيده من كتب خزانة سابور قال : « وفي سنة ٤٥١ احترقت ببغداد دار الكتب التي وقفها الوزير سابور بن أردشير ، بين السورين . وأخذ عميد الملك ما سلم من النار ، وكان أحد الحريقين »[٤] .

خزانة ابن العلقمي

صاحب هذه الخزانة ، الوزير مؤيد الدين أبو طالب محمد بن أحمد بن العلقمي ، كان في أيام المستعصم آخر خلفاء بني العباس في العراق . واشتهر أمره في حادثة سقوط بغداد بيد المغول سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وكانت وفاته في جمادى الأولى سنة ٦٥٦ هـ .

---

(١) يريد به سابور بن أردشير . وقد وفينا خزانته حقها من البحث في الصفحة ١٤٠ — ١٤٥ من هذا الكتاب .

(٢) في المطبوع : ودون . وهو تحريف .

(٣) الكامل في التاريخ (١٠ : ٥) .

(٤) تواريخ آل سلجوق (ص ١٨ طبعة ليدن) .

كان لهذا الوزير خزانة كتب حافلة في داره . نقل ابن الفوطي انها فُتحت سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) وكان قد نقل اليها كتباً من أنواع العلوم ، فأنشد العدل موفق الدين القاسم بن أبي الحديد :

رأيت الخزانة قد زُينت ... بكتب لها المنظر الهائل
عقول الشيوخ بها ألفت ... ومحصوله ذاك والحاصل
ولما مثلتُ بها قائماً ... وأعجبني الفضل والفاضل
تمثلت أسماءها منكم ... على النقل ما كذب الناقل
بها « مجمع البحر » لكنه ... من الجود ليس له ساحل
ومنها « المهذب » من فضلكم ... و « مغنٍ » ولكنه نائل
ومنها « الوسيط » بما ترتجيه وفيها « النهاية » و « الكامل »
وان كان أعوزها « شامل » ... فقد زانها جودك الشامل
وان كان قد فاتها فائت ... أبو الفضل في علمه كامل(١)

وهو شعر يدل على ذوق قائله وحسن التفاته إلى بعضٍ من أمهات كتب هذه الخزانة .

وخبر فتح هذه الخزانة ذكره ابن كثير بقوله في حوادث سنة ٦٤٤ هـ : « فيها فُتحت دار الكتب التي أنشأها الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد العلقمي بدار الوزارة ، وكانت في نهاية الحسن، ووضع فيها من الكتب النفيسة والنافعة شيء كثير ، وامتدحها الشعراء بأبيات وقصائد حساناً »(٢).

وقد وصفه ابن الفوطي ، بأنه « كان عالماً فاضلاً أديباً يحب العلماء ويسدي اليهم المعروف »(٣) .

---

(١) الحوادث الجامعة (ص ٢٠٩ - ٢١٠) .
(٢) البداية والنهاية (١٣ : ١٧٢) .
(٣) الحوادث الجامعة (ص ٣٣٦) .

وذكر ابن الطقطقى ، ان ابن العلقمي «كان يحب أهل الأدب ، ويقرّب أهل العلم . اقتنى كتباً كثيرة نفيسة . حدثني ولده شرف الدين أبو القاسم علي رحمه الله ، قال : اشتملت خزانة والدي على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب. وصنف الناس له الكتب ، فمن صنف له : الصغاني اللغوي ، صنف له العباب وهو كتاب عظيم كبير في لغة العرب . وصنف له عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد كتاب شرح نهج البلاغة يشتمل على عشرين مجلداً ، فأثابهما وأحسن جائزتهما »[1].

وأشار ابن الطقطقى أيضاً ، إلى أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، كان قد أهدى إلى ابن العلقمي هدية من جملتها كتب[2] . لا شك أنها كانت مما تخيره بدر الدين ليليق بالاهداء .

خزانة علاء الدين عطا ملك الجويني

لمع نجم علاء الدين الجويني ، في صدر تاريخ المغول في العراق ، فقد حكم بغداد مدة ، وكانت له يد طولى في البحث والتأليف ، وفضل لا يُنكر على الكتّاب والمؤلفين .

وقد أحرز الجويني خزانة كتب نفيسة ، جاء وصفها في محاضرة العلامة الاستاذ محمد رضا الشبيبي في ابن الفوطي . قال ما هذا نصه :

« وترجع شهرة الجويني ، مضافاً إلى عبقريته السياسية ونجاحه في إدارة شؤون الدولة المغولية ولاسيما في العراق ، إلى غزارة علمه ، وإلى آثاره الممتعة في الأدب والسياسة والتاريخ ، وتشجيعه للتأليف والمؤلفين في شتى الفنون . وقد كتب ابن الفوطي لخزانته كثيراً من الكتب ، ومنها تاريخه الكبير .

---

(١) الفخري لابن الطقطقى (ص ٣٨٨ - ٣٨٩) .
(٢) الفخري (ص ٣٨٩) .

كما أهدى ابن ميثم البحراني شرح نهج البلاغة له . وأهدى ابن كمونة بعض مؤلفاته لآل الجويني ، منها كتابه في شرح الاشارات، أهداه لشمس الدين[١] الجويني صاحب ديوان الممالك »[٢].

ولي عطا ملك الجويني بغداد سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٨ م) على ما هو الأرجح ، إلا انه لم يكن مستقل الولاية ، ثم استقل[٣] . وكان قد دخل خزانة ألموت[٤] للاسماعيلية أثناء القضاء على دولتهم ، واختار منها نفائس عديدة من مصاحف ، وآلات فلكية ، و « سرگذشت سيدنا » أي « حياة سيدنا » ويراد به حياة حسن الصباح داعي الاسماعيلية في أنحاء قهستان في قلعة الموت[٥] ، ثم توالى بعده أمراء قهستان إلى ان قضى عليهم هولاكو . ومن أعقابهم آغا خان . فكانت بقايا هذه الخزانة قد وصلت إلى الجويني ، وكان لديه بعض كتبها ، وقد لخص كتاب « سرگذشت سيدنا » في مؤلفه الخالد في تاريخ المغول ، الموسوم بـ « جهان گشاي جويني »[٦].

توفي عطا ملك ، في رابع ذي الحجة سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٣ م) .

---

(١) ومما أهدي الى شمس الدين ، رسالة في المنطق ، للكاتبي القزويني ، المتوفى سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ م) ، سماها بـ « الشمسية » . (أنظر : كشف الظنون ٢ : ١٠٦٣) . وأنظر ترجمة شمس الدين الجويني ، في تاريخ العراق بين احتلالين للاستاذ عباس العزاوي (١ : ٣٢٥ ـ ٣٢٧) .

(٢) مؤرخ العراق ابن الفوطي : للشبيبي (ص ٨ ـ ٩) .

(٣) راجع ترجمته في « تاريخ العراق بين احتلالين » (١ : ٣٠٩ ـ ٣١٢) .

(٤) وزان : ملكوت .

(٥) راجع : تاريخ العراق بين احتلالين (١ : ١٥٤) .

(٦) حققه الاستاذ الجليل محمد عبد الوهاب القزويني ، ونشره في ثلاثة مجلدات ضمن مجموعة : E. J. W. GIBB MEMORIAL PUBLICATIONS. (VOL. XVI, 1913-1937).

القسم الخامس

خزائن الكتب الخاصة

منذ صدر الاسلام حتى سنة ١٠٠٠ للهجرة

هذا النوع من الخزائن ، لا يمكن تحديد مناحيه ولمّ أطرافه ، بل يتعذر حصره حصراً تاماً ، وذلك لأن بيت أي عالم من العلماء ، أو مؤلف باحثٍ ، أو رجلٍ من صدور الناس ، كان لا يخلو من خزانة كتب ، كبيرة كانت أم صغيرة . فالاحاطة بأخبار الخزائن الخاصة تكاد تكون متعذرة لأسباب مختلفة ، أهمها :

ا ـ فقدان جملة كبيرة من المراجع القديمة الباحثة في التراجم والأخبار .

ب ـ سكوت المراجع الباقية بيدنا ، عن ذكر كثير من خزائن الخاصة .

ج ـ ضياع تلك الخزائن ذاتها بمرور الزمن . ويُعزى ضياعها إلى عوامل مختلفة ، منها :

١ ـ وصول الكتب إلى قوم لا يحفلون بالعلم . فتتبدد على أيديهم ويتفرق شملها . فكم من عالم مات ، وتبعثرت كتبه على أيدي أولاده أو ورثته الجهلة الذين لا يكترثون لها .

٢ ـ حوادث الحرق ، والغرق ، والتمزيق ، وما إلى ذلك .

٣ ـ فعل الأرضة بالكتب ، وغيرها من الحشرات والهوام التي تجد في ورق الكتب طعاماً سائغاً .

٤ ـ الفتن والاضطرابات المختلفة ، وما يتبعها عادةً من سلبٍ ونهبٍ وتدمير.

* * *

١٩٥

لقد وقفنا في أثناء المطالعة ، على ذكر طائفة كبيرة من خزائن الكتب الخاصة رأينا أن نروي أخبارها في هذا القسم من الكتاب ، وقد رتبناها بحسب تسلسلها الزمني ، أو قل بحسب تعاقب السنين التي توفي فيها أصحابها .

وأقدم الخزائن المعروفة ترقى الى المائة الثانية للهجرة . فأوردنا خبرها شيئاً فشيئاً ، ثم اعقبناها بخزائن المائة الثالثة فالرابعة ، وهكذا حتى نهاية العاشرة .

خزانة أبي عمرو بن العلاء

وهو زبان بن العلاء بن عمار العريان المازني البصري ، إمام أهل البصرة في النحو واللغة ، وأحد القراء السبعة . وقد ذكر ياقوت الحموي نسبه في أول ترجمته . مات بالكوفة سنة ١٥٤ هـ (٧٧٠ م) على إحدى الروايات . وقد أخذ بمكة والمدينة والكوفة والبصرة عن شيوخ كثيرة .

أما خزانة كتبه ، فقد نقل ياقوت قولاً يشير إلى ما أحرزه أبو عمرو من كتب ، وما آلت اليه في حياته . قال : « قال أبو عبيدة : أبو عمرو ، أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب والشعر وكانت دفاتره ملء بيته إلى السقف. ثم تنسك فأحرقها »(١) !

خزانة سفيان الثوري

ذكر ابن النديم ، أن بني ثور كانوا بالكوفة ، وليس بالبصرة منهم أحد . وان سفيان الثوري مات بالبصرة مستتراً من الخليفة، سنة ١٦١ هـ (٧٧٧ م)، وانه « أوصى إلى عمار بن سيف في كتبه فمحاها وأحرقها »(٢) .

وقد صرّح كثير من المؤرخين ، ان للثوري جملة كتب ألّفها في التفسير والحديث والفقه والاختلاف والزهد(٣) .

---

(١) معجم الادباء (٤ : ٢١٧) . وانظر أيضاً : غاية النهاية في طبقات القراء للجزري (١ : ٢٩٠ طبعة برجشتراسر . القاهرة ١٩٣٣) ، وكشف الظنون (١ : ٥٢) .

(٢) الفهرست « ص ٢٢٥ فلوجل = ٣١٥ مصر » .

(٣) « الامام الثوري وكتابه في التفسير » : وهي محاضرة للاستاذ امتياز علي عرشي ، مدير خزانة كتب رامفور بالهند ، منشورة في كتاب « المباحث العلمية من المقالات السنية » (حيدرآباد ١٣٥٨ هـ ، ص ١٥٩ ـ ١٨٨ ، المراجعة ص ١٨٠ ـ ١٨١).

قال الخطيب البغدادي : « وكان أصحاب الحديث يأتونه في مكانه[١] ، فاذا سمع بصاحب حديث بعث اليه ، وكان يقول أنت (يعني يا يحيي) تريد مثل أبي وائل عن عبد الله ـ اين تجد كل وقت هذا ؟ إذهب إلى الكوفة فجئني بكتبي أحدثك . قال له يحيي : أنا اختلف اليك وأخاف على دمي ، فكيف أذهب فآتي بكتبك ؟ قال : وكان يحيي جباناً جداً »[٢].

فيبدو من هذا الخبر ، ان سفيان ترك خزانة كتبه في الكوفة حين هروبه إلى البصرة .

وروى الخطيب باسناده عن ابن الاسود الحارثي ، قال : « خاف سفيان شيئاً فطرح كتبه[٣]. فلما أمن ، أرسل إلي وإلى يزيد بن توبة المرهبي ، فجعلنا نخرجها ، فأقول : يا عبد الله : وفي الركاز الخُمس ، وهو يضحك . فأخرجنا تسع قمطرات ، كل واحدة إلى هاهنا ـ وأشار إلى أسفل من ثدييه ـ قال : فقلتُ له : اعرض لي كتاباً فحدثني به »[٤].

فهذا القدر من الكتب ، يكفي أن يقوم منه وحده خزانة حسنة .

---

(١) أي حين اختفائه بالبصرة ، في بيت يحيي بن سعيد القطان .
(٢) تاريخ بغداد للخطيب (٩ : ١٦٠) .
(٣) يريد بذلك انه دفنها . وسياق هذا الخبر والذي يليه يؤيد ذلك . وقد مر بنا في الصفحة ٣٥ و ٣٦ اشارات الى ما صنعه سفيان الثوري بكتبه.
(٤) تاريخ بغداد للخطيب (٩ : ١٦١) .

خزانة الواقدي

أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي ، أشهر من أن يعرّف . فقد كان « عالماً بالمغازي والسِّيَر والفتوح واختلاف الناس في الحديث والفقه والأحكام والأخبار »(١).

كان الواقدي من أهل المدينة ، ثم انتقل إلى بغداد ، وولي القضاء بها للمأمون بعسكر المهدي . وتوفي ببغداد سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٢ م) . وقد صنّف كثيراً من الكتب النفيسة ، لم يصل الينا منها إلا القليل .

وقد كان للواقدي خزانة كتب حافلة بآلاف التصانيف ، أشار اليها غير واحدٍ من المؤرخين . فنقل أبو بكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد : « حدثنا محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة قال : سمعتُ أبي يقول : لما انتقل الواقدي من الجانب الغربي إلى هاهنا ، يقال انه حمل كتبه على عشرين ومائة وِقر »(٢).

وساق ابن النديم بصدد خزانة الواقدي خبراً نفيساً للغاية ، هذا نصه : « قرأتُ بخطٍ عتيقٍ ، قال : خلّف الواقدي بعد وفاته ستمائة قمطر كتباً ، كل قمطر منها حِمل رجلين . وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار . وقبل ذلك بِيع له كتب بألفي دينار »(٣).

---

(١) الفهرست (ص ٩٨ فلوجل = ١٤٤ مصر) .
(٢) تاريخ بغداد للخطيب (٣ : ٥) . وهذا الخبر عينه نقله ياقوت في معجم الأدباء (٧ : ٥٧ – ٥٨) .
(٣) الفهرست (ص ٩٨ فلوجل = ١٤٤ مصر) .

خزانة الاصمعي

أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب ، المعروف بالأصمعي ، أشهر علماء اللغة في المائة الثانية للهجرة . وُلد في البصرة عام ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) ، وتوفي سنة ٢١٧ هـ (٨٣٢ م) على رواية ؛ في أيام هرون الرشيد . وخير دليل على مبلغ علمه ، مؤلفاته الكثيرة التي يشهد بها كثير من المؤلفين الأقدمين . وقد ضاع بعضها وسلم بعضها الآخر . وهذا الذي سلم قد طُبع بعضه .

أحصى ابن النديم من مؤلفات الأصمعي ثمانية وأربعين مصنفاً[1] . فاذا أضفنا إلى ذلك ما ذكره ابن النديم نفسه من أن الأصمعي « عمل قطعة كبيرة من أشعار العرب » ، ويريد بها « ديوان الأصمعيات » ، ناهزت مؤلفاته خمسين كتاباً .

ورجل هذه مؤلفاته وهذا مبلغ علمه ، لا يخلو أن يكون بين يديه خزانة كتب حافلة ، تحوي كل جليل وطريف . بل ان مؤلفاته ذاتها يقوم منها وحدها خزانة نفيسة على صغر حجمها !

وخير دليل على سعة خزانة الأصمعي ، ما ذكره الأصمعي نفسه عنها بقوله : « لما خرجنا مع الرشيد إلى الرقة ، قال لي : هل حملتَ معك شيئاً من كتبك ؟ فقلتُ : نعم ، حملتُ منها ما خف حمله ! فقال : كم ؟ فقلت : ثمانية عشر صندوقاً . فقال : هذا لما خففتَ ، فلو ثقلتَ كم كنت تحمل ؟ فقلت : أضعافها . فجعل يعجب »[2] .

فما أشبه هذه الحكاية باختها التي سننقلها في كلامنا على خزانة اسحق بن ابراهيم الموصلي . وكلا الرجلين علم من أعلام الأدب والتأليف في المائة الثالثة للهجرة .

---

(١) الفهرست (ص٥٥ ـ ٥٦ فلوجل = ٨٢ ـ ٨٣ مصر) .

(٢) الاغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٥ : ٣٠٢ طبعة دار الكتب المصرية) .

خزانة اسحق بن ابراهيم الموصلي

أبو محمد اسحق بن ابراهيم بن ميمون الموصلي ، شاعر أديب عالم أخباري متمهّـر في علوم كثيرة . وهو أعلم أهل زمانه بالغناء ، وأضربهم بالعود وبأكثر آلات الطرب . كان مقدماً عند خلفاء بني العباس : فنادم الرشيد والمأمون والواثق . وكان المأمون يقول : « لولا ما سبق لاسحق على ألسـنة الناس واشتهر به عندهم من الغناء ، لو ّليته القضاء ، فما أعرف مثله ثقة وصدقاً وعفةً وفقهاً »[١] . وقال فيه الواثق[٢] : « ما غناني اسحق قط ، إلا ظننتُ انه قـد زِيد في ملكي ... ان اسحق لنعمة من نِعم الملك لم يُحظَ بمثلها . ولو ان العمر والشباب والنشاط مما يُشترى ، لاشتريتهن له بشطر ملكي »[٣] .

مات اسحق ببغداد سنة ٢٣٥ هـ (٨٤٩ م) .

ألّـف اسحق كتباً كثيرة ، ذكر منها ابن النديم[٤] نحواً من أربعين كتاباً ضاعت كلها فيما نعهد. ويؤخذ من عناوينها ، ان بحوثها تدور على الغناء والشرب ومجالسة الخلفاء ومنادمتهم وأخبار الشعراء والمغنين والقيان ، وعلى ما كان يدور بينهم من نوادر وأحاديث وشؤون .

جمع اسحق لنفسه خزانة كتب حافلة. وقد نقل الخطيب البغدادي[٥] وياقوت الحموي[٦] قول الأصمعي : « خرجتُ مع الرشيد إلى الرقة ، فلقيتُ اسحق الموصلي بها ، فقلتُ له : هل حملتَ شيئاً من كتبك ؟ فقال حملتُ ما خفّ .

---

(١) الأغاني (٥ : ٢٧٣) .
(٢) نسب هذا القول في وفيات الأعيان (١ : ٩٢) الى المعتصم .
(٣) الأغاني (٥ : ٢٨٥ ـ ٢٨٦) .
(٤) الفهرست (ص ١٤١ فلوجل = ٢٠٢ مصر) .
(٥) تاريخ بغداد للخطيب (٦ : ٣٤٠).
(٦) معجم الأدباء (٢ : ١٩٨ ـ ١٩٩) .

فقلت : كم مقداره ؟ فقال : ثمانية عشر صندوقاً . فعجبتُ وقلت : إذا كان هذا ما خف ، فكم يكون ما ثقل ؟ فقال أضعاف ذلك » .

وكفى بهذا النص دليلاً على عظم هذه الخزانة وتعلق صاحبها بها في الحل والترحال !

وذكر ابن خلكان في ترجمته، انه « كان كثير الكتب. حتى قال أبو العباس ثعلب[1] : رأيت لاسحق الموصلي ألف جزءٍ من لغات العرب وكلها سماعه . وما رأيت اللغة في منزل أحدٍ قط أكثر منها في منزل اسحق ، ثم منزل ابن الأعرابي »[2].

خزانة كتب أحمد بن حنبل

الامام أحمد بن محمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ = ٧٨٠ ـ ٨٥٥ م) من أشهر الرجال في الاسلام . فهو صاحب المذهب الحنبلي، أحد المذاهب الأربعة . وقد استوعب المؤرخون أخباره . وكتابه « المسند » المرجع الأوفى في بابه .

والذي يعنينا من أمر الأمام أحمد في بحثنا هذا ، هو « خزانة » كتبه . فلقد نوه بذكرها بعض المؤرخين . ذكر الحافظ الذهبي المؤرخ الشهير ، في ترجمة الامام أحمد : « وعن أبي زرعة قال : حُزرت كتب أحمد يوم مات ، فبلغت اثني عشر حملاً وعدلاً ، ما كان على ظهر كتابٍ منها (حديث فلان) ولا في بطنه (حدثنا فلان) وكل ذلك كان يحفظ على ظهر قلبه »[3].

وأشار الذهبي في موطن آخر ، إلى أن منزل أحمد بن حنبل ، فُتش في أيام المتوكل ، فكان فيما فتشوا « تابوت الكتب »[4] . فكأنه أراد بذلك موضع الكتب في داره .

---

(١) وهذا كان جماعة للكتب أيضاً . وسيرد وصف خزانته .

(٢) وفيات الأعيان (١ : ٩٢) .

(٣) ترجمة الامام أحمد : للذهبي (ص ١٣) .

(٤) ترجمة الامام أحمد (ص ٥٩) .

وذكر قولاً لصالح بن أحمد بن حنبل : « جاء كتاب المتوكل بعد أيام من موت أبي إلى ابن طاهر ، يأمره بتعزيتنا ، ويأمر بحمل الكتب ، فحملتها ، وقلت : انها لنا سماع ، فتكون في أيدينا وتنسخ عندنا . فقال : أقول لأمير المؤمنين . فلم نزل ندافع الأمير ، ولم تخرج عن أيدينا ، والحمد لله »[1].

خزانة أبي حسان الزيادي

هو أبو حسّان الحسن بن عثمان الزيادي ، المتوفى سنه ٢٤٢ وقيل ٢٤٣ للهجرة (٨٥٦ أو ٨٥٧ م) ولي قضاء الشرقية ببغداد في خلافة المتوكل . وقد صنف بضعة كتب في الأدب والتاريخ ضاعت كلها ، وانتهى إلينا نقول منها منثورة في بعض الأسفار القديمة ، ككتاب بغداد لطيفور وغيره . وقد أثنى عليه الخطيب البغدادي ووصفه بأنه كان « صالحاً ديناً فهماً ، قد عمل الكتب ، وكانت له معرفة بأيام الناس . وله تاريخ حسن ، وكان كريماً واسعاً مفضالاً »[2].

وكان الزيادي يملك خزانة كتب ، وصفها ابن النديم بانها « خزانة حسنة كبيرة »[3] .

خزانة أبي كريب بالكوفة

صاحب هذه الخزانة ، هو أبو كريب محمد بن العلاء بن كريب الهمداني الكوفي ، المتوفى سنة ٢٤٣هـ[4] (٨٥٧ م)، وقيل ٢٤٨هـ[5] (٨٦٢ م) . كان

---

(١) ترجمة الامام أحمد للذهبي (ص ٨٢) .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب (٧ : ٣٥٨) .

(٣) الفهرست (ص ١١٠ الوجل = ١٦٠ مصر) . وانظر أيضاً : معجم الأدباء (٣ : ١٤٥) .

(٤) معجم البلدان (٤ : ٣٢٧ مادة : الكوفة) .

(٥) الكامل في التاريخ (٧ : ٧٩) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢ : ٢٣) .

حافظاً ثقة ومحدثاً من كبار محدثي أهل الكوفة . وكان ينزل بالمطمورة بالكوفة قرب منزل أبي أسامة بالحَفَر[١] .

كان ابن عقدة[٢] يقدم أبا كريب في الحفظ والكثرة على جميع مشايخ الكوفة ، فيقول « ظهر له بالكوفة ، ثلثمائة ألف حديث »[٣] .

أما مصير خزانة أبي كريب ، فقد كان إلى الدمار والتلف ، ذكر من دوّن أخباره انه « أوصى بكتبه أن تُدفن معه ، فدُفنت »[٤] .

وهذه خسارة علمية لا تقدّر . وقد عددنا « دفن الكتب » في جملة الآفات التي تحيق بالكتب[٥] .

الخزانة الكندية

نُسبت إلى صاحبها يعقوب بن اسحق الكِندي ، فيلسوف العرب، المتوفى ببغداد سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) . كان عالماً في الطب والفلسفة والنجوم والحساب والهندسة والمنطق والألحان وغير ذلك . وتآليفه كثيرة تدخل في فنون مختلفة من العلم ، وقد استقصى ذكرها غير واحدٍ من مدوّني سيرته ، لا سيما ابن النديم والقفطي وابن أبي أصيبعة[٦].

وقد كان للكندي خزانة كتب حافلة ، ساق لنا أحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية (المتوفى سنة ٣٤٠ هـ ـ ٩٥١ م) ، شيئاً من أخبارها . قال : « حدثني أبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب ، قال : كان محمد وأحمد ابنا موسى

---

(١) طبقات ابن سعد (٦ : ٢٨٩ طبعة سخو في ليدن) .
(٢) سيأتي الكلام في هذا الكتاب ، على « خزانة ابن عقدة » .
(٣) معجم البلدان (٤ : ٣٢٧) ، وتذكرة الحفاظ (٢ : ٧٣) .
(٤) تذكرة الحفاظ (٢ : ٧٣) .
(٥) أنظر الصفحة ٣٤ ـ ٣٦ من هذا الكتاب .
(٦) الفهرست (ص ٢٥٥ ـ ٢٦١ فلوجل = ٣٥٧ ـ ٣٦٥ مصر) ، وأخبار الحكماء للقفطي (ص ٣٦٨ ـ ٣٧٦) ، وعيون الانباء (١ : ٢٠٩ ـ ٢١٤) .

بن شاكر في أيام المتوكل يكيدان كل من ذُكر بالتقدم في معرفة . فأشخصا سند بن علي إلى مدينة السلام وباعداه عن المتوكل[١]. ودبرا على الكندي حتى ضربه المتوكل ، ووجها إلى داره فأخذا كتبه بأسرها ، وأفرداها في خزانة سميت الكندية »[٢].

ولكن الحال تغيرت وانقلبت إلى عكس ما ذكرناه . فان المتوكل غضب على محمد وأحمد ابني موسى بن شاكر ، ورضي عن سند بن علي لأمرٍ استوجب ذلك . فكان هذا التغيير سبباً في استرداد كتب الكندي وإعادة خزانته اليه بوساطة سند . فما خاطب به سند ابني شاكر : «انتما تعلمان ما بيني وبين الكندي من العداوة والمباعدة . ولكن الحقّ أولى ما اُتبع . أكان من الجميل ما أتيتما إليه في أخذ كتبه؟ والله لا ذكرتكما بصالحة (أمام المتوكل) حتى تردا ها عليه. فتقدم محمد بن شاكر في حمل الكتب اليه وأخذ خطه باستيفائها . فوردت رقعة الكندي انه تسلّمها عن آخرها ... »[٣] .

خزانة الجاحظ

لم يشتهر من أدباء العربية أحد ، اشتهار أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨ م) . فلقد أجمع مؤرخو الأدب العربي على إمامته في هذا الباب ، وتقدمه على كثير ممن سواه . وفي هذا القدر الذي انتهى الينا من تآليفه ، خير دليل على صحة هذا القول . فكُتُب الجاحظ من أثمن ما وصل الينا من تراث الأقدمين ، وهذا شيء يكاد لا يختلف فيه اثنان .

---

(١) كان المتوكل أحد الخلفاء العباسيين الذين اتخذوا سامراء عاصمة لهم بدلا من بغداد. وله في سامراء مآثر عمرانية جليلة .

(٢) كتاب المكافأة وحسن العقبى لابن الداية (ص ١٣٠ بتحقيق محمود محمد شاكر . القاهرة ١٩٤٠) . وعنه نقل الخبر ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء (١ : ٢٠٧).

(٣) المكافأة وحسن العقبى (ص ١٣١) ، وعيون الأنباء (١ : ٢٠٨) .

والجاحظ الذي يعدّ «دائرة معارف» زمانه ، كان من محبي الكتب الولعين بمطالعتها الدائبين على النظر فيها . وقد نص بعض الكتبة على ذلك ، فقالوا : « ... وحدّث أبو هفان قال : لم أرَ قط ولا سمعتُ من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ. فانه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان، حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر »[١].

ولم يكن الجاحظ يكتري الكتب ويطالعها حسب ، بل كان يعنى باقتنائها واستجماعها : حتى صار له منها خزانة ، نقل بعض المؤرخين أنها أدت إلى كارثة موته ، فقد « رُوي ان موته كان بوقوع مجلدات عليه ، وكان من عادته أن يصفّها قائمة كالحائط محيطة به ، وهو جالس اليها ، وكان عليلاً ، فسقطت عليه، فقتلته في محرم هذه السنة »[٢] .

والمراد بهذه السنة ، سنة ٢٥٥ هـ ، كما أشرنا اليه أعلاه .

وكنا ذكرنا في بحث « الوراقة »[٣] ، ان للجاحظ ورّاقاً اسمه أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى الوراق البغدادي[٤] ، المتوفى سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) فكأن هذا الوراق كان يورق للجاحظ وهو في مقتبل عمره .

خزانة أبي حاتم السجستاني

واسمه سهل بن محمد بن عثمان . كان من ساكني البصرة . وهو إمام في علوم القرآن واللغة والشعر. صنّف كتباً عديدة، وقد طُبع مما انتهى الينا منها:

---

(١) الفهرست (ص ١١٦ فلوجل = ١٦٩ مصر)، ومعجم الأدباء (٦ : ٥٦) وفوات الوفيات (٢ : ١٢٣) .

(٢) تاريخ أبي الفداء [حوادث سنة ٢٥٥ هـ] (٢ : ٢٣٢ طبعة ريسكي وأدلر في كوبنهاغن سنة ١٧٩٠ م = ٢ : ٤٧ طبعة مطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٥هـ).

(٣) أنظر الصفحة ١٠ من هذا الكتاب .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب (١١ : ٢٨ ـ ٢٩) ، والانساب (وجه الورقة ٥٨٠) .

كتاب المعمرين ، وكتاب الأضداد ، وكتاب النخل . توفي السجستاني في أواسط المائة الثالثة للهجرة . فقد اختلفت الروايات في سنة وفاته . والذي ذكره ياقوت انه « توفي ، على ما حققه ابن دريد ، سنة ٢٥٥ »[١] (٨٦٨ م) .

قال بعض مترجميه انه « كان جمّاعاً للكتب يتّجر فيها »[٢].

خزانة حنين بن اسحق[٣]

لم يقم بين المترجين في العصر العباسي ، من فاق أبا زيد حُنين بن اسحق العبادي[٤] ، في وفرة التصنيف من تأليف ونقل ، أو جاراه في حسن الأسلوب ودقة الترجمة .

وُلد حنين في الحيرة ، سنة ١٩٤ هـ (٨٠٩ م) من أب نصراني نسطوري كان يشتغل بالصيدلة . ومات ببغداد سنة ٢٦٤هـ[٥] (٨٧٧ م) ، وقيل سنة ٢٦٠ هـ[٦] (٨٧٣ م) . وكان من أشهر أطباء زمانه وأمهرهم ، عُرف بحسن النظر في التأليف والعلاج وصناعة الكَحل . وقد أتقن أربعاً من اللغات العظمى

(١) معجم الأدباء (٤ : ٢٥٨) .

(٢) بغية الوعاة (ص ٢٦٥) .

(٣) عني المستشرق الدكتور ماكس مايرهوف ، بكتابة فصل نفيس في حياة حنين ، نشره في مقدمة طبعته لكتاب « العشر مقالات في العين » لحنين (ص ١٤ – ٦٦ القاهرة ١٩٣٨) .

(٤) نسبة الى العباد ، « وهم قوم من النصارى من قبائل شتى ، اجتمعوا وانفردوا عن الناس في قصور ابتنوها لأنفسهم بظاهر الحيرة وتدينوا بدين النصرانية وقالوا نريد أن نتسمى بعبيد الله ، ثم قالوا : العبيد اسم يشارك فيه المخلوق الخالق في التسمية ، لأنه يقال : عبيد الله وعبيد فلان . والعباد اسم اختص الله به فيقال عباد الله ولا يقال عباد فلان . فتسموا بالعباد » . (أخبار الحكماء للقفطي . ص ١٧٣) ، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٢٥٠) .

(٥) عيون الأنباء (١ : ١٩٠) .

(٦) الفهرست (ص ٢٩٤ فلوجل = ٤٠٩ مصر) ، وأخبار الحكماء للقفطي (ص١٧٣).

يوم ذاك ، وهي العربية والارامية (السريانية) واليونانية والفارسية ، اتقاناً عجيباً . واستخرج كتباً كثيرة من اليونانية إلى الارامية والعربية . قال القفطي في وصفه انه « كان فصيحاً في اللسان اليوناني وفي اللسان العربي ، بارعاً شاعراً خطيباً فصيحاً لسناً . ونهض من بغداد إلى أرض فارس . ودخل البصرة ولزم الخليل بن أحمد ، حتى برع في اللسان العربي ، وأدخل كتاب العين إلى بغداد . واختير للترجمة وأؤتمن عليها . وكان المتخير له المتوكل على الله ، وجعل له كتّاباً نحارير عالمين بالترجمة ، كانوا يترجمون ويتصفح ما ترجموا ، كاصطفن بن باسيل ، وموسى بن خالد الترجماني ، ويحيى بن هارون . وخدم بالطب المتوكل . وكان يلبس الزُنّار ، وتعلم لسان اليونانية بأصله ، وكان جليلاً في ترجمته »[1] .

لقد أجمع مدوّنو أخبار حنين ، على إجلاله وتقدير علمه والثناء عليه . وإذا عدنا إلى الكتب التي نقلها أو صنّفها حنين ، ألفينا أغلبها قد ضاع ، فلم يسلم منها إلا أقلها[2] . ولقد أحصى بعض الكتاب ما ألفه أو نقله حنين من كتب ورسائل ، فاذا به شيء كثير ، جاوز مائة وثلاثين كتاباً بالعربية . هذا إلى جملة كبيرة من المؤلفات التي صنفها بالآرامية .

ولقد طُبع بعض مؤلفاته في كلتا هاتين اللغتين ، وبعضها ما زال مخطوطاً في خزائن شتى . على أن أغلب تآليف حنين ، قد امتدت اليها يد الفناء ، فآل أمرها إلى الضياع .

ورجل مثل حنين ، يحسن أربع لغات عظيمة الشأن ، ويصنف ويترجم هذا

---

(١) أخبار الحكماء للقفطي (ص١٧١) .

(٢) ذكر الأب لويس شيخو اليسوعي ، ما سلم من مؤلفات حنين بالعربية (أنظر : المخطوطات العربية لكتبة النصرانية . ص ٩٣) . وقد ذكرنا في الصفحة ١٣٣ من كتابنا هذا ، ان في الخزانة الغروية بالنجف ، نسخة من كتاب قوى الأغذية لحنين . وهذا الكتاب لم يذكره شيخو .

القدر الكبير من التآليف النفيسة[١]، يُنتظر أن يكون قد بذل الغالي والرخيص في تحصيل الكتب وجمع أمهاتها النادرة . يؤيد هذا ، ما ذكره ابن النديم ، ان حنيناً « دار البلاد في جمع الكتب القديمة »[٢] . أو ما ذكره القفطي بقوله انه « دخل إلى بلاد الروم لاجل تحصيل كتب الحكمة ، وتوصل في تحصيلها غاية إمكانه ، وأحكم اليونانية عند دخوله إلى تلك الجهات ، وحصل نفائس هذا العلم »[٣] . أو ما نوه به ابن أبي أصيبعة ، انه « سافر إلى بلاد كثيرة ووصل إلى أقصى بلاد الروم لطلب الكتب التي قصد نقلها »[٤].

فهذه الخزانة الحافلة بتصانيف الاغريق والعرب والاراميين وغيرهم ، كانت من ذخائر العلم وكنوزه التي يقل وجود نظائرها على وجه الدهر .

وفي المحنة التي أصابت حنيناً في أيام المتوكل ، بسبب المكيدة التي دبرها له منافسوه ، وما فرط منه في حضرة الخليفة من امتهان صورة السيدة مريم العذراء[٥] ، نرى حنين بن اسحق يروي عن نفسه، ان المتوكل « أمر باعتقالي والتضييق عليّ ، ووجّه ، فحمل جميع ما كان لي من رحل وأثاث وكتب وما شاكل ذلك ، وأمر بنقض منازلي إلى الماء »[٦] .

وأشار حنين إشارة ثانية إلى خزانة كتبه ، بقوله عن نفسه « ان جميع ما قد كان يملكه من الكتب ذهب ، حتى لم يبق عنده منها ولا كتاب واحد ،

---

(١) تجد أسماء مؤلفات حنين العربية ، مذكورة في : الفهرست (ص ٢٩٤ - ٢٩٥ فلوجل = ٤١٠ مصر) ، وأخبار الحكماء للقفطي (ص ١٧٣ - ١٧٤) ، وعيون الأنباء (١ : ١٩٧ - ٢٠٠) .

(٢) الفهرست (ص ٢٩٤ فلوجل = ٤٠٩ مصر) .

(٣) أخبار الحكماء للقفطي (ص ١٧٣) .

(٤) عيون الأنباء (١ : ١٨٧) .

(٥) وصف حنين هذه المحنة وصفاً مؤثراً . راجع ذلك في عيون الأنباء (١ : ١٩٣ - ١٩٤) .

(٦) عيون الأنباء (١ : ١٩٥) .

ذكر ذلك في مقالته في فهرست كتب جالينوس »[١].

فخزانة كتب حنين تفرق شملها في هذه الكائنة التي جاءت ضربة قاضية على العلم ، وكارثة عظمى أحاقت بحنين .

كان لحنين من يورّق له ، عرفنا منهم اثنين ، وقد مرّت الاشارة في الصفحة ٩ من هذا الكتاب إلى أحدهما، وهو المعروف بالأزرق . وذكر ياقوت الحموي ، ان محمد بن الحسن بن دينار الأحول « كان وراقاً ، يورق لحنين بن اسحق المتطبب في منقولاته لعلوم الأوائل »[٢] .

إننا لا نعدو وجه الصواب إذا قلنا ان مؤلفات حنين ، العربية والارامية ، لو كتب لها أن تُجمع كلها اليوم ، لقام منها خزانة نفيسة ، غاية في النفاسة ، فكيف بها لو أضيف اليها ما قد اقتناه حنين من أعلاق الكتب الأخرى في رحلاته وفي سائر أيام حياته ؟

خزانة اسحق بن سليمان الهاشمي

كان من أشهر الولاة في المائة الثالثة للهجرة . مات ببغداد ، ولم تتعين عندنا سنة وفاته، فان كل من كتب عنه ، أغفل ذكرها[٣]. ولي اسحق لهارون الرشيد المدينة والبصرة ومصر ، وولي للامين حمص وارمينية .

وقد أحرز اسحق خزانة كتب جليلة ، أشار اليها الجاحظ إشارة طريفة في قوله : « دخلت على اسحق بن سليمان في إمرته ، فرأيت السماطين والرجال

---

(١) عيون الأنباء (١ : ١٨٩) .

(٢) معجم الأدباء (٦ : ٤٨٢) . وانظر ترجمة الأحول في الفهرست (ص ٧٩ فلوجل = ١١٧ مصر) .

(٣) أنظر : تاريخ الطبري (في مواطن عديدة . راجع الفهرس) ، والولاة والقضاة للكندي (ص ١٣٦ ، طبعة رفن كست ، بيروت ١٩٠٨) ، وتاريخ بغداد للخطيب (٦ : ٣٢٩) ، والكامل في التاريخ (في مواطن عديدة . راجع الفهرس) ، والنجوم الزاهرة (٢ : ٨٧ – ٨٨) .

مثولاً كأن على رؤوسهم الطير ، ورأيت فرشته وبزته . ثم دخلت عليه وهو معزول ، وإذا هو في بيت كتبه ، وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر ، فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم ؛ لأنه جمع مع المهابة المحبة ، ومع الفخامة الحلاوة ، ومع السؤدد الحكمة »[١] .

وهذا الخبر نقله ابن الطقطقي[٢] عن الجاحظ بالحرف الواحد تقريباً ، إلا انه عزاه إلى « محمد بن اسحق » ، والظاهر ان ذلك سهو منه .

خزانة العصفري

وهو أبو اسحق ابراهيم بن منقذ بن ابراهيم بن عيسى بن يحيي العصفري . أحد ثقات المحدثين ببغداد ، المتوفى سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) .

كانت له خزانة كتب احترقت على ما ذكره السمعاني بقوله « كانت كتبه احترقت قديماً ، وبقيت له منها بقية ، كان يحدث بما بقي له من كتبه »[٣] .

خزانة علي بن يحيى المنجم
(خزانة الحكمة)

أبو الحسن علي بن يحيي بن أبي منصور المنجم ، ترجمه ياقوت الحموي ترجمة وافية ، ومما قال فيه انه « نادم المتوكل ، وكان من خواصه وندمائه والمتقدمين عنده . وخص به وبمن بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد على الله . وكان شاعراً راوية علامة اخبارياً ، مات سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٨ م) ، ودفن في سر من رأى

---

(١) الحيوان للجاحظ (١ : ٦١ ـ ٦٢) .
(٢) الفخري لابن الطقطقي (ص ٤ ـ ٥) .
(٣) الأنساب (ظهر الورقة ٣٩٢) ، والمنتظم (٥ : ٦٨) .

في آخر أيام المعتمد . وأخذ أبو الحسن هذا عن جماعة من العلماء ... »[١].

وقد اتصل ابن المنجم بالفتح بن خاقان ، « وعمل له خزانة حكمة ، نقل اليها من كتبه ومما استكتبه الفتح ، أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط »[٢]. وقد أشرنا إلى هذا في كلامنا على خزانة الفتح[٣].

واشتهر علي بن يحيي المنجم بجمعه خزانة كتب كبيرة . فنقل ياقوت الحموي خبر هذه الخزانة بقوله : « حدث أبو علي التنوخي في نشواره[٤] : حدثني أبو الحسن بن أبي بكر الأزرق قال : حدثني أبي ، قال : كان بكركر من نواحي القفص[٥] ، ضيعة نفيسة لعلي بن يحيي بن المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة ، يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة في ذلك لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيي . فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج ، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم . فوصفت له الخزانة، فمضى ورآها ، فهاله أمرها ، فأقام بها وأضرب عن الحج ، وتعلم فيها علم النجوم

---

(١) معجم الأدباء (٥ : ٤٥٩) .

(٢) الفهرست (ص ١٤٣ فلوجل = ٢٠٥ مصر) .

(٣) أنظر الصفحة ١٨٠ من هذا الكتاب .

(٤) لم أجد خبر هذه الخزانة في الأجزاء المطبوعة من « نشوار المحاضرة » ، أعني الجزء الأول والثاني والثامن . فهي واردة في بعض ما ضاع من أجزاء الكتاب .

(٥) قال ياقوت في مادة « كركر » (بفتح الكافين وسكون الراء الأولى) من معجم البلدان ، انها « ناحية من بغداد ، منها القفص » . وقال في مادة القفص : « بالضم ثم السكون وآخره صاد مهملة : قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا ، قريب من بغداد . وكانت من مواطن اللهو ومعاهد النزهة ومجالس الفرح . تنسب اليها الخمور الجيدة والحانات الكثيرة . وقد أكثر الشعراء من ذكرها ، فقال أبو نواس ... » ثم ساق أبيات شعر . وقال ابن عبد الحق : « القفص : قرية ببغداد مشهورة فوقها عند قطربل » (مراصد الاطلاع ٢ : ٤٣٧).

وأعرق فيها حتى أَلْحد ، وكان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين وبالاسلام أيضاً »[١] .

ونوه ابن أبي أصيبعة بالكتب التي نقلها حنين بن اسحق لعلي بن يحيى المنجم[٢] ، كما انه لمح الى خزانة كتبه[٣] .

ومثله القفطي ، فقد ذكر بعض ما ألـف أو نُقل لابن المنجم . كالكتاب الذي ألفه له ثابت بن قرة الحراني[٤] ، وكفهرست كتب جالينوس الذي عمله حنين له[٥] وكتاب المقاييس الذي نقله له اصطفن الراهب واسحق بن حنين.[٦]

خزانة اسماعيل بن اسحق الازدي

أصله من أهل البصرة ، ثم سكن بغداد ، وتولى القضاء فيها زهاء نصف قرن . وكان رجلاً عالماً ثقة . صنف الكتب الكثيرة في علوم القرآن وغير ذلك ومات سنة ٢٨٢[٧] هـ (٨٩٥ م) .

جمع هذا الرجل في داره خزانة كتب تطرّق إلى ذكرها غير واحد من المؤرخين . نقل ابن النديم قول أبي هفان في بعض عشاق العلم : « ثلاثة لم أر قط ولا سمعت أحب اليهم من الكتب والعلوم : الجاحظ ، والفتح بن خاقان، واسماعيل بن اسحق القاضي . فأما الجاحظ ....[٨] وأما اسماعيل بن اسحق ،

(١) معجم الأدباء (٥ : ٤٦٧) .
(٢) عيون الأنباء (١ : ١٩٨ و ٢٠٠) .
(٣) عيون الانباء (١ : ٢٠٥ ـ ٢٠٦) .
(٤) أخبار الحكماء للقفطي (ص ١١٧) .
(٥) أخبار الحكماء (ص ١٢٩) .
(٦) أخبار الحكماء (ص ١٣٢) .
(٧) أنظر ترجمته في تاريخ بغداد للخطيب (٦ : ٢٨٤ ـ ٢٩٠) ، ومعجم الادباء (٢ : ٢٥٧ ـ ٢٦١) .
(٨) الكلام المتعلق بالجاحظ والفتح بن خاقان ، نقلناه في الصفحة ٢٠٠ و ١٨٠ من هذا الكتاب .

فاني ما دخلت اليه إلا رأيته ينظر في كتاب أو يقلّب كتباً أو ينفضها »[١] .

خزانة ابراهيم بن اسحق الحربي

وصفه أبو سعد السمعاني بقوله : « كان ابراهيم إماماً في العلم ، رأساً في الزهد ، عارفاً بالفقه ، بصيراً بالأحكام ، حافظاً للحديث مميزاً لعلله ، قيماً بالأدب ، جمّاعاً للغة ، وصنف كتباً كثيرة ... »[٢]. وكانت وفاته ببغداد سنة ٢٨٥ ﻫ (٨٩٨ م) .

وقد أشار بعض مترجميه إلى خزانة كتبه ، فننقل ياقوت قول الحربي نفسه : « اضقتُ مرةً حتى انتهى أمري في الاضاقة إلى عدم عيالي القوت . فقالت لي الزوجة : هب اني وإياك نصبر ، فكيف تصنع بهاتين الصبيتين ؟ فهات شيئاً من كتبك نبيعه أو نرهنه ، فضننت بذلك وقلت : اقترضي لها شيئاً ... »[٣].

وروى الخطيب البغدادي ، بالاسناد عن أبي القاسم بن الجبّلي ، قال : اعتلّ ابراهيم الحربي علة حتى أشرف على الموت ، فدخلت إليه يوماً ، فقال لي : يا أبا القاسم ! أنا في أمر عظيم مع ابنتي · ثم قال لها : قومي أخرجي إلى عمكِ فخرجت ، فألقت على وجهها خمارها ، فقال ابراهيم : هذا عمك ، كليه ! فقالت لي : يا عم ، نحن في أمرٍ عظيم ، لا في الدنيا ولا في الآخرة · الشهر والدهر ما لنا طعام الا كسر يابسة وملح ، وربما عدمنا الملح · وبالأمس قد وجّه اليه المعتضد مع بدر ألف دينار ، فلم يأخذها ووجه اليه فلان وفلان فلم يأخذ منهما شيئاً ، وهو عليل · فالتفت الحربي اليها ، وتبسم فقال لها : يا بنية ! انما خفت الفقر ؟ قالت نعم ! فقال لها : انظري الى تلك الزاوية ، فنظرت ، فاذا كتب · فقال :

---

(١) الفهرست (ص ١١٦ ـ ١١٧ فلوجل = ١٦٩ مصر) . وانظر : معجم الادباء (٦ : ٥٦) وفوات الوفيات (٢ : ١٢٣) .

(٢) الانساب للسمعاني (وجه الورقة ١٦٢) ومعجم الادباء (١ : ٣٧) .

(٣) معجم الادباء (١ : ٣٩) .

هناك اثنا عشر ألف جزء لغة وغريب كتبتها بخطي ، إذا مُتّ فوجّهي في كل يوم بجزء تبيعيه بدرهم . فمن كان عنده اثنا عشر ألف درهم ، ليس هو فقيرا ! »(١).

خزانة تادري الاسقف

لا نعلم من أمر صاحب هذه الخزانة ، إلا ما ذكره ابن أبي أصيبعة ، في الترجمة الوجيزة التي أوردها بقوله : « كان أسقفاً في الكرخ ببغداد . وكان حريصاً على طلب الكتب ، متقرباً إلى قلوب نَقَلَتها . فحصل منها شيئاً كثيراً ، وصنّف له قوم من الأطباء النصارى كتباً لها قدر وجعلوها باسمه »(٢).

وقد ذكر ماري بن سليمان ، أسقفاً يُعرف باسم تاذوروس(٣) ، كان يتعاطى الطب في أيام المعتضد (خلافته ٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م) . فلعل صاحب هذه الخزانة أن يكون هو الذي ذكره ماري .

خزانة عيسى بن يونس الكاتب الحاسب

لا نزيد علمنا بهذا الرجل ، على ما ذكره ابن أبي أصيبعة فيه . قال : « من جملة الفضلاء بالعراق . وكان كثير العناية بتحصيل الكتب القديمة والعلوم اليونانية »(٤).

ويغلب على ظننا ، ان هذا الرجل كانَ من أبناء المائة الثالثة للهجرة ، فأن ابن أبي أصيبعة عدّهُ في زمرة العلماء الذين نبغوا في تلك المائة .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب (٦ : ٣٣) ، ومعجم الادباء (١ : ٤٠) .

(٢) عيون الانباء (١ : ٢٠٦) .

(٣) أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل : لماري بن سليمان (ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩١ طبعة جسمندي . رومية ١٨٩٩) .

(٤) عيون الأنباء (١ : ٢٠٦) .

خزانة بني موسى بن شاكر المنجم

هؤلاء هم ثلاثة اخوة ، ولا يعرفون إلا ببني موسى . وهم محمد ، وأحمد ، والحسن[1]. وقد اشتهروا في علم الهندسة والحيل والفلك . وكان أبوهم موسى بن شاكر من منجمي المأمون ، وأبناؤه « ممن تناهى في طلب العلوم القديمة ، وبذل فيها الرغائب ، واتبعوا فيها نفوسهم ، وأنفذوا إلى بلد الروم من أخرجها اليهم ، فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني ، فأظهروا عجائب الحكمة »[2].

وذكر القفطي كلاماً بهذا المعنى ، هذا نصه : « وممن عُني باخراج الكتب في بلاد الروم ، محمد وأحمد والحسن بنو موسى بن شاكر المنجم ، وبذلوا في ذلك الرغائب وأحضروا الغرائب منها ، في الفلسفة والهندسة والموسيقى والارثماطيقي والطب وغيرها »[3].

وقد نوّه القفطي في موطن آخر من كتابه ، بأن محمد بن موسى ، وهو أكبر الاخوة الثلاثة ، « جمع كتب النجوم والهندسة والعدد والمنطق ، وكان حريصاً عليها »[4] .

ونقل عن أبي سليمان المنطقي السجستاني ، نزيل بغداد ، « أن بني المنجم ، كانوا يرزقون جماعة من النقلة ، منهم حنين بن اسحق ، وحبيش بن الحسن ،

---

(١) راجع تراجمهم في : الفهرست (ص ٢٧١ فلوجل = ٣٧٨ ـ ٣٧٩ مصر) ، وطبقات الأمم لصاعد الأندلسي (ص ٥٥) ، وأخبار الحكماء للقفطي (ص ٣٠ ـ ٣١ ، ٣١٥ ـ ٣١٦ ، ٤٤١ ـ ٤٤٣) ، وعيون الأنباء (١ : ١٨٧ و ٢٠٥) ، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥) .

(٢) الفهرست (ص ٢٧١ فلوجل = ٣٧٨ ـ ٣٧٩ مصر) ، وأخبار الحكماء للقفطي (ص ٣١٥ ـ ٣١٦) .

(٣) أخبار الحكماء للقفطي (ص ٣١) .

(٤) أخبار الحكماء للقفطي (ص ٤٤٢) .

وثابت بن قرة ، وغيرهم في الشهر خمسمائة دينار ، للنقل والترجمة والملازمة »[١] .
وقد ذكر جماعة من المؤلفين الأقدمين أسماء جملة كتب نفيسة أُلفت أو نُقلت لهم .

لا مراء في أن بني موسى ، قد حصلوا من الكتب على أنفسها وأعزها وجوداً . وبذلهم المال بيد سخية واستهانتهم به في سبيل الكتب ، مكنهم ان يحرزوا خزانة عظيمة الشأن ، تعد من مفاخر العلم في ذلك العصر الزاهر .

خزانة ثعلب النحوي

أبو العباس أحمد بن يحيى النحوي المعروف بثعلب ، من أشهر النحويين في المائة الثالثة للهجرة . عاش ببغداد ، ومات بها سنة ٢٩١ هـ (٩٠٣ م) . وله تصانيف عديدة لم يصل إلينا منها إلا أقلها .

وكانت له خزانة كتب كبيرة ، بيعت بعد وفاته . فذكر ياقوت الحموي نقلاً عن الزبيدي ، أن ثعلباً خلّف كتباً جليلة ، فأوصى إلى علي بن محمد الكوفي أحد أعيان تلاميذه ، وتقدم اليه في دفع كتبه إلى أبي بكر أحمد بن اسحق القطربلي. فقال الزجّاج للقاسم بن عبيد الله[٢]. هذه كتب جليلة . فلا تفوتنك! فأحضر خيران الورّاق ، فقوّم ما كان يساوي عشرة دنانير بثلاثة، فبلغت أقل من ثلثمائة دينار ، فأخذها القاسم بها »[٣].

فهذه الخزانة التي قال فيها السيوطي انها تساوي جملة[٤] ، بيعت بأبخس الأثمان ، وانتقلت إلى خزانة الوزير القاسم بن عبد الله .

---

(١) أخبار الحكماء للقفطي (ص ٣٠ - ٣١) ، وعيون الأنباء (١ : ١٨٧) .
(٢) مرت الاشارة اليه في الصفحة ١٨١ من هذا الكتاب .
(٣) معجم الادباء (٢ : ١٤٤ - ١٤٥).
(٤) بغية الوعاة (ص ١٧٣) .

خزانة ابن سعدان

هو ابراهيم بن محمد بن سعدان المبارك. وصفه ابن النديم بانه كان «جمّاعة للكتب ، صحيح الخط ، صادق الرواية »[١]. ثم ذكر له بعض التصانيف ، ولم يعين سنة وفاته . ولكن ياقوتاً الحموي ذكر وفاة والده محمد بن سعدان الضرير ، فكانت في سنة ٢٣١ هـ (٨٤٥ م)[٢] ، فيكون الابن ممن عاش في المائة الثالثة للهجرة .

خزانة محمد بن الحسين في الحديثة

لم يتحقق عندنا أكان من حديثة دجلة أم من حديثة الفرات ، وان كنا نميل إلى نسبته إلى الأولى . وغاية ما نعلم من أمره أنه أحرز خزانة كتب حوت من نوادر الكتب ونفائس المخطوط ما لو وُجد بعضه في يومنا هذا لعدّ من أجلّ الآثار وأثمنها . وقد وصف ابن النديم خزانة هذا الرجل وصفاً حسناً بقوله :

« قال محمد بن اسحق : كان بمدينة الحديثة رجل يقال له محمد بن الحسين ، ويُعرف بابن أبي بعرة ، جمّاعة للكتب . له خزانة لم أرَ لأحد مثلها كثرة ، تحتوي على قطعة من الكتب العربية في النحو واللغة والأدب والكتب القديمة . فلقيتُ هذا الرجل دفعات ، فأنس بي ، وكان نفوراً ضنيناً بما عنده ، خائفاً من بني حمدان ، فأخرج لي قطراً كبيراً فيه نحو ثلثمائة رطل جلود فلجان وصكاك وقرطاس مصر وورق صيني وورق تهامي وجلود أدم وورق خراساني ، فيها تعليقات عن العرب وقصائد مفردات من أشعارهم وشيء من النحو والحكايات

---

(١) الفهرست (ص ٧٩ فلوجل = ١١٨ مصر) .

(٢) معجم الأدباء (٧ : ١٢) .

والأخبار والأسماء والأنساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم. وذكر ان رجلاً من أهل الكوفة ، ذهب عني اسمه ، كان مستهتراً بجمع الخطوط القديمة ، وانه لما حضرته الوفاة خصه بذلك لصداقة كانت بينهما وأفضال من محمد بن الحسين عليه ومجانسة المذهب فانه كان شيعياً . فرأيتها وقلبتها فرأيت عجباً ، إلا أن الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملاً أدرسها وأحرفها . وكان على كل جزء أو ورقة أو مدرج توقيع بخطوط العلماء واحداً اثر واحد ، فذكر فيه خط من هو ، وتحت كل توقيع توقيع آخر خمسة وستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض . ورأيت في جملتها مصحفاً بخط خالد بن أبي الهياج صاحب عليّ رضي الله عنه . ثم وصل هذا المصحف إلى أبي عبد الله بن حاني رحمه الله . ورأيت فيها بخطوط الامامين الحسن والحسين . ورأيت عنده أمانات وعهوداً بخط أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وبخط غيره من كتّاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو بن العلاء وأبي عمرو الشيباني والأصمعي وابن الأعرابي وسيبويه والفراء والكسائي ، ومن خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم . ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر ، وتحت هذا الخط بخط عتيق : هذا خط علان النحوي . وتحته : هذا خط النضر بن شميل . ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه ، فما سمعنا له خبراً ولا رأيت منه غير المصحف ، هذا على كثرة بحثي عنه »[1].

(١) الفهرست (ص ٤٠ ـ ٤١ فلوجل = ٦٠ ـ ٦١ مصر)

خزانة الحسن بن موسى النوبختي

يُعد صاحب هذه الخزانة، من أشهر رجال آل نوبخت في بغداد ، وأكثرهم علماً وتأليفاً . وقد أثنى عليه غير واحدٍ من المؤلفين الأقدمين والمحدثين[١] . ووصفه ابن النديم بانه « كان جمّاعة للكتب ، قد نسخ بخطه شيئاً كثيراً . وله مصنفات وتأليفات في الكلام والفلسفة وغيرها »[٢].

ومجموعة تآليفه البالغة ٤٤ كتاباً ، يقوم منها وحدها خزانة صغيرة ، ولسنا نعلم منها اليوم إلا القليل . من ذلك كتابه « فِرَق الشيعة » وقد طُبع في استانبول ثم في النجف .

لم تتحقق عندنا سنة وفاة النوبختي . والذي يمكن القول به ، انه توفي سنة نيف وثلثمائة للهجرة .

---

(١) للعلامة السيد هبة الدين الشهرستاني ، فصل نفيس في ١٧ صفحة ، ضمنه ترجمة الحسن النوبختي، وقد نشره في صدر كتاب « فرق الشيعة » للنوبختي، المطبوع في استانبول سنة ١٩٣١، ثم في النجف سنة ١٩٣٦ . وفي هذا الفصل ذكر لجميع المراجع التي استقى منها الكاتب أخباره .

(٢) الفهرست (ص ١٧٧ فلوجل = ٢٥٢ مصر) .

خزانة جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي

هذه الخزانة ، من أجلّ خزائن الكتب في مدينة الموصل ، في المائة الرابعة للهجرة . وكانت تُعرف بـ « دار العلم » . وقد مر وصفها في الصفحة ١٣٧ من هذا الكتاب .

خزانة ابن دريد

يعد أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي ، المعروف بابن دُريد البصري ، من أشهر علماء عصره في اللغة ونقد الشعر . وُلد في البصرة سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٧ م) ومات ببغداد سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) . وقد صنف تآليف عديدة ، انتهى الينا بعضها ، منها « الجمهرة في علم اللغة » و « المقصورة » و « الملاحن » و« السرج واللجام » و « الاشتقاق » .

ورجل في مثل علم ابن دريد ، لا يُشكّ في أنه أحرز خزانة كتب حافلة بأمهات الأسفار في اللغة والأدب والشعر . وقد أشار ياقوت إلى أن هذه الكتب قد صارت بعد موته ، إلى ورّاقه أبي الحسن علي بن أحمد الدريدي[1] .

خزانة أبي بكر بن الانباري

قال ابن الجوزي في سياق ترجمة ابن الأنباري هذا ، انه « كان من أعلم الناس بالنحو والأدب ، وأكثرهم حفظاً له وصنف كتباً كثيرة في علوم القرآن وغريب الحديث وغير ذلك »[2]. وقد كانت وفاته في سنة ٣٢٨ هـ (٩٣٩ م).

(١) معجم الأدباء (٥ : ٨١) .
(٢) المنتظم (٦ : ٣١٢) .

ويؤخذ مما سنورده من أخبار ، أن لأبي بكر بن الأنباري خزانة كتب ، فانه لما مرض ، « دخل عليه أصحابه يعودونه ، فرأوا من انزعاج أبيه وقلقه عليه أمراً عظيماً ، فطيبوا نفسه ورجوه العافية . فقال لهم : كيف لا أقلق وأنزعج لعلة من يحفظ جميع ما ترون ، وأشار لهم إلى حيري(١) مملوء كتباً »(٢) .

وهذا الخبر ، ساقه ياقوت الحموي والسيوطي في ترجمته ، باختلاف وهو انهما بدلاً من عبارة « حيري مملوء كتباً » ، قالا « خزانة مملوءة كتباً »(٣) .

ولتأييد القول في سعة محفوظات أبي بكر هذا ، نورد ما نقله ياقوت عن أبي علي القالي، لصلة ذلك بكبر خزانة كتبه: « كان أبو بكر بن الأنباري يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شاهد في القرآن، وكان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً بأسانيدها وقال له أبو الحسن العروضي : قد أكثر الناس في حفظك ، فكم تحفظ ؟ فقال : ثلاثة عشر صندوقاً ... وقال محمد بن جعفر التميمي : أما أبو بكر بن الأنباري، فما رأينا أحفظ منه ولا أغزر منه علماً . وكان يحفظ ثلاثة عشر صندوقاً ، وهذا مما لم يحفظه أحد قبله ولا بعده »(٤) .

خزانة ابن عقدة في الكوفة

صاحب هذه الخزانة ، أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد بن عبدالرحمن الكوفي ، المعروف بابن عقدة ، المتوفى سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ م) . وعقدة لقب

---

(١) الحيري : نسبة الى الحيرة . والمراد به ، ضرب من البناء أشبه ما يكون بالثوب الحيري ذي الكمين (بضم الكاف وفتح الميم مع تشديدها) . وللوقوف على ما يفي بهذا الموضوع ، راجع مقالة « الحيري بكمين » لميخائيل عواد (مجلة « الثقافة » : القاهرة ١٩٤٢ ، الأعداد ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٠) .

(٢) المنتظم (٦ : ٣١٢) .

(٣) المنتظم (٦ : ٧٣) ، وبغية الوعاة (ص ٩١) .

(٤) معجم الأدباء (٦ : ٧٣ – ٧٤) وانظر : نزهة الألباء (ص ٣٣٤) ، وبغية الوعاة (ص ٩١) .

أبيه محمد ، لُقب بذلك لأجل تعقيده في التصريف والنحو ، وكان يورّق بالكوفة ويعلم القرآن والأدب .

أما ابنه أبو العباس ، فقد كان أحد الثقات في الحديث ، ومن أحفظ الناس له في الكوفة . نقل الخطيب البغدادي قائلاً : « حُدثت عن أبي أحمد محمد بن محمد بن أحمد بن اسحق الحافظ النيسابوري ، قال : قال لي أبو العباس بن عقدة : دخل البرديجي الكوفة ، فزعم انه أحفظ مني . فقلتُ : لا تطول ، تتقدم إلى دكان وراق ، وتضع القبان ، وتزن من الكتب ما شئت ، ثم تلقى علينا فنذكره فبتي »(1).

ومما يدل على كثرة محفوظه قوله : «أحفظ مائة ألف حديث بالاسناد والمتن، وأذاكر بثلثمائة ألف حديث»(2). وعلى رواية أخرى قوله : « أنا أحفظ منسقاً من الحديث بالأسانيد والمتون خمسين ومائتي ألف حديث ، وأذاكر بالاسانيد وبعض المتون والمراسيل والمقاطيع ستمائة ألف حديث » .(3)

ومَن كانت هذه منزلته من العلم ، وجب أن يكون بين يديه خزانة حافلة بأمهات الأسفار وأعيان الكتب . وقد نوهت بعض المراجع بخزانته . « قال الصوري : وقال لي أبو سعد الماليني : أراد أبو العباس بن عقدة أن ينتقل من الموضع الذي كان فيه إلى موضع آخر ، فاستأجر من يحمل كتبه ، وشارط الحمالين أن يدفع لكل واحد منهم دانقاً(4) لكل كرّة ، فوزن لهم أجورهم مائة درهم ، وكانت كتبه ستمائة حِمل »(5).

---

(1) تاريخ بغداد للخطيب (٥ : ١٦) ، والمنتظم (٦ : ٣٣٧) . وقوله : « فبتي » كذا ورد في هذين المرجعين . ولعله فبقي مبهوتاً أو مدهوشاً .

(2) و (3) تاريخ بغداد للخطيب (٥ : ١٧) .

(4) الدانق : سدس الدرهم .

(5) بتاريخ بغداد للخطيب (٥ : ١٨) . وانظر : المنتظم (٦ : ٣٣٧) ، وشذرات الذهب (٢ : ٣٣٢) .

فاذا قلنا انه لم يكن في الحمل الواحد إلا عشرة مجلدات لا غير - وهذا على أقل تقدير - بلغ ما احتوته الخزانة ستة آلاف مجلد ... !

خزانة كتب الصولي

أبو بكر محمد بن يحي بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول تكين ، الكاتب المعروف بالصولي الشطرنجي ، أحد كبار الأدباء الاخباريين في المائة الرابعة للهجرة . وُلد ببغداد ونشأ بها . وكان نديماً للخلفاء متمكناً عندهم ، نادم المكتفي والمقتدر والراضي . وله تصانيف كثيرة نفيسة، انتهى إلينا بعضها. وكان من ألعب أهل زمانه بالشطرنج . مات في البصرة سنة ٣٣٥[١]هـ (٩٤٦م) .

ذكر ابن النديم، ان الصولي كان أحد الجامعين للكتب[٢]، جمع خزانة كتب كبيرة ، أشار اليها غير واحد من المؤرخين . فنقل الخطيب البغدادي قول الأزهري : « سمعتُ أبا بكر بن شاذان يقول : رأيت للصولي بيتاً عظيماً مملوءاً بالكتب ، وهي مصفوفة ، وجلودها مختلفة الألوان ، كل صف من الكتب لون : فصف أحمر ، وآخر أخضر ، وآخر أصفر ، وغير ذلك . قال : وكان الصولي يقول : هذه الكتب كلها سماعي. أنشدنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن القاسم العلوي ، قال أنشدني أبو الحسن محمد بن أبي جعفر النسابة ، قال : أنشدني أبو سعيد المعروف بالعقيلي - لنفسه في الصولي :

إنما الصولي شيخ　　　أعلم الناس خزانه
فاذا تسأله مشكلة　　　طالباً منـه ابانه[٣]

---

(١) وفاة الصولي صاحب كتاب الأوراق : ليعقوب سركيس (الاعتدال ٦ [١٩٤٦] ص ٤٥٨ - ٤٦٢ ، ٤٩٨ - ٥٠٦) .

(٢) الفهرست (ص ١٥٠ فلوجل = ٢١٥ مصر) .

(٣) هكذا ورد البيت في تاريخ بغداد للخطيب . والمراجع مختلفة في ايراده . ففي معجم الادباء :

=

قال: يا غلمان هاتوا   رزمة العلم فلانه »(١)

وذكر ياقوت الحموي ، ان « لأبي بكر الصولي خزانة أفردها لما جمع من الكتب المختلفة ، رتّبها فيها أجمل ترتيب . وكان يقول لأصحابه : كل ما في هذه الخزانة سماعي . وإذا أراد مراجعة كتاب منها ، قال : يا غلام ، هات الكتاب الفلاني »(٢).

فيؤخذ من ذلك ، ان الصولي رتّب لخزانته من يتعهدها وينظر في شؤونها.

ولقد أشار الصولي إلى ما حلّ بداره من نهب في سنة ٣٢٩ هـ (٩٤٠ م) ، وكان لابد أن تتعرض كتبه لهذه الرزية ، قال ان الديالم « صاروا إلى دار ابن ينال الترجمان ، وهي ملاصقتي بقصر عيسى ، فنهبوها . وصعدوا سطوحها فوجدوها كالمتصلة بسطوحي ، فنزلوا عليّ من فوق سطوحي ، وأنا غافل ، ولي مجلس وعندي خلق من أصحاب الحديث وأهل الأدب ، فوثبنا اليهم وكلمناهم ، فما نفعنا شيئاً . وخرج حرمنا هاربات . ولم يتركوا لي شيئاً من ذخائر وغيرها ، إلا أتوا عليها ، وأخذوا لي نحو مائتي قطعة من الثياب ، أكثرها من كسى الخلفاء وخلعهم . وأخذوا من الزجاج الفاخر والصيني ما لا يضبطه عددي . ووجدوا قطيمة من دفاتري فنهبوها ، وأخذوا كل ذخيرة لعيالي وثوب وجدوه لهم . وجعل من كان عندي يخرج ، فيلقاه قوم منهم على بابي فيفتشه ويأخذ شيئاً إن وجد معه »(٣) .

فهذه الحادثة قد أفقرت الصولي وجعلته في حال يرثى لها . حتى تراه يصرح

= ان سألناه بعلم   تبتغي عنه الابانه

وقريب من ذلك ما في وفيات الأعيان .

(١) تاريخ بغداد للخطيب (٣ : ٤٣١ ـ ٤٣٢) . وهذه الرواية وردت أيضاً في : نزهة الألباء (ص ٣٤٤) ، والمنتظم (٦ : ٣٥٩) ، ووفيات الأعيان (١ : ٧٢٧) ، وغيرها .

(٢) معجم الأدباء (٧ : ١٣٦) .

(٣) أخبار الراضي بالله والمتقي لله (ص ٢١٠) .

قائلاً : « وإني لفقير مذ ذاك ، لا رزق لي ولا اتصال بمن يصلني وينفعني ، أتقوّت أثمان دفاتري وثمن بستان لي كان عيشي وجنتي »[١].

وقد ذكرنا في كلامنا على خزانة الراضي بالله[٢] ، ان هذا الخليفة وهب الصولي جانباً من خزانة كتبه .

خزانة هرون بن المقتدر بالله

هرون هذا ، هو أخو الخليفة الراضي بالله ، وكنيته أبو عبدالله[٣] . ولم يتولّ الخلافة . وقد كان عاملاً على فارس ، ثم عزله القاهر سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م) .

أنشأ هرون خزانة كتب منذ أيام صباه . وقد أوردنا في كلامنا على « خزانة الراضي بالله »[٤] ، ما ذكره الصولي ، وهذا إعادة بعضه : « ... فحببتُ العلم اليهما[٥] ، واشتريتُ لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار قطعةً حسنة ، فتنافسا في ذلك ، وعمل كل واحدٍ منهما خزانة لكتبه ، وقرآ عليّ الأخبار والأشعار ... »[٦].

خزانة علي بن أحمد العمراني بالموصل

والعمراني هذا ، من أهل الموصل . وصفه ابن النديم بقوله انه « كان فاضلاً ، جمّاعة للكتب ، يقصده الناس من المواضع البعيدة للقراءة عليه »[٧].

---

(١) أخبار الراضي بالله والمتقي لله (ص ٢١١) .

(٢) أنظر الصفحة ١١٦ من هذا الكتاب .

(٣) صلة تاريخ الطبري (ص ١٨٠ طبعة دي غويه في ليدن) .

(٤) أنظر الصفحة ١١٥ من هذا الكتاب .

(٥) الضمير يعود الى الراضي بالله وأخيه هرون .

(٦) أخبار الراضي بالله والمتقي لله (ص ٢٥) .

(٧) الفهرست (ص ٢٨٣ فلوجل = ٢٩٤ مصر) .

وزاد القفطي على ما ذكره ابن النديم ، ان العمراني كان عالماً بالحساب والهندسة ، وان كتبه هي : شرح كتاب الجبر والمقابلة لأبي كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصري . وكتاب الاختيارات . عدة كتب في النجوم وما يتعلق بها[1].

وذكر ابن النديم في موطن آخر من كتابه ، ان المقالة العاشرة من أصول الهندسة لأقليدس بنقل أبي عثمان الدمشقي، رآها بالموصل في خزانة علي بن أحمد العمراني[2].

وأشار أيضاً ، في كلامه على أبي العتاهية ، إلى أن « الذي رأيتُ من شعره بالموصل ، نيفاً وعشرين جزءاً أنصاف الطلحي ، بخط ابن عمار كاتب شعر المحدثين . وكان ما رأيته يدل على انها من ثلاثين جزءاً »[3].

ولم يتعين عندنا أين رأى ابن النديم شعر أبي العتاهية ، أفي خزانة العمراني هذا الذي رأى فيها بعض الأسفار على ما اسلفنا ، ام في « دار العلم »[4] ، ام في خزانة كتب موصلية أخرى نجهل اسمها ؟

خزانة ابن الكوفي

وابن الكوفي هذا ، هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبيد بن الزبير الاسدي، المتوفى سنة ٣٤٨هـ (٩٥٩م) . كان من جمّاعي الكتب وأرباب الهوى فيها . صنّف جملة كتب في اللغة والادب والنحو ، ذكرها مترجموه بأسمائها ، وقد ضاعت كلها . ومما وصفوه به انه « صاحب الخط المعروف بالصحة ، المشهور

---

(١) أخبار الحكماء للقفطي (ص ٢٣٣) .

(٢) الفهرست (ص ٢٦٥ ليبزج = ٣٧١ مصر) ، وانظر أخبار الحكماء للقفطي (ص ٦٤) .

(٣) الفهرست (ص ١٦٠ ليبزج = ٢٢٧ مصر) .

(٤) وصفنا « دار العلم » الموصلية هذه ، في الصفحة ١٣٧ من هذا الكتاب .

بإتقان الضبط وحسن الشكل . فإذا قيل : نقلتُ من خط ابن الكوفي ، فقد بالغ في الاحتياط . وكان من أجلّ أصحاب ثعلب »(١).

وقال فيه ابن النديم ، انه « عالم صحيح الخط ، راوية ، جمّاعة للكتب ، صادق في الحكاية ، منقّر بحاث »(٢).

خزانة ابن الجعابي

أبو بكر محمد بن عمر المعروف بابن الجعابي ، كان قاضياً في الموصل ، راويةً للحديث حفاظة له . مات ببغداد سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) . وقد جمع خزانة كتب آل مصيرها إلى التلف . حكى عن نفسه قائلاً : « دخلتُ الرقة ، وكان لي ثم قطر من كتب . فأنفذت غلامي إلى ذلك الرجل الذي كتبي عنده . فرجع الغلام مغموماً فقال : ضاعت الكتب ! فقلتُ : يا بني ، لا تغتم ، فان فيها مائتا ألف حديث لا يشكل عليّ منها حديث ، لا إسناداً ولا متناً »(٣).

فغالب ما كان في هذا القمطر ، كتب الحديث النبوي . ولئن هانت الخسارة بعض الشيء بضياع هذه الكتب في حياة صاحبها ، لانه كان يعي في صدره ما اشتملت عليه صحائفها من علم ، ان الخسارة كانت أدهى وأمر بحرق خزانته جملةً بعد وفاته . فذكر الخطيب البغدادي ، ان ابن الجعابي هذا ، لما احتضر « أوصى بأن تحرق كتبه . فأحرق جميعها ، وأُحرق معها كتب للناس كانت عنده . قال الازهري : فحدثني أبو الحسين ، قال : كان لي عند ابن الجعابي مائة وخمسون جزءاً ، فذهبت في جملة ما أحرق »(٤).

فما أغرب هذه الوصية ، وما أعجب شأن هذا الرجل !

---

(١) معجم الأدباء (٥ : ٣٢٦) . وانظر : بغية الوعاة (ص ٣٠٠) .
(٢) الفهرست (ص ٧٩ فلوجل = ١١٧ مصر) .
(٣) المنتظم (٧ : ٣٧) .
(٤) تاريخ بغداد للخطيب (٣ : ٣١) ، والمنتظم (٧ : ٣٨) ، والبداية والنهاية (١١ : ٢٦٢).

خزانة كتب الحبشي بن معز الدولة البويهي

في البصرة

وقفنا على ذكر هذه الخزانة الحافلة، في جملة حوادث سنة ٣٥٧هـ (٩٦٧م). قال مسكويه، في سياق كلامه على مصادرة صاحبها الحبشي حين أراد أن يعصى أخاه عزّ الدولة بختيار أمير بغداد، ان مما صودر منه «خزانة كتبه، وفيها خمسة عشر ألف مجلد، سوى الاجزاء والمشْرس[1] غير المجلد»[2].

وقد أشار ابن الاثير[3] إلى هذه الخزانة في كلامه على هذه السنة من تاريخه، بما لا يخرج عما ذكره مسكويه، فا كتفينا بالتلميح إلى ذلك.

ولم تفصح المراجع التاريخية التي بيدنا، عن كيفية جمع هذه الخزانة العظيمة، ولا عن مبلغ انتفاع صاحبها من علم ما فيها.

خزانة أحمد بن محمد الجراح

كان هذا الرجل، ثقةً صدوقاً فاضلاً ظاهر الثروة. وكان أحد مشاهير الفرسان في زمانه. وقد توفي ببغداد سنة ٣٨١هـ (٩٩١م). والذي يهمنا من أمره في بحثنا، خزانة كتبه. فلقد كان كثير الكتب. وهو القائل: «كتبي بعشرة آلاف درهم، وجاريتي بعشرة آلاف درهم، وسلاحي بعشرة آلاف درهم، ودوابي بعشرة آلاف درهم»[4]!

---

(١) قال ناشر تجارب الأمم: كذا في الأصل. وعند ابن الأثير وفي القاموس: المسرس، قال صاحب تاج العروس: يقال مصحف مشرز ومسرس. المشدود بعضه الى بعضه، المضموم طرفاه. فان لم يضم طرفاه فهو مسرس بسينين.

(٢) تجارب الأمم لمسكويه (٢ : ٢٤٦)، حوادث سنة ٣٥٧ هـ. طبعة امدروز).

(٣) الكامل في التاريخ (٨ : ٤٣١).

(٤) تاريخ بغداد للخطيب (٥ : ٨١ ـ ٨٢)، والمنتظم (٧ : ١٦٥).

خزانة محمد بن العباس ابن الفرات

أثنى عليه الخطيب البغدادي وقال فيه : « كان ثقةً ، كتب الكثير ، وجمع ما لم يجمعه أحد في وقته . وبلغني أنه كان عنده عن علي بن محمد المصري وحده ألف جزء ، وانه كتب مائة تفسير ومائة تاريخ ... حدثني أبو القاسم الازهري قال : خلف ابن الفرات ثمانية عشر صندوقاً مملوءة كتباً ، اكثرها بخطه ، سوى ما سُرق من كتبه . وكانت له أيضاً سماعات كثيرة مع غيره لم ينسخها ... ومكث يكتب الحديث من قبل سنة ثلاثين وثلثمائة (٩٤١ م) إلى أن مات » .[١]

ومن طريف أمر ابن الفرات هذا ، انه « كانت له جارية تعارضه بما يكتبه »[٢].

مات ببغداد سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) .

خزانة ابن طازاذ

هو أبو سعيد وهب بن ابراهيم بن طازاذ . أحد الادباء الكتاب . كان من أبناء المائة الرابعة للهجرة . قال ابن النديم في الترجمة القصيرة التي عقدها له انه « ممن شاهدناه . وكان أديباً مترسلاً ، جمّاعة للكتب النفيسة ، وخيراً في نفسه . وكان بقية من رأيناه من الكتّاب »[٣] . ثم ذكر أسماء ثلاثة كتب أدبية من تأليفه .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب (٣ : ١٢٢ - ١٢٣) ؛ والمنتظم (٧ : ١٧٦ - ١٧٧) .
(٢) المرجعان السابقان .
(٣) الفهرست (ص ١٣١ فلوجل = ١٨٩ مصر) . وقد ورد اسمه في الطبعة المصرية : ابن طاراذ بالراء المهملة .

خزانة ابن حاجب النعمان

صاحب هذه الخزانة ، هو أبو الحسين عبد العزيز بن ابراهيم . كان أبوه حاجب النعمان أبي عبد الله الكاتب . وهو أحد الأدباء الكتّاب في المائة الرابعة للهجرة . أثنى عليه ابن النديم ووصف خزانة كتبه الحافلة النفيسة بقوله : «كان أبو الحسين ، أحد أفراد الزمان في الفضل والنُبل ومعرفة كتابة الدواوين . وكان إليه في أيام معز الدولة ديوان السواد . ولم يشاهد خزانة للكتب أحسن من خزانته ، لأنها كانت تحتوي على كل كتاب عين وديوان فرد بخطوط العلماء المنسوبة »(١). ثم ذكر ابن النديم أسماء مؤلفاته ، وهي ستة كتب أدبية، لم يتصل إلينا شيء منها .

أما تلك الخزانة الفريدة ، فالله وحده يعلم ما كان من مصيرها بعد صاحبها !

خزانة ابن النديم

أبو الفرج محمد بن اسحق النديم ، الذي اشتهر بكتاب « الفهرست »، وهو من أنفس التصانيف العربية وأحفلها بالفوائد ومن أجلّ مراجعنا في هـذا الكتاب ، أحد العلماء الأفذاذ الذين شاء الزمان أن يكونوا من المغمورين . فلم نجد في ما بين يدينا من كتب التراجم من عُني بتدوين ترجمته بوجه يفي بالمرام . وهذا ياقوت الحموي ، لم يذكر إلا النزر عن حياته بما لا يبلغ خمسة أسطر(٢).

والذي يؤخذ من كتاب الفهرست ، ان ابن النديم كان من أبناء المائة الرابعة للهجرة ، وعاش حتى بلغ أواخرها . وكان وراقاً يبيع الكتب(٣) ،

---

(١) الفهرست (ص ١٣٤ فلوجل = ١٩٣ مصر) .
(٢) معجم الادباء (٦ : ٤٠٨) .
(٣) أنظر الصفحة ١٥ من هذا الكتاب .

وكانت له خزانة تحوي من الكتب أندرها وأنفسها . ولا غرو فان ابن النديم ، وهو ذاك الوراق العالم المحب للكتب ، المتتبع لها المستقصي أخبارها ، أتيح له أن يجمع منها خزانة يمكننا أن نحدس أنها اشتملت على جملة من الكتب التي ذكرها صاحبها في كتاب الفهرست .

خزانة أبي خليفة في البصرة

صاحب هذه الخزانة ، من أهل المائة الرابعة للهجرة . وقد جمع كتبها في داره في البصرة . وليس لدينا من أخبار خزانته سوى ذكر خفيف لها في حكاية ساقها التنوخي في نشواره، على لسان أبي علي الحسن بن سهل بن عبدالله الايذجي ، قال : « وحدثني صديق لأبي وعمي ، أيام وفدا إلى كور الأهواز في فتنة الزنج فلما قدمت إلى البصرة قدمتها مع أبي ، فأنزلنا أبو خليفة داره وأكرمنا ، ومكنني من كتبه . فكنت أقرأ عليه كلما أريد وأسمع كيف شئت وأحب ، وأكتب وأنسخ لنفسي أصوله . فاذا كان الليل جلسنا وتحادثنا ، فربما رمت القراءة عليه فيجيبني ، فاذا أضجرته بكثرة القراءة عليه يقول : يا بنيّ ، روّحني . فأقطع القراءة . وإذا استراح أخرج من كمه دفتراً في ورق أصفر من الورق العتق ، فيقول اقرأ عليّ من هذا فانه خطي وما تقرأه علي فهو غير خطي ، فكنت أقرأ عليه منه ، وكان فيه ديوان عمران بن حطان ... » .(١)

خزانة في بغداد لاحد الرؤساء

هذه الخزانة ، تطرّق لذكرها ياقوت الحموي ، ولكنه لم يشر وا أسفا إلى اسم صاحبها . ولئن فاتنا العلم بأمر صاحبها ، فلا أقل من أن نورد خبرها هاهنا استكمالاً للبحث . فننقل ياقوت قول أحمد بن عمر بن روح : « ان المعافا بن

---

(١) نشوار المحاضرة للتنوخي (٢ : ١٦٦) .

زكريا(١) ، حضر في دار بعض الرؤساء . وكان فيها جماعة من أهل العلم . فقالوا له : في أي نوع من العلم نتذاكر ؟ فقال المعافا للرئيس صاحب الدار : ان خزانتك جمعت أنواع العلوم وأصناف الأدب . فان رأيت ان تبعث الغلام اليها ، يضرب بيده إلى أي كتاب منها ، فيحمله اليك ، ثم نفتحه فننظر في أي علم هو ، فنتذاكر ونتجارى فيه . قال ابن روح : وهذا يدل على أن المعافا كان له أنسة بسائر العلوم »(٢).

فهذه إذن ، إحدى الخزائن الزاخرة بصنوف الكتب ، في النصف الثاني من المائة الرابعة للهجرة !

خزانة بغدادية لرجل مجهول

هذه الخزانة لرجل من أبناء المائة الرابعة للهجرة ، كان يعيش ببغداد . وقد علمنا ذلك مما نقله ياقوت في ترجمة أبي الفرج الاصفهاني صاحب الأغاني، بقوله : « قال أبو الفرج : وكنت في أيام الشبيبة والصبى، آلف فتى من أولاد الجند ، في السنة التي توفي فيها معز الدولة(٣) وولي بختيار . وكانت لأبيه حال كبيرة

(١) توفي سنة ٣٩٠ هـ (٩٩٩ م) .
(٢) معجم الادباء (٧ : ١٦٣) .
(٣) توفي معز الدولة البويهي في سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٦ م) ، وهي السنة التي مات فيها أبو الفرج الاصفهاني ، على ما ذهبت اليه أكثر المراجع القديمة . ولكن هذا التاريخ يناقض قول أبي الفرج المنقول أعلاه من انه « في أيام الشبيبة والصبي آلف فتى من أولاد الجند ، في السنة التي توفي فيها معز الدولة » وقد تنبه ياقوت لهذا الاختلاف، وأورد نصاً من كتاب « أدب الغرباء » لأبي الفرج ، يستدل منه على أنه كان حياً بعد سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) . ثم ان تلك المراجع تقول انه ولد سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) . فبين تاريخ ولادته وتاريخ وفاة معز الدولة نحو سبعين سنة . ومن كان قد تخطى السبعين من عمره لا يصح له ان يقول انه في عهد الشبيبة والصبي . فلعل الوهم من ابي الفرج نفسه في ذكره لمعز الدولة . أو لعل الحكاية جرت لغير ابي الفرج .

ومنزلة من الدولة ورتبة . وكان الفتى في نهاية حسن الوجه وسلاسة الخلق وكرم الطبع ، ممن يحب الأدب ويميل إلى أهله ، ولم يترك قريحته حتى عرف صدراً من العلم . وجمع خزانة من الكتب حسنة . فمضت لي معه سير لو حفظت لكانت في كتاب مفرد من مكاتبات ومعاتبات وغير ذلك مما يطول شرحه » .(١)

خزانة أبي سليمان

هكذا ذكره ابن النديم في سياق حديثه عن بعض الكتب انها «عند شيخنا أبي سليمان » . فلعله أراد به « أبا سليمان المنطقي » ، وهو محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني المنطقي ، من أكبر علماء بغداد في المائة الرابعة للهجرة ، المتوفى تخميناً في السنوات العشر الأخيرة من تلك المائة(٢) .

ولم ينته إلينا من أخبار خزانته ، إلا ما حكاه ابن النديم في قصة الكتب التي وجدت مخزونة في بعض بقاع فارس ، قال في خبر طريف منقول من كتاب « اختلاف الزيجات » لأبي معشر الفلكي ، ما هذا نصه :

« قال أبو معشر في كتاب اختلاف الزيجات : ان ملوك الفرس بلغ من عنايتهم بصيانة العلوم ، وحرصهم على بقائها على وجه الدهر ، وإشفاقهم عليها من أحداث الجو وآفات الأرض ، ان اختاروا لها من المكاتب أصبرها على الأحداث وأبقاها على الدهر ، وأبعدها من التعفن والدروس ، لحاء شجر الخدنك ، ولحاؤه يسمى التوز . وبهم اقتدوا أهل الهند والصين ومن يليهم من الامم في ذلك ، واختاروها أيضاً لقسيّهم التي يرمون عنها ، لصلابتها وملاستها وبقائها على القسيّ غابر الأيام . فلما حصّلوا لمستودع علومهم أجود

---

(١) معجم الادباء (٥ : ١٦٠) .
(٢) الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (١ : ٢٩ ، الحاشية ١) .

ما وجدوه في العالم من المكاتب ، طلبوا لها من بقاع الأرض وبلدان الأقاليم أصحها تربة وأقلها عفونة ، وأبعدها من الزلازل والخسوف ، وأعلكها طيناً ، وأبقاها على الدهر بناء . فانتفضوا بلاد المملكة وبقاعها ، فلم يجدوا تحت أديم السماء بلداً أجمع لهذه الأوصاف من أصفهان ، ثم فتشوا عن بقاع هذا البلد فلم يجدوا فيها أفضل من رستاق جي ، ولا وجدوا في رستاق جي أجمع لما راموه من الموضع الذي اختط من بعد فيه بدهر داهر مدينة جي ، فجاءوا إلى قهندز ، هو في داخل مدينة جي ، فأودعوه علومهم . وقد بقي إلى زماننا هذا ، وهو يسمى سارويه ، ومن جهة هذه البنية درى الناس من كان بانيها ، وذلك انه لما كان قبل زماننا هذا بسنين كثيرة ، تهدمت من هذه المصنعة ناحية ، فظهروا فيها على أزج معقود من طين الشقيق ، فوجدوا فيه كتباً كثيرة من كتب الأوائل مكتوبة كلها في لحاء التوز ، مودعة أصناف علوم الأوائل بالكتابة الفارسية القديمة ، فوقع بعض تلك الكتب إلى من عني به فقرأه ... » .

إلى أن يقول :

« قال محمد بن اسحق : خبرني الثقة انه انهار في سنه ٣٥٠ من سني الهجرة ، أزج آخر لم يعرف مكانه ، لانه قدر في سطحه انه مصمت إلى أن انهار وانكشف عن هذه الكتب الكثيرة التي لا يهتدي أحد إلى قراءتها . والذي رأيت أنا بالمشاهدة ، ان أبا الفضل بن العميد أنفذ إلى هاهنا في سنة نيف وأربعين (وثلاثمائة) كتباً منقطعة اصيبت باصفهان ، في سور المدينة في صناديق ، وكانت باليونانية ، فاستخرجها أهل هذا الشأن مثل يوحنا وغيره ،

وكانت أسماء الجيش ومبلغ أرزاقهم ، وكانت الكتب في نهاية نتن الرائحه ، حتى كأن الدباغة فارقتها عن قرب . فلما بقيت حولاً جفت وتغيرت وزالت الرائحة عنها . ومنها في هذا الوقت شيء عند شيخنا أبي سليمان »[1].

---

(١) الفهرست (ص ٢٤٠ - ٢٤١ فلوجل = ٣٣٤ - ٣٣٦ مصر).

ومن كان يحرز مثل هذه النوادر الخطية العجيبة والدرر اليتيمة ، لا مراء أن تكون خزانة كتبه من أنفس الخزائن وأجمعها لأمهات الأسفار وأحفلها بالتصانيف المنوعة التي تجمع بين ثقافات الأمم القديمة المختلفة . وحسبنا أن نعلم إجماع علماء عصره على إمامته في علوم الفلسفة والمنطق وغيرها .

خزانة الشريف الرضي(١)

كان الشريف الرضي من أقطاب عصره ، وممن يعوّل عليهم في المشاكل العلمية وحلّ المعضلات الدينية والسياسية . ولشعره مكانة عظيمة في نفوس الأدباء ، وقد طُبع ديوانه مرتين .

توفي الشريف الرضي ببغداد ، سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) . ولسنا بصدد ترجمته . فان مثله في غنىً عن التعريف به ، لبعد صيته الأدبي . ولقد عُني المتقدمون والمتأخرون بكتابة ترجمته . ولا مندوحة لنا من إطراء السفر النفيس الذي خصه به الدكتور زكي مبارك ، فهو من أروع وأجلّ ما كُتب في الشريف الرضي(٢) .

أنشأ الشريف الرضي مؤسسة ثقافية أسماها « دار العلم » . وكان ينفق على تلامذتها من ماله الخاص ، ويُلقي فيها المحاضرات العلمية . ولم تكن « دار العلم » مدرسة حسب ، بل كان يتبعها « مخزن » فيه جميع ما يحتاجه الطالب من الامور المادية . وإلى جانب ذلك « خزانة كتب » حافلة عُرفت بـ « خزانة دار العلم » وقد كانت هذه الخزانة في مصاف الخزائن الكبرى ببغداد ، منظمة تنظيماً حسناً(٣).

وسيرد في هذا الكتاب ، وصف خزانة أخيه السيد الشريف المرتضى .

---

(١) أغلب حياة الشريف الرضي ، داخلة في المائة الرابعة للهجرة . ولكننا أدرجنا الكلام على خزانته في المائة الخامسة ، لأن وفاته كانت في أوائلها .

(٢) عبقرية الشريف الرضي للدكتور زكي مبارك (مجلدان. الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٣٩–١٩٤٠) .

(٣) راجع مقدمة المجلد الخامس من « حقائق التأويل في متشابه التنزيل » للشريف الرضي . لمحمد الرضا آل كاشف الغطاء . (النجف ١٩٣٦ ، ص ٨٥ – ٨٦) ، ومجلة العرفان (٣٢ [١٩٣٦] ص ٥٢٤) .

خزانة ابن الخفاف

واسم هذا الرجل محمد بن الحسين بن ابراهيم بن محمد ، أبو بكر الوراق المعروف بابن الخفّاف ، المتوفى سنة ٤١٨ ﻫ (١٠٢٧ م) وكان من رجال الحديث ببغداد . وقد طعن به الخطيب البغدادي بقوله : « وكان غير ثقة ، لا أشك أنه كان يركب الاحاديث ويضعها على من يرويها ، ويختلق أسماءاً وأنساباً عجيبة لقوم حدث عنهم ، وعندي عنه من تلك الاباطيل أشياء . وكنتُ عرضت بعضها على هبة الله بن الحسن الطبري فخرق كتابي بها ، وجعل يعجب مني كيف أسمع منه »[1].

وقد نبّه الخطيب إلى خزانة الكتب التي كان يحرزها هذا المحدث المخلّط ، بقوله : « وقال لي ابن الخفاف : احترق مرة سوق باب الطاق[2] ، فاحترق من كتبي ألف وثمانون مناً كلها سماعي »[3].

ولم يتعين عندنا ما أراده بهذا القدر من أمنان الكتب .

خزانة البرقاني

والبرقاني هذا ، هو أبو بكر أحمد بن محمد بن غالب الخوارزمي ، المعروف بالبرقاني . سكن بغداد وتوفي فيها سنة ٤٢٥ ﻫ (١٠٣٣ م) . كان عالماً ثبتاً بالحديث حافظاً للقرآن ، عارفاً بالفقه ، له حظ من علم العربية . وقد دار الاقطار في سماع الحديث وكتابته عن كبار العلماء ، فتلقّاه في بلده برقان ، ثم في بغداد وجرجان واسفرايين ونيسابور وهراة ومرو وبلاد أخرى .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب (٢ : ٢٥٠) .

(٢) باب الطاق : محلة كبيرة كانت بالجانب الشرقي من بغداد تعرف بطاق أسماء (معجم البلدان . مادة « باب الطاق » و « طاق اسماء ») .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب (٢ : ٢٥٠) .

كان لأبي بكر البرقاني خزانة كتب كبيرة ، أشار إليها الخطيب البغدادي في سياق كلامه عليه ، قال : « حدثني أحمد بن غانم الحامي ـ وكان شيخاً صالحاً يديم الحضور معنا في مجالس الحديث ـ قال : انتقل أبو بكر البرقاني من الكرخ إلى قرب باب الشعير[١] ، فسألني أن أشرف على حمالي كتبه وقال : إن سئلت عنها في الكرخ ، فعرّفهم انها دفاتر لئلا يظن انها إبريسم ، وكانت ثلاثة وستين سفطاً[٢] وصندوقين ، كل ذلك مملوء كتباً . وقال لي عيسى بن أحمد الهمذاني : لم ينظر في كتب البرقاني كلها من أصحاب الحديث غير أبي الحسن النعيمي ، فانه نظر في جميعها وعلّق منها »[٣].

وخبر هذه الخزانة ، نقله ابن الجوزي[٤] ، وياقوت الحموي[٥] ، بما لا يخرج عما ذكره الخطيب ، فاكتفينا بالاشارة دون التكرار .

ولمح ابن كثير إلى خزانة البرقاني تلميحاً خفيفاً بقوله انه «جمع كتباً كثيرة جداً » .[٦]

وصاحب هذه الخزانة ، ترجمه غير واحد من المكتبة المؤرخين كالسمعاني[٧] والسبكي[٨] وابن العماد الحنبلي[٩] ـ ومصدرهم في ما كتبوا ، الخطيب ـ ولكنهم أغفلوا الاشارة إلى خزانته .

---

(١) محلة ببغداد فوق مدينة المنصور (معجم البلدان . مادة « باب الشعير ») .
(٢) السفط ، محركة : وعاء كالقفة أو كالجوالق . والمراد به هاهنا هذا الثاني .
(٣) تاريخ بغداد للخطيب (٤ : ٣٧٥) .
(٤) المنتظم (٨ : ٨٠) .
(٥) معجم البلدان (مادة : برقان) .
(٦) البداية والنهاية (١٢ : ٣٦) .
(٧) الأنساب (ظهر الورقة ٧٤) .
(٨) طبقات الشافعية الكبرى (٣ : ١٩) .
(٩) شذرات الذهب (٣ : ٢٢٨) .

خزانة الشريف المرتضى

هو أبو القاسم علي الموسوي الحسيني ، نقيب الطالبيين ببغداد ، المعروف بالسيد الشريف المرتضى . وُلد ببغداد سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) . وكان أوحد زمانه فضلاً وعلماً وأدباً . ألـّف كثيراً من الأسفار ، ضاع أغلبها . وأشهر ما انتهى الينا منها كتاب «الأمالي» وهو مطبوع متداول . و«ديوان شعره» ، وهو لم يُطبع . وفي بعض خزائن كتب النجف وغيرها[1] نسخ منه .

كان المرتضى محباً للكتب إلى حدٍ بعيد ، جمّاعةً لها . وقد أحرز خزانة واسعة ، قلّ ان اجتمع نظيرها عند أحدٍ غيره .

نقل صاحب كتاب روضات الجنات بصدد هذه الخزانة ، قولاً يحسن بنا ايراده في هذا المقام : « ذكر أبو القاسم التنوخي ، صاحب الشريف ، قال : حصرنا كتبه ، فوجدناها ثمانين ألف مجلد من مصنفاته ومحفوظاته ومقروءاته . وكذا نُقل أيضاً عن صاحب عمدة النسب »[2] .

وعمدة النسب المشار اليه في هذا الكلام ، هو كتاب « عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب » لابن عنبة العلوي ، المتوفى سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٤ م) — وقد ذُكر غير مرة — جاء فيه : « ... رأيت في بعض التواريخ ان خزانته (يريد خزانة المرتضى) اشتملت على ثمانين ألف مجلد . ولم أسمع بمثل هذا، إلا ما يحكى عن الصاحب اسماعيل بن عباد . كتب إلى فخر الدولة بن بويه ، وكان قد استدعاه للوزارة ، فتعذّر بأعذارٍ منها انه قال : إني رجل طويل الذيل ، وان كتبي تحتاج إلى سبعمائة بعير . حكى الشيخ الرافعي انها كانت مائة ألف وأربعة عشر ألفاً . وقد أناف القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني[3] على جميع من جمع

---

(١) أم الآثار المخطوطة في النجف : ديوان الشريف المرتضى : لعلي الخاقاني (الاعتدال ٥ [١٩٤٠] ص ٥٣٣ — ٥٣٥) .
(٢) روضات الجنات للخوانساري (ص ٣٨٣) .
(٣) في الطبعة النجفية من عمدة الطالب : عبد الرحمن الشيباني . وهو تحريف .

كتباً ، فاشتملت خزانته على مائة ألف وأربعين ألف مجلدة . وكان المستنصر قد أودع خزانته في المستنصرية ثمانين ألف مجلد على ما قيل . والظاهر انه لم يبق منها شيء ، والله الباقي »[1].

فهذه الخزائن العظمى التي قلّ أن يجود الدهر بنظائرها ، قد ذهب أمرها منذ أيام ابن عنبة ، فهي لم تكن معروفة في أوائل المائة التاسعة للهجرة ، لضياع كتبها .

وقد نوّه الثعالبي – فيما نقله عنه الخوانساري – بقيمة خزانة المرتضى بقوله: «وقال الثعالبي في كتاب يتيمة الدهر : انها قوّمت بثلاثين ألف دينار ، بعد أن أهدى إلى الرؤساء والوزراء منها شطراً عظيماً »[2].

خزانة أبي الحسن الفالي

كان أبو الحسن الفالي ، من فالة (بالفاء) وهي بلدة قريبة من إيذج من بلاد خوزستان . انتقل إلى البصرة فأقام بها مدة ، وسمع بها من جماعة من علمائها . ثم قدم بغداد فاستوطنها ، ومات بها في ذي القعدة سنة ٤٤٨ هـ[3] (١٠٥٦ م) .

كان الفالي ثقة ، له معرفة بالأدب والشعر . وقد جمع خزانة حوت نفائس الكتب . من ذلك كتاب « الجمهرة » لابن دريد . حدّث أبو زكريا التبريزي ، قال : « رأيتُ نسخةً من كتاب الجمهرة لابنُ دريد ، باعها أبو الحسن الفالي بخمسةً دنانير من القاضي أبي بكر بن بديل التبريزي ، وحملها إلى تبريز .

---

(١) عمدة الطالب (ص ١٩٥ طبعة النجف) .

(٢) روضات الجنات (ص ٣٨٤) .

(٣) أنظر ترجمته في : تاريخ بغداد للخطيب (١١ : ٣٣٤) ، والانساب (وجه الورقة ٤١٨) ، ومعجم الادباء (٥ : ٨٢ – ٨٤) ، ومعجم البلدان (مادة : فالة) .

فنسخت أنا منها نسخة ، فوجدت في بعض المجلدات رقعة بخط الفالي ، فيها :

أنست بها عشرين حولاً وبعتها فقد طال شوقي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبية صغار عليهم يستهل شؤوني
فقلت ولم أملك سوابق عبرة مقالة مشوي الفؤاد حزين
وقد يخرج الحاجات يا أم مالك كرائم من رب بهن ضنين

فأريت القاضي أبا بكر الرقعة والأبيات ، فتوجع وقال : لو رأيتها قبل هذا لرددتها عليه ، وكان الفالي قد مات »[1].

خزانة الخطيب البغدادي

الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) ، من أجل علماء عصره . ألف شيئاً كثيراً من الكتب ضاع أغلبها وأشهر ما بأيدي الناس منها اليوم ، « تاريخ بغداد » الذي طبع في القاهرة سنة ١٩٣١ في أربعة عشر مجلداً . وهو من جملة مراجعنا المهمة في هذا الكتاب .

جمع الخطيب لنفسه خزانة كتب . فذكر ابن الجوزي وياقوت الحموي بصددها ، ان الخطيب « وقف كتبه على المسلمين ، وسلمها إلى أبي الفضل بن خيرون ، فكان يعزها ، ثم صارت إلى ابنه الفضل ، فاحترقت في داره »[2].

وأشار ياقوت في غير هذا الموطن من كتابه ، إلى بعض مما كان حصله الخطيب البغدادي من الكتب ، فقال : « وحدث أبو سعد السمعاني . قرأت بخط والدي ، سمعت أبا الحسين بن الطيوري ببغداد يقول : أكثر كتب الخطيب ، سوى التاريخ ، مستفاد من كتب الصوري ، كان الصوري بدأ بها

---

(١) معجم الادباء (٥ : ٨٣) .
(٢) المنتظم (٨ : ٢٦٩) ، ومعجم الادباء (١ : ٢٥٢ و ٢٥٩) ، ووفيات الاعيان (١ : ٣٨) .

ولم يتمها . وكانت للصوري أخت بصُور، مات وخلّف عندها اثني عشر عدلاً محزوماً من الكتب . فلما خرج الخطيب إلى الشام حصل من كتبه ما صنف منها كتبه »(١).

خزانة مسعود بن ناصر الشجري(٢)

أقام مدةً ببغداد يدور على الشيوخ . وسمع الحديث بها وبواسط وهراة ونيسابور وسجستان وغيرها. قال ابن الجوزي، انه « حصل كتباً كثيرة ونسخاً نفيسة ، وكان حسن الخط صحيح النقل ، حافظاً ضابطاً متقناً ومكثراً . واحتبسه نظام الملك بناحية بيهق مدة ثم بطوس للاستفادة منه . ثم انتقل في آخر عمره إلى نيسابور فاستوطنها ، ووقف كتبه فيها في مسجد عقيل »(٣).

خزانة غرس النعمة الصابىء

هو أبو الحسن محمد بن هلال الصابىء ، الملقب بغرس النعمة . وأبوه هلال المؤرخ المشهور ، صاحب « تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء » و « رسوم دار الخلافة » و « التاريخ » وغير ذلك . وقد كان الابن على غرار أبيه في حب العلم والاقبال على التأليف ، فصنف كتباً في التاريخ والأدب ضاعت كلها . وكانت وفاته ببغداد سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) .

أنشأ غرس النعمة ، دار كتب بالجانب الغربي من بغداد ، في شارع

---

(١) معجم الادباء (١ : ١٤٩) . وراجع المنتظم (٨ : ١٤٣ - ١٤٤) .

(١) ما في تذكرة الحفاظ (٤ : ١٥) : السجزي . وشذرات الذهب (٣ : ٢٥٧) : الشجري . اما الانساب للسمعاني فلم يذكر هذا الشخص في كلامه على من عرف بهذه النسب الثلاث .

(٣) المنتظم (٩ : ١٣) .

ابن أبي عوف . واختلفت الروايات في تقدير عدد ما اشتملت عليه هذه الخزانة من مجلدات :

فذكر ابن الجوزي ، في جملة أحداث سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) ، ان في شهر رجب « وقف أبو الحسن محمد بن هلال الصابىء ، دار كتب بشارع ابن أبي عوف ، من غربي مدينة السلام ، ونقل اليها نحو ألف كتاب »[١].

وإلى مثل هذا ، ذهب سبط ابن الجوزي ، في مرآة الزمان[٢].

على ان ابن الجوزي ، خالف قوله الذي أثبتناه آنفاً ، فقال في أثناء ترجمة غرس النعمة ، انه ابتنى بشارع ابن أبي عوف ، دار كتب ، ووقف فيها نحواً من أربعمائة مجلد في فنون العلوم »[٣].

ووافقه على هذا الرقم الأخير ، صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ، في كتاب الوافي بالوفيات[٤].

---

(١) المنتظم (٨ : ٢١٦) .

(٢) في النص الذي نقله الدكتور مصطفى جواد ، عن النسخة الخطية لمرآة الزمان (بمجلة « عالم الغد » ١ [١٩٤٥] العدد ١٠ ، ص ٢٩٦) ، ان خزانة غرس النعمة كانت تحوي ألف كتاب .

(٣) المنتظم (٩ : ٤٢) .

(٤) راجع ما كتبه العلامة فريتس كرنكو (FR. KRENKOW) في مادة « الصابىء » بدائرة المعارف الاسلامية . ورسالة المستشرقة ألفا بنتو، في « خزائن كتب العرب في العصر العباسي » ، وعنوانها :

OLGA PINTO, LE BIBLIOTECHE DEGLI ARABI NELL' ETA DEGLI ABBASSIDI. (FIRENZE, 1928, PP. 8-9).

وهذه المقالة النفيسة ، قد عني العلامة كرنكو بنقلها من الايطالية الى الانكليزية ، وأضاف اليها تعليقات مفيدة ، وهذا عنوانها :

THE LIBRARIES OF THE ARABS DURING THE TIME OF THE ABBASIDES. (ISLAMIC CULTURE, III, 1929; PP. 210-243, REF. P. 216).

وقد نقل هذان المستشرقان خبرهذه الخزانة ، من كتاب « الوافي بالوفيات » للصفدي ، المخطوط في خزانة المتحف البريطاني (الرقم ٥٣٢٠ ، ظهر الورقة ١١٠) .

وزاد ابن كثير في عدد هذه الكتب ، حتى أبلغه إلى أربعة آلاف مجلد[١].

أما السبب الذي حدا غرس النعمة على وقف هذه الخزانة ، فهو ان الدار التي وقفها سابور الوزير بين السورين[٢] ، احترقت ونهب أكثر ما فيها ، فبعثه الخوف على ذهاب العلم ، أن وقف هذه الكتب »[٣].

وقد رتّب غرس النعمة بهذه الخزانة خازناً يعرف بابن الأقساسي[٤] العلوي. إلا أن هذا الرجل تصرّف بكتبها وباع كثيراً منها . نقل ابن الجوزي قول هبة الله بن المبارك السقطي ، في غرس النعمة وخزانته ، قال : انه « رتب بها خازناً يقال له ابن الأقساسي العلوي . وتكرر العلماء اليها سنين كثيرة مالم تزل له أجرة ، فصرف الخازن وحك ذكر الوقف من الكتب وباعها . فأنكرت ذلك عليه ، فقال : قد استغني عنها بدار الكتب النظامية . قال المصنف : فقلت : بيع الكتب بعد وقفها محظور ! فقال : قد صرفت ثمنها في الصدقات ! »[٥].

كانت هذه الخزانة مباءة للعلماء والدارسين ، ومكاناً حسناً لمناظراتهم ومباحثاتهم . فقد ذكر أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي ، المتوفى سنة ٥١٣ هـ (١١١٩ م) ، في كتابه الكبير الموسوم بـ « الفنون » : « حضرنا يوماً بدار الكتب بشارع ابن أبي عوف ، فتذاكرنا أمر العقل وتحسينه وتقبيحه ... »[٦].

ولا نعلم علم اليقين كم لبثت هذه الخزانة قائمةً بعد وفاة منشئها .

---

(١) البداية والنهاية (١٢ : ١٣٤) .

(٢) سبق الكلام عليها في الصفحة ١٤٠ – ١٤٥ من هذا الكتاب .

(٣) المنتظم (٩ : ٤٢ – ٤٣) .

(٤) الاقساسي : نسبة الى الأقساس . وهي قرية كبيرة بالكوفة ، في صحرائها . وقد ذكر السمعاني (الانساب . وجه الورقة ٤٧) ، وياقوت (معجم البلدان . مادة « اقساس ») ، شخصاً عرف بهذه النسبة ، وهو أبو محمد يحيى بن محمد الاقساسي العلوي ، المتوفى سنة نيف وسبعين وأربعمائة (بعد ١٠٧٧ م) . فلعله المراد به في النص المنقول اعلاه .

(٥) المنتظم (٩ : ٤٢ – ٤٣) . ويبدو لنا ان في هذا النص اضطرابا .

(٦) مجلة عالم الغد (ص ٢٩٧) .

خزانة عبد السلام بن بندار القزويني

أبو يوسف عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار القزويني الحنفي المعتزلي المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) ، كان من مفسري القرآن . كتب تفسيراً عظيماً وقفه على خزانة كتب مشهد أبي حنيفة[١]. وقد اختلف المؤرخون في عدد مجلدات هذا التفسير ، فبعضهم قال انه في ثلثمائة مجلدة[٢] ، سبعة منها في الفاتحة[٣]. وبعضهم قال انه في أربعمائة ، ومنهم من أبلغه إلى سبعمائة مجلدة[٤]. ومهما يكن من أمر اختلافهم ، فالكتاب يدل على سعة معارف صاحبه في هذا الباب وطول نفسه في التأليف .

وقد كان لابن بندار ببغداد خزانة كتب واسعة جداً . فذكر محيي الدين القرشي في ترجمته انه « حصل كتباً لم يملك أحد مثلها ، حصلها من مصر وغيرها وبيعت كتبه في سنين ، وزادت على أربعين ألف مجلد . قال ابن النجار : وحدثني بعض أهل العلم ، أن أبا يوسف ورد بغداد ومعه عشرة جمال تحمل دفاتر وأكثرها بالخطوط المنسوبة ومن الاصول المخبورة في أنواع العلوم . وحدثني بعض أهل الحديث عنه ، قال : ملكت ستين تفسيراً »[٥].

وهذا الخبر الذي نقلناه عن القرشي بصدد خزانة الكتب ، أورده الصفدي في الوافي بالوفيات باختلاف عظيم ، ولا سيما فيما يخص الأرقام ، فقد قال : « ... وبيعت كتبه في سنتين ، وكانت تزيد على أربعة آلاف مجلدة »[٦].

---

(١) تكلمنا على هذه الخزانة ، في الصفحة ١٥١ ـ ١٥٤ من هذا الكتاب .
(٢) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١ : ٣١٦).
(٣) لسان الميزان لابن حجر العسقلاني (٤ : ١١) .
(٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣ : ٢٣٠) .
(٥) الجواهر المضية (١ : ٣١٦) :
(٦) العلم الجديد (٦ : ٤٢) .

ونحن نميل إلى ترجيح النص الثاني الذي يقول ان كتب الخزانة زهاء أربعة آلاف مجلدة . فان عشرة جمال ، على ما نقلنا أعلاه ، لا يعقل أن تحمل أربعين ألف مجلد !

ونقل ابن حجر العسقلاني خبراً طريفاً يدلنا على ما كان بحوزة صاحب هذه الخزانة من نوادر يتيمة ، قال : « قال محمد بن عبد الملك الهمداني : أهدى أبو يوسف لنظام الملك أشياء ، ما لأحد مثلها فذكر كتباً ، ومنها : عهد القاضي عبد الجبار بن أحمد بالقضاء ، بخط الصاحب بن عباد وإنشائه ، وهو سبعمائة سطر ، كل سطر في ورقة سمرقندي ، وله غلاف آبنوس يطبق كالاسطوانة الغليظة »[1].

وأوضح من ذلك بياناً ، ما نقله السبكي في ترجمة عبدالسلام . قال في صدد ما احتوته خزانته من نفائس الأسفار : « كان قد اجتمع له من الكتب شيء كثير . وانه سكن بغداد ، ثم سافر إلى الشام ، ثم إلى مصر وأقام بها مدة ، ثم عاد إلى بغداد وهو يحصل في ذلك الكتب . وقيل انه حصل غالبها من مصر في عام الغلاء المفرط . وكان يقول : ملكت نفيسين منها تفسير ابن جرير الطبري في أربعين مجلداً ، وتفسير أبي القاسم البلخي[2]، وأبي علي الجبائي ، وابنه أبي هاشم ، وأبي مسلم بن بحر وغيرهم . وأهدى إلى نظام الملك أربعة أشياء ، لم يكن لأحد مثلها : غريب الحديث لابراهيم الحربي بخط أبي عمر بن حيويه في عشر مجلدات ، فوقفه نظام الملك بدار الكتب ببغداد[3] . ومنها شعر الكميت بن زيد ، بخط أبي منصور في ثلاثة عشر مجلداً . ومنها عهد القاضي عبد الجبار

---

(١) لسان الميزان (٤ : ١١ ـ ١٢) .

(٢) قال الحاج خليفة (كشف الظنون ١ : ٤٤١) في صفة هذا التفسير ، انه « كبير في اثني عشر مجلداً ، لم يسبق اليه » مات مؤلفه سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) .

(٣) أوردنا بعض هذا النص ، في كلامنا على خزانة المدرسة النظامية (أنظر الصفحة ١٤٧ ـ ١٤٨ من هذا الكتاب) .

بخط الصاحب بن عباد وانشائه ، قيل كان سبعمائة سطر ، كل سطر في ورقة سمرقندي ، وله غلاف آبنوس يطبق كالاسطوانة الغليظة . والرابع مصحف بخط بعض الكتّاب المجوّدين بالخط الواضح ، وقد كتب كاتبه اختلاف القراء بين سطوره بالحمرة وتفسير غريبه بالخضرة واعرابه بالزرقة وكتب بالذهب العلامات على الآيات التي تصلح للانتزاعات في العهود والمكاتبات وآيات الوعد والوعيد وما يكتب في التعازي والتهاني . وبالجملة كتابة مصحف على هذا الوجه بدعة مكروهة . وقيل دخل (عبد السلام) إلى بغداد من مصر ، ومما معه عشرة جمال عليها كتب بالخطوط المنسوبة في فنون العلم »[1].

خزانة الحميدي

والحُميدي ، بالتصغير ، هو أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي المغربي الأندلسي ، المتوفى سنة ٤٨٨ هـ[2] (١٠٩٥م). وُلد في جزيرة ميورقة ، ومات ببغداد .

كان الحميدي أحد علماء عصره. صنّف التصانيف المختلفة، منها كتابه «الجمع بين الصحيحين »[3] الذي جمع فيه بين صحيح البخاري وصحيح مسلم . وقد رحل إلى المشرق في طلب العلم سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م) ، فسمع الكثير من أشهر علماء عصره في الأندلس ومصر ومكة والشام وواسط وبغداد .

وقد أثنى عليه مترجموه ثناءً عطراً . قال ابن الجوزي انه « كان حافظاً ديناً

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٣ : ٢٣٠) .

(٢) أنظر ترجمته في كتاب : الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص ٥٠٢ ـ ٥٠٤ ، الرقم ١١١٤) ، والمنتظم (٩ : ٩٦)، والأنساب للسمعاني (ظهر الورقة ١٧٧) ، واللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير (١ : ٣٢١ طبعة القاهرة ١٣٥٧ هـ) ، ووفيات الأعيان (١ : ٦٩٢ ـ ٦٩٣) ، والبداية والنهاية (١٢ : ١٥٢) ، وشذرات الذهب (٣ :٣٩٢) .

(٣) كشف الظنون (١ : ٥٩٩ ـ ٦٠٠) .

نزهاً عفيفاً . كتب من مصنفات ابن حزم الكثير ، وكتب تصانيف الخطيب ، وصنف فأحسن »[١].

أما « خزانة الكتب » التي اجتمعت له طوال حياته ، فقد استقرّ بها المطاف في مدينة بغداد . ذكر السمعاني وابن الجوزي ، ان الحميدي وقف كتبه بها على طلبة العلم[٢].

ولقد كان لهذه الخزانة الموقوفة ، « ثبت » اطلع عليه ابن الجوزي[٣] في المائة السادسة للهجرة ، بل انه وقف على تلك الكتب ذاتها .

خزانة ابن جزلة

هو أبو علي يحيى بن عيسى بن جزلة ، الطبيب البغدادي ، المتوفى سنة ٤٧٣ هـ ، وقيل ٤٩٣ هـ (١٠٨٠ أو ١٠٩٩ م) . له التآليف الحسنة في الطب ، وأشهرها « تقويم الأبدان » وهو مطبوع ، و « منهاج البيان في ما يستعمله الانسان » وهذا لم يطبع .

كان لابن جزلة خزانة كتب ، ذكر غير واحد من مؤرخي سيرته انه وقفها قبل وفاته في مشهد الامام أبي حنيفة[٤].

وكنا أسلفنا القول في هذا الوقف ، لدى كلامنا على خزانة كتب هذا المشهد .

---

(١) المنتظم (٩ : ٩٦) .

(٢) الأنساب (ظهر الورقة ١٧٧) ، والمنتظم (٩ : ٩٦) .

(٣) صيد الخاطر (ص ٣٦٧) .

(٤) راجع في هذا الصدد : أخبار الحكماء للقفطي (ص ٣٦٦) ، ووفيات الأعيان (٢ : ٣٨٨) ، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٣٣٩) ، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (حوادث سنة ٤٩٣ هـ) .

خزانة القاضي أبي الفرج بن أبي البقاء

في البصرة[1]

أنشأها أبو الفرج محمد بن عبيد الله بن الحسن بن الحسين البصري ، قاضي البصرة ، المتوفى فيها سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥ م)[2] . ولا نعلم متى أسس هذا القاضي خزانته ، ولكننا وقفنا على خبر نهبها في سنة وفاته ، أو بتعبير أدق ، انها نُهبت بعد وفاته بنحوٍ من عشرة أشهر . ذكر ابن الأثير في أحداث تلك السنة ، ان الأمير صدقة بن منصور بن دبيس صاحب الحلة ، لما استولى على البصرة « استناب بها مملوكاً كان لجده دبيس بن مزيد، اسمه التونتاش ، وجعل معه مائة وعشرين فارساً . فاجتمعت ربيعة والمنتفق ومن انضمّ اليها من العرب وقصدوا البصرة في جمع كثير ، فقاتلهم التونتاش فأسروه وانهزم أصحابه ، ولم يقدر من بها على حفظها . فدخلوها بالسيف أواخر ذي القعدة وأحرقوا الأسواق والدور الحسان ونهبوا ما قدروا عليه . وأقاموا ينهبون ويحرقون اثنين وثلاثين يومــاً ، وتشرد أهله في السواد . ونُهبت خزانة كتب كانت موقوفة ، وقفها القاضي أبو الفرج بن أبي البقاء . وبلغ الخبر صدقة ، فأرسل عسكراً فوصلوا وقد فارقها العرب . ثم ان السلطان محمداً أرسل شحنة وعميداً إلى البصرة وأخذها من صدقة ، وعاد أهلها اليهـا وشرعوا في عمارتها »[3].

---

(١) راجع : دور العلم العراقية في العصور العباسية ، للدكتور مصطفى جواد (عالم الغد ١ [١٩٤٥] ص ٢٩٨) .

(٢) راجع عنه : المنتظم (٦ : ١٤٧ ــ ١٤٨) ، والبداية والنهاية (١٢ : ١٦٦) .

(٣) الكامل في التاريخ (١٠ : ٢٧٤) .

والداهية الدهياء التي حلت بهذه الخزانة البصرية ، تذكرنا بالكارثة التي أصابت خزانتين بصريتين أخريين ، وهما : دار الكتب بالبصرة وخزانة الوزير ابن شاه مردان[١]. فهذه الخزانة قد نهبت ، وتانك الخزانتان أحرقتا . والنهب والحرق من مصائب الكتب وبلاياها في مختلف العصور[٢].

---

(١) أسلفنا الكلام عليهما في الصفحة ١٣٩ و ١٧٨ من هذا الكتاب

(٢) راجع : آفات الكتب في خزائن الاقدمين ، لميخائيل عواد . (المعلم الجديد ٩ [١٩٤٥] ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢) .

خزانة دار الروم في بغداد

دار الروم ، ويقال أيضاً دير الروم ، هي على ما وصفها به ياقوت « بيعة كبيرة حسنة البناء محكمة الصنعة ، للنسطورية خاصة . وهي ببغداد ، في الجانب الشرقي منها . وللجاثليق[١] قلاّية[٢] إلى جانبها . وبينه وبينها باب يخرج منه اليها في أوقات صلاتهم وقربانهم ... والأصل في هذا الاسم ، ان أسرى من الروم قدم بهم إلى المهدي وأسكنوا داراً في هذا الموضع، فسميت بهم و بُنيت البيعة هناك وبقي الاسم عليها »[٣].

وقد كان الجثالقة يقيمون قبل العصر العباسي في المدائن ، ثم نقلوا كرسيهم إلى بغداد في أيام الخلفاء .

كان في دار الروم خزانة كتب جُمعت في أيام بعض الجثالقة . ولا نعلم شيئاً ثابتاً عن منشأ هذه الخزانة ، ولا عمن أنشأها . وغاية ما انتهى الينا من أخبارها ، كلام موجز يدل على أنها نُهبت في أيام الجاثليق مار برصوما ، وكان قد صار جاثليقاً في سنة ٥٢٨ هـ ، وتوفي سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٤ ـ ١١٣٦ م) .

قال المؤرخ النسطوري ماري بن سليمان ، ان هذا الجاثليق دُفن ببيعة دار الروم ، وسبب ذلك « ما جرى على القلاية والبيعة بدار الروم من النهب الشنيع، ما(؟) أخذت الكتب السريانية والعربية وصوات (كذا) البيعة جميعه وكلما كان موجوداً بها »[٤].

---

(١) الجاثليق لفظ يوناني (CATHOLICOS) معناه « العمومي » . وقد ورد غير مرة في هذا الكتاب . والمراد به الرئيس الديني الاعلى عند الكلدان النساطرة في أيام الملوك الساسانيين والخلفاء العباسيين .

(٢) القلاية : دار البطريركية .

(٣) معجم البلدان (مادة : دير الروم) .

(٤) أخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل : لماري بن سليمان . (ص ١٥٦ طبعة جسمندي . رومية ١٨٩٩) .

خزانة أبي سعيد بن المعوّج

لا نعلم من أمر صاحبها إلا ماورد عرضاً في ترجمة ابن الواسطي ، طبيب المستظهر بالله . وكان ابن المعوّج قد تولى صاحب ديوان في أيام هذا الخليفة (خلافته ٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ = ١٠٩٤ ـ ١١١٨ م) . وأصابته محنة اضطر معها إلى رهن كتبه على خمسمائة دينار . ثم استفكّت الكتب من مال الخليفة . بشفاعة ابن الواسطي في حكاية طويلة أوردها ابن أبي أصيبعة[١].

خزانة ثابت بن منصور بن المبارك الكيلي

وهو منسوب إلى « كِيل » بكسر الكاف : قرية من أعمال بغداد تحت المدائن ، ويقال لها « جِيل »[٢]. وقد وصفه بعض مترجميه بانه عُني بعلم الحديث.

وجمع له خزانة لا نشك في أنها كانت تحوي أمهات كتب الحديث وغير ذلك . وذكر ابن الجوزي في ترجمته القصيرة انه « وقف كتبه قبل موته »[٣] ، وقال ان وفاته كانت في سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) أو في السنة التي قبلها .

خزانة عبد الوهاب الانماطي

صاحب هذه الخزانة ، أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن أحمد بن الحسن الانماطي[٤] الحافظ الحنبلي ، أحد كبار علماء الحديث في وقته ، المتوفى

---

(١) عيون الانباء (١ : ٢٥٥ ـ ٢٥٦) .

(٢) معجم البلدان (مادة « جيل » و « كيل ») .

(٣) المنتظم (١٠ : ٥٢) ، ومسند عمر بن الخطاب ليعقوب بن شيبة (١٠ : ٢٠٦ طبعة الدكتور سامي حداد) ، وشذرات الذهب (٤ : ٩٣) .

(٤) الأنماطي : هذه النسبة الى بيع الأنماط ، وهي الفرش التي تبسط .

سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) . وأثنى عليه تلميذه ابن الجوزي ، وقال : كان ثقة ثبتاً ذا دين وورع[١].

كان للانماطي خزانة كتب ، ذكر ابن الجوزي انه وقف على ثبتها[٢] .

ومما اشتهر به الانماطي ، انه كان سهلاً في إعارة الاجزاء لا يتوقف[٣].

خزانة سعد الخير الاندلسي

وهو أبو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد المغربي الأندلسي الأنصاري ، المتوفى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) . سافر من بلاد الأندلس إلى بلاد الصين وركب البحر وقاسى الشداد . ثم دخل بغداد وأقام فيها إلى أن مات . وتفقه على أبي حامد الغزالي وسمع الحديث من خلق كثير وقرأ الأدب . والذي يُفهم من سياق ترجمته انه كانت له خزانة كتب ببغداد ، فقد قال ابن الجوزي انه « حصل كتباً نفيسة »[٤].

خزانة عبد الله بن علي بن أحمد بن عبد الله

هو أبو محمد المقرىء ، سبط أبي منصور الزاهد . أحد العلماء في القراءات ببغداد ، توفي فيها سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) . قال ابن الجوزي : « سمع الكتب الكبار ، وصنّف كتباً في القراءات وقصائد ، وأمّ في المسجد منذ سنة سبع وثمانين (وأربعمائة) إلى أن توفي . وقرأ عليه الخلق الكثير ، وختم ما لا يحصى . وكان أكابر العلماء وأهل البلد يقصدونه ، وقرأت عليه القراءات

---

(١) المنتظم (١٠ : ١٠٨) .
(٢) صيد الخاطر (ص ٣٦٧) .
(٣) شذرات الذهب (٤ : ١١٧) .
(٤) المنتظم (١٠ : ١٢١) .

والحديث الكثير ، ولم أسمع قارئاً قط أطيب صوتاً منه ولا أحسن إذا صلى ، كبُر سنه ، وجمع الكتب الحسان »(١).

فهذه الجملة الأخيرة تدلنا على أن هذا الرجل ممن أحرز خزانة كتب .

خزانة محمد بن ناصر البغدادي

هو أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي بن عمر البغدادي الحافظ ، المتوفى سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) أثنى عليه تلميذه ابن الجوزي ثناءً عطراً بقوله انه « كان حافظاً ضابطاً متقناً ثقةً لا مغمز فيه . وهو الذي تولّى تسميعي الحديث ، فسمعت مسند الامام أحمد بن حنبل بقراءته ، وغيره من الكتب الكبار والأجزاء العوالي على الأشياخ ، وكان يثبت لي ما أسمع »(٢).

وقال ابن النجار انه « كان ثقةً ثبتاً حسن الطريقة متديناً فقيراً عفيفاً نظيفاً نَزِهاً ، وقف كتبه ، وخلّف ثياباً خَلقة وثلاثة دنانير ، ولم يعقب »(٣).

وخزانة كتبه التي وقفها ، كان ابن الجوزي قد اطّلع على ثبتها(٤) ولكننا لا نعلم على مَن وقف كتبه .

خزانة ابن المرخم القاضي

صاحب هذه الخزانة ، أبو الوفاء سديد الدين يحيي بن سعيد بن يحيي بن المظفر . صار أقضى القضاة ببغداد في أيام المقتفي العباسي . وقد وصمه

---

(١) المنتظم (١٠ : ١٢٢) .
(٢) المنتظم (١٠ : ١٦٢ ـ ١٦٣) . وانظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٣ : ١٧٩) .
(٣) شذرات الذهب (٤ : ١٥٥) .
(٤) صيد الخاطر (ص ٣٦٧) .

المؤرخون بالظلم والجور والارتشاء . . قُتل سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) في أيام المستنجد بالله .

والذي يهمنا من أمره هاهنا ، خزانة كتبه التي حوت كثيراً من كتب الفلسفة والطب . وهذه الخزانة صُودرت منه في أيام المستنجد وأُحرق جانب منها . قال ابن الجوزي في هذا الصدد : « وأُحرقت كتبه في الرحبة ، وكان منها كتاب الشفاء ، واخوان الصفاء »(١).

وأوضح من ذلك ما ذكره ابن الأثير ، في حوادث تلك السنة التي قُتل فيها : « وأُخذت كتبه ، فأُحرق منها في الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة . فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا ، وكتاب اخوان الصفاء ، وما يشاكلها »(٢).

والمراد بالرحبة المذكورة في النصين المنقولين ، رحبة جامع القصر ، وهو المعروف اليوم بجامع سوق الغزل .

خزانة ابن التلميذ

صاحب هذه الخزانة ، أمين الدولة أبو الحسن هبة الله ابن التلميذ ، الطبيب النصراني النسطوري البغدادي ، المتوفى ببغداد سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) . كان من أشهر أطباء زمانه جمع بين المعارف المتفرقة والعلوم المتباينة من طب وفلسفة وأدب ونحو وترسل وشعر وموسيقى . وخدم الخلفاء من بني العباس وتقدم في خدمتهم وارتفعت مكانته لديهم(٣) . وكان ساعور(٤) البيمارستان العضدي(٥)

(١) المنتظم (١٠ : ١٩٤) .
(٢) الكامل في التاريخ (١٠ : ١٧٠) .
(٣) أخبار الحكماء للقفطي (ص ٣٤٠) .
(٤) الساعور : الناظر المتفقد المرضى .
(٥) ينسب الى عضد الدولة البويهي ، الذي أنشأه في الجانب الغربي من بغداد سنة ٣٧٢هـ (٩٨٢ م) .

ببغداد إلى حين وفاته[١].

وكان لأمين الدولة هذا، خزانة كتب كبيرة، بعضها بخطه الجميل. فقد كان جيد الكتابة، يكتب خطاً منسوباً. قال ابن أبي أصيبعة: «وقد رأيت كثيراً من خطه وهو في نهاية الحسن والصحة، وكان خبيراً باللسان السرياني والفارسي، متبحراً في اللغة العربية»[٢].

كانت خزانة كتبه، في داره المجاورة للمدرسة النظامية[٣]. وقد أوضح ابن أبي أصيبعة موضع هذه الدار بقوله: «كانت دار أمين الدولة التي يسكنها ببغداد في سوق العطر، مما يلي بابه المجاور لباب الغربة من دار الخلافة المعظمة بالمشرعة النازلة إلى شاطىء دجلة»[٤].

وقال بصدد خزانته انه «خلف نعماً كثيرة وأموالاً جزيلة وكتباً لا نظير لها في الجودة. فورث جميع ذلك ولده، وبقي مدة. ثم ان ولد أمين الدولة خنق في دهليز داره، الثلث الأول من الليل وأخذ ماله، ونقلت كتبه على اثني عشر جملاً إلى دار المجد بن الصاحب»[٥].

وقد تقلبت الأحوال بهذه الخزانة وتعاورتها الأيدي. فذكر ابن أبي أصيبعة، ان كتبها آلت إلى أبي الخير المسيحي النسطوري، طبيب الامام الخليفة الناصر لدين الله. قال: «... وصرف أبو الخير من الخدمة، وقد كانت منزلته قبل هذا جليلة عنده (أي عند الناصر) ومحله مرتفع، ووصله هبات وصلات عظيمة،

---

(١) و (٢) عيون الأنباء (١ : ٢٥٩)، ومعجم الأدباء (٧ : ٢٤٣) وقد أضاف هذا المرجع الى تلك اللغات معرفته اليونانية.

(٣) عيون الأنباء (١ : ٢٦٠).

(٤) عيون الأنباء (١ : ٢٦٢). وانظر هذه المواضع في الخرائط التي صنعها البحاثة الدكتور مصطفى جواد، وألحقها بآخر كتاب الجامع المختصر. وراجع أيضاً سومر (١ [١٩٤٥] الجزء الثاني، ص ٦٨).

(٥) عيون الأنباء (١ : ٢٦٤).

فمن جملتها انه أعطاه خزانة كتب الأجلّ أمين الدولة بن التلميذ »[١].

لا مراء في ان هذه الخزانة ، حوت من نفائس الأسفار بالعربية والفارسية والسريانية واليونانية ما يُتحسر على فقده اليوم . ولا بد انها كانت محتوية على مجموعة تآليف ابن التلميذ نفسه ، وهي كثيرة ، ذكرها غير واحدٍ من المؤلفين الأقدمين والمحدثين[٢] .

خزانة ابن الخشّاب البغدادي

وهو أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن الخشاب البغدادي الحنبلي ، المتوفى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) . كان أعلم أهل زمانه بالنحو . وله معرفة بالحديث والتفسير واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة. وكان يكتب خطاً مليحاً ، وصنّف كتباً عديدة ضاع أغلبها.[٣]

كانت لابن الخشاب خزانة كتبٍ . فقد ذكر بعض مدوني أخباره ، انه « جمع كتباً كثيرة جداً ...[٤] وكان إذا حضر سوق الكتب وأراد شراء كتابٍ ، غافل الناس وقطع منه ورقةً وقال انه مقطوع ليأخذه بثمن بخس . وإذا استعار من أحدٍ كتاباً وطالبه به ، قال : دخل بين الكتب فلا أقدر

---

(١) عيون الأنباء (١ : ٣٠٢) .

(٢) عيون الأنباء (١ : ٢٧٦) ، ومعجم الأدباء (٧ : ٢٤٤ ـ ٢٤٥) ، والمخطوطات العربية لكتبة النصرانية للاب لويس شيخو اليسوعي (ص ٦ الرقم ١٧)، ومقالة الأب لويس شيخو في« ابن التلميذ : الطبيب الشاعر » (المشرق ٩ [١٩٠٦] ص ٧٨٤) ، وفهرس سباط :

SBATH, AL - FIHRIS. (I, P. 10, NO. 13).

(٣) مما سلم من مؤلفاته ، رده على الحريري في مقاماته . وقد طبع غير مرة بعنوان « انتقاد ابن الخشاب على مقامات الحريري » (القاهرة ١٣٢٦هـ و ١٣٣٩هـ ، والاستانة ١٣٢٨ هـ) .

(٤) نضع النقط حين نطوي كلاماً لا يدخل في موضوعنا .

عليه ! ... توفي عشية يوم الجمعة ثالث رمضان سنة ٥٦٧ ، ووقف كتبه على أهل العلم »[١].

وذكر ابن الجوزي انه وقف على ثبت خزانة ابن الخشاب ، بل انه اطلع على كتبها الكثيرة التي قال فيها انها « كانت أحمالاً » .[٢]

خزانة ابن الدّهان النحوي

صاحب هذه الخزانة ، أبو محمد سعيد بن المبارك ، المعروف بابن الدّهان النحوي ، المولود سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ م) بنهر طابق من محلات بغداد ، المتوفى بالموصل سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ، صاحب التآليف العديدة في النحو واللغة والأدب . وقد وصفه مترجموه بانه كان سيبويه عصره .

كان لابن الدهان خزانة كتب لمح ابن خلكان إلى ذكرها بقوله ، انه « ترك بغداد وانتقل إلى الموصل قاصداً جناب الوزير جمال الدين الاصبهاني المعروف بالجواد ، فتلقاه بالاقبال وأحسن اليه وأقام في كنفه مدة . وكانت كتبه قد تخلفت ببغداد، فاستولى الغرق تلك السنة على البلد . فسيّر من يحضرها إليه إن كانت سالمة . فوجدها قد غرقت . وكان خلف داره مدبغة فغرقت أيضاً وفاض الماء منها إلى داره ، فتلفت الكتب بهذا السبب زيادةً على الغرق . وكان قد أفنى في تحصيلها عمره . فلما حُملت اليه على تلك الصورة ، أشاروا عليه أن يطيّبها بالبخور ويصلح منها ما يمكن . فبخرها باللاذن[٣] ، ولازم ذلك إلى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلاً لاذناً ، فطلع ذلك إلى رأسه وعينيه فأحدث له العمى وكُفّ بصره »[٤].

---

(١) معجم الأدباء (٤ : ٢٨٦ ــ ٢٨٧) ، وبغية الوعاة (ص ٢٧٧) .

(٢) صيد الخاطر (ص ٣٦٧) .

(٣) اللاذن ضرب من العلوك .

(٤) وفيات الأعيان (١ : ٢٩٥) . وخبر غرق هذه الكتب وتبخيرها ، ورد باقتضاب في معجم الادباء (٤ : ٢٤٢) ، ونكت الهميان (ص ٥٩) .

وإذا أردنا معرفة السنة التي غرقت فيها كتب ابن الدهان ، علينا أن نعرف أولاً السنة التي ذهب فيها إلى الموصل . فذكر الصفدي ، ان اقامته بالموصل كانت أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر[١] ، ولما كانت كتبه غرقت في سنة ذهابه إلى الموصل ، صح لنا اعتبار كائنة الغرق المشار اليها أعلاه، قد حدثت في سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠ م) . وقد أشار إلى ذلك الفيضان ابن الجوزي بقوله في حوادث هذه السنة : « وزادت دجلة ، فبلغ الماء إلى باب المدرسة[٢] ومنع الجواز من طريق الرباط ودخلت السفن الأزقة »[٣] .

خزانة كتب الزيدي

أنظر كلامنا على « خزانة كتب الوقف بمسجد الزيدي » ببغداد ، في الصفحة ١٥٤ ـ ١٥٧ من هذا الكتاب .

خزانة سبط بن التعاويذي

أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب المعروف بسبط ابن التعاويذي ، من أشهر شعراء بغداد في المائة السادسة للهجرة . ولد سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ، ومات سنة ٥٨٣ أو ٥٨٤ هـ (١١٨٧ ـ ٨ م) .

وديوان شعره مشهور بين الناس ، نشره المستشرق مرجليوث في القاهرة سنة ١٩٠٣. ومنه يستدل على أن لهذا الشاعر خزانة كتب . ففي القصيدة ١٧٣ من ديوانه ، كتب إلى بعض الصدور الأصدقاء يعاتبه لأنه استقرض منه كتاباً ابتاعه فتأخر عنه مدة طويلة . ومما قاله فيها :

---

(١) نكت الهميان (ص ١٥٨) .
(٢) يريد باب المدرسة النظامية .
(٣) المنتظم (١٠ : ١٤٢) .

إسأل جمال الدين عن　　حال الكتب المقترض
إن كان يقبله شكر　　تُ قبوله وهو الغرض

إلى أن يقول :

أو كان يأبى أخذه　　إلا بانقـاذ العوض(١)

وفي القصيدة ٣٩٥ منه، أشار إلى أن انساناً استام منه كتباً أدبية، فأخرها عنه ومطله بثمنها وابتذلها ، فلما كتب اليه :

مالي أرى كتبي بغير جنـايةٍ　　قد طال عندك في الوثاق إسارها
أضحت لديك حبائساً　　أثمانها مجهولة أقدارها
مهتوكة حرماتها مبذولةً　　صفحاتها محلولة أزرارها

إلى أن يقول :

فامنن عليها بالاياب فما نبت　　عن مثلها أوطانها وديارها
واعطف لغربتها وطول مقامها　　بذَراك فهي رقيقة أبشارها(٢)

خزانة كتب صبيح بن عبد الله الحبشي

أنظر كلامنا على « خزانة كتب الوقف بمسجد الزيدي » ببغداد، في الصفحة ١٥٤ ـ ١٥٧ من هذا الكتاب .

خزانة الحازمي

وهو أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الحازمي الهمذاني الشافعي ، الملقب زين الدين الفقيه الحافظ المحدث . سكن بغداد ومات بها سنة ٥٨٤ ﻫ

---

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي (ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧) .
(٢) ديوان سبط ابن التعاويذي (ص ٤٣٨) .

(٩٩٨٨ م) . وله تآليف مختلفة ذكر ابن خلكان بعضها[١] . وكانت له خزانة كتب ، ذكر مترجموه انه فرّقها على أصحاب الحديث ببغداد[٢] .

خزانة ابن الجوزي

جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن المشهور بابن الجوزي البغدادي ، المتوفى سنة ٥٩٧ ﻫ (١٢٠٠ م) ، علاّمة عصره ، برز في علوم كثيرة وانفرد بها عن غيره . وجمع المصنفات الكبار والصغار نحواً من ثلاثمائة مصنف ، ذكرها بأسمائها سبطه في تاريخه[٣] . ويؤخذ من عناوينها ان بحوثها تدور حول التفسير والحديث والتواريخ والسير وعلم العربية والاصول والفقه والمناقب والرقائق والرياضات والأشعار والوعظ .

قال سبطه في ما قال فيه : « سمعته يقول على المنبر في آخر عمره : كتبتُ باصبعيّ هاتين ألفي مجلدة »[٤] .

ونقل صاحب الشذرات ، عن عبد اللطيف البغدادي ، ان ابن الجوزي كان « يكتب في اليوم أربع كراريس ، ويرتفع له كل سنة من كتابته ما بين خمسين مجلداً إلى ستين »[٥] .

وذكر ابن خلكان شيئاً في هذا الصدد ، يحسن بنا إيراده . قال ان ابن الجوزي كتب بخطه شيئاً كثيراً ، والناس يغالون في ذلك حتى يقولوا انه

---

(١) أغفل كل مترجميه الاشارة الى تفسيره القرآن . وقد وقفنا على نسخة قديمة من هذا التفسير ، في خزانة الأوقاف العامة في بغداد (برقم ٦٣٨٨) ، ووصفناها في مجلة « سومر » (٣ [١٩٤٧] ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨) .

(٢) وفيات الاعيان (١ : ٦٩٧) .

(٣) مرآة الزمان (٨ : ٣١٢ ـ ٣١٦) .

(٤) مرآة الزمان (٨ : ٣١١) وانظر : الذيل على الروضتين لأبي شامة (ص ٢١) .

(٥) شذرات الذهب (٤ : ٣٣٠) .

جمعت الكراريس التي كتبها ، وحسبت مدة عمره ، وقسمت الكراريس على المدة ، فكان ما خص كل يوم تسع كراريس . وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل . ويقال انه جمعت براية أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحصل منها شيء كثير ، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته ، ففعل ، فكفت وفضل منها » .(١)

كان ابن الجوزي كثير المطالعة، يحب الوقوف على كل ما يصل إلى يده من تصانيف . قال عن نفسه في هذا الصدد : ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية ، فاذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد . وفي ثبت كتب (مشهد) أبي حنيفة، وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبدالوهاب، وابن ناصر، وكتب محمد بن الخشاب وكانت أحمالاً ، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه . ولو قلت اني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر وأنا بعد في الطلب»(٢).

ورجل يملك هذه الهمة العالية في القراءة والكتابة ، وله هذا النفس الطويل في التأليف والتصنيف ، لابدّ أن تجتمع بين يديه خزانة كتب كبيرة . ولو لم تحو هذه الخزانة إلا مجموعة مؤلفاته دون غيرها ، لكفاها قيمة واعتباراً . ولكنّ عالماً تعد تآليفه بمئات ، لا يمكن أن يصنف هذا القدر من الكتب والرسائل ما لم يجتمع لديه من المراجع المختلفة ما هو أضعاف ذلك العدد .

غير ان تلك الخزانة ، كتب لها أن تتبعثر في حياة صاحبها ، فقد سطا عليها أحد أبنائه ، وهو أبو القاسم علي ، فذهبت جملة منها على يده .

قال سبط ابن الجوزي في هذا الصدد : ومن أولاده : « أبو القاسم علي . . هو الذي أظهر مصنفات والده وباعها بيع العبيد . ولما مضى والده إلى واسط(٣) ،

---

(١) وفيات الأعيان (١ : ٣٩٥) .

(٢) صيد الخاطر (ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧).

(٣) قال أبو شامة في حوادث سنة ٥٩٠ هـ (الذيل على الروضتين . ص ٦) : « فيها كانت محنة الشيخ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الواعظ . وشي به الى=

كانت كتبه في داره بدرب دينار[1]، فتحيل عليها بالليل والنهار ، حتى أخذ منها ما أراد وباعها ولا بثمن المداد . وكان أبوه قد هجره سنين . فلما امتحن أبوه ، صار إلباً عليه للمعادين » .[2]

وقد عاد سبط ابن الجوزي إلى ذكر صنيع هذا الابن العاقّ ، قال في حوادث سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) وهي السنة التي توفي فيها أبو القاسم علي : « ... وكتب الكثير من مصنفات جدي ، وهو الذي أظهرها وباعها بثمن بخس ، وكان جدي قد سخط عليه بهذا السبب ، ومات وهو على ذلك »[3].

وذكر ابن كثير ، ان عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلي ، «هو الذي كان وشى بابن الجوزي إلى الوزير ابن القصاب ، حتى أُحرقت بعض كتب ابن الجوزي وختم على بقيتها » .[4]

كان مما اشتملت عليه خزانة ابن الجوزي، مصحف نفيس أهداه اليه الخليفة المستضيء بالله سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) قال : « وفرّق أمير المؤمنين مصاحف كانت في الدار على جماعة ، فبعث اليّ مصحفاً مليح الخط كثير الأذهاب ».[5]

= الخليفة الناصر أحمد بن المستضيء بأمر الله ، اختلفوا فيه، وكان الزمان صيفاً فبينا هو جالس في السرداب يكتب ، جاءه من أسمعه غليظ الكلام وختم على كتبه وداره وشتت عياله . فلما كان اول الليل حملوه في سفينة وحدروه الى واسط خمسة أيام ما أكل طعاماً الى واسط ، كان قد قارب ثمانين سنة . فأقام في دار درب الديوان وعلى بابه بواب ، فكان يخدم نفسه ويغسل ثوبه ، ويطبخ ويستقي الماء من البئر ولم يدخل الحمام مدة خمس سنين مقامه بواسط . ولما عاد الى بغداد ، كان يقول : قرأت بواسط مدة مقامي كل يوم ختمة ، ما قرأت فيها سورة يوسف من حزني على ولدي يوسف . وكان يكتب الى بغداد أشعاراً كثيرة » .

(١) من محلات بغداد القديمة . ذكرها ياقوت في معجم البلدان ، في مادة « دينار ».

(٢) مرآة الزمان (٨ : ٣٢٥ ـ ٣٢٦) . وانظر أيضاً : الذيل على الروضتين (ص٢٦)، والبداية والنهاية (١٣ : ٢٠) .

(٣) مرآة الزمان (٨ : ٤٤٩) .

(٤) البداية والنهاية (١٣ : ٤٥) .

(٥) المنتظم (١٠ : ٢٣٥) .

خزانة ابن المارستانية(١)

أنشأها أبو بكر عبيد الله بن علي التيمي البكري المعروف بابن المارستانية، المتوفى سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م). كان أبوه وأمه يخدمان المرضى بالمارستان العضدي على دجلة بالجانب الغربي من بغداد. وكان يعرف الطب والحكمة وعلم النجوم. وقد صنّف تاريخاً كبيراً لبغداد. سماه «ديوان الاسلام في تاريخ دار السلام»(٢)، وهو من ضائعات الكتب. وكانت له حلقة بجامع القصر (جامع سوق الغزل اليوم) يقرىء فيها الحديث يوم الجمعة ويحضره الناس.

وقد بنى ابن المارستانية داراً بدرب الشاكرية ببغداد، وسماها «دار العلم» وجعل فيها خزانة كتب وقفها على طلاب العلم.

ورُتب ناظراً على المارستان العضدي، فلم تحمد سيرته، وقُبض عليه وسجن في المارستان مدةً مع المجانين مسلسلاً، وبيعت دار العلم بما فيها. ثم اطلق بعد مدة، وبقي يطبب الناس، وصادف قبولاً، فأثرى وعاد إلى حالٍ حسنة وحصل كتباً كثيرة.

---

(١) راجع في هذا الموضوع: دور العلم العراقية في العصور العباسية: للعلامة الدكتور مصطفى جواد (مجلة عالم الغد ١ [١٩٤٥] العدد ١٠، ص ٢٩٨ - ٢٩٩).

(٢) الذيل على الروضتين (ص ٣٤)، والبداية والنهاية (١٣ : ٣٥).

خزانة مبارك شاه بن الحسين المروروذي

ويلقّب صاحبها بفخر الدين . كان حسن الشعر بالفارسية والعربية ، وكان السلطان غياث الدين محمود ، صاحب غزنة ، يكرمه ويعظمه . وقد توفي سنة ٦٠٢[١]هـ (١٢٠٥ م) .

كانت داره ببغداد منتدى أدبياً ، يقصدها من يحب اللهو والمطالعة . قال ابن الأثير : « وكان له دار ضيافة ، فيها كتب وشطرنج . فالعلماء يطالعون الكتب والجهال يلعبون بالشطرنج » .[٢]

فيمكننا أن ندخل كتب هذه الدار في عداد خزائن الكتب . وقد وقفنا على أخبار أخرى تشبه ما نقلنا أعلاه بصدد هذه الدار ، ولكنها ليست من موضوع كتابنا ، لأنها لم تكن في العراق .[٣]

خزانة أبي المعالي أحمد ابن هبة الله

كان أبو المعالي أحمد بن يحيى بن عبيد الله بن هبه الله ، من بيت معروف بالرواية والعدالة ، روى الحديث عن جماعة ، وكتب بخطه كثيراً من الكتب الكبار ، كالطبقات لابن سعد ، ومسند أحمد بن حنبل ، وصحيح البخاري ،

(١) راجع ما ذكرناه في الصفحة ٢٣١ ، الحاشية ١ من هذا الكتاب ، بصدد عد خزانة الشريف الرضي في جملة خزائن المائة الخامسة . فما قلناه هناك نقوله في هذا الشخص وفي غيره ممن تكون أغلب أيام حياتهم في قرن ما ، ثم تقع وفياتهم في أوائل القرن الذي يليه .

(٢) الكامل في التاريخ (١٢ : ١٦١) . وانظر : الجامع المختصر (٩ : ١٨٧ – ١٨٨) .

(٣) حبيب زيات : مطالعة الدفاتر والكتب ، واللهو بالألعاب في المجتمعات قديماً (الخزانة الشرقية (٢ [١٩٣٧] ص ١٤١ – ١٤٢) .

وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، وغير ذلك .[١]

ومن كانت نفسه تسمو إلى نقل مثل هذه الأسفار الكبيرة ، لا يخلو أن يحرز خزانة فيها أمهات الكتب .

توفي أبو المعالي ببغداد ، سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) .

خزانة الحربوي

وهو أبو الحسن علي بن رشيد بن أحمد بن محمد بن حسين الحربوي ، نسبة إلى « حربى » ، البليدة التي كانت تقوم في أقصى دجيل ، بين بغداد وتكريت . قدم بغداد وأقام بها ، وصار وكيل الناصر لدين الله . وكان حسن الخط على طريقة ابن مقلة . وكتب الكثير ، وكانت وفاته سنة ٦٠٥ هـ[٢] (١٢٠٨ م) .

جمع الحربوي خزانة ، وقد وصفه ياقوت (في مادة « حربى » من معجم البلدان) بأنه « كان محباً للكتب » .[٣]

خزانة قثم بن طلحة الزينبي

هو أبو القاسم قُثم بن طلحة الزينبي ، المعروف بابن الأتقى ، المتوفى سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) . ورد ذكره في بعض المراجع . والذي يهمنا من أمره في موضوعنا ، خزانة كتبه التي لمح اليها بعض المؤرخين تلميحاً خفيفاً . فما قيل فيه انه « كان فاضلاً متميزاً عارفاً بالعلم حريصاً عليه ، خصوصاً ما يتعلق بعلم

---

(١) الجامع المختصر (٩ : ٢١٣) .

(٢) معجم البلدان (٢ : ٢٣٥) ، وشذرات الذهب (٥ : ١٧) . وقد سماه ابن العماد : « علي بن ربيعة بن أحمد بن محمد بن حينا الحربوي »

(٣) معجم البلدان (٢ : ٢٣٥) .

الأنساب والأخبار والأشعار ، وجمع في ذلك جموعاً كانت بين أيدي الناس تطالع . وكتب بخطه كتباً كثيرة ، إلا أن خطه لم يخل من السقط ... »[1].

خزانة الحسن ابن حمدون

وهو أبو سعد تاج الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن حمدون ، المتوفى سنة ٦٠٨ هـ (١٢٩١ م) ، أحد العلماء الادباء . ولي عدة ولايات ، منها النظر في البيمارستان العضدي ، وكتابة السكة بالديوان العزيز ببغداد . وهو ينتسب إلى آل سيف الدولة بن حمدان بن حمدون من بني تغلب .

وقد أحرز تاج الدين هذا خزانة كتب جليلة الشأن ، ذكر ياقوت انه « كان من المحبين للكتب واقتنائها والمبالغين في تحصيلها وشرائها ، وحصل له من أصولها المتقنة وأمهاتها المعينة ما لم يحصل لكثير أحد . ثم تقاعد به الدهر وبطل عن العمل ، فرأيته يخرجها ويبيعها ، وعيناه تذرفان بالدموع عليها كالمفارق لأهله الأعزاء والمفجوع بأحبابه الأوداء . فقلت له : هوّن عليك أدام الله أيامك ، فان الدهر ذو دول ، وقد يصحب الزمان ويساعد ، وترجع دولة العز وتعاود ، فتستخلف ما هو أحسن منها وأجود . فقال : حسبك يا بني ! هذه نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقتها في تحصيلها . وهب ان المال يتيسر والأجل يتأخر ، وهيهات ! فحينئذ لا أحصل من جمعها بعد ذلك إلا على الفراق الذي ليس بعده تلاق . وأنشد بلسان الحال :

هب الدهر أرضاني وأعتب صرفه ... وأعقب بالحسنى وفك من الأسر
فمن لي بأيام الشباب التي مضت ... ومن لي بما قد مر في البوس من عمري

ثم أدركته منيته ولم ينل أمنيته » .[2]

---

(١) تعليقات الدكتور مصطفى جواد على « الجامع المختصر » (٩ : ١٢٠ الحاشية ١) .
(٢) معجم الأدباء (٣ : ٢١٥ ـ ٢١٦) .

وذكر ياقوت خبراً يدل على تساهله في إعارة الكتب أيام كانت خزانته تحفل بها ، قال : « وكان مع اغتباطه بالكتب ، ومنافسته ومناقشته فيها ، جواداً باعارتها . ولقد قال لي يوماً ، وقد عجبت من مسارعته إلى اعارتها للطلبة : ما بخلت باعارة كتاب قط ولا أخذت عليه رهناً . ولا أعلم أنه مع ذلك فقد كتاباً في عارية قط . فقلت : الأعمال بالنيات ، وخلوص نيتك في اعارتها لله حفظها عليك » .[1]

خزانة مسيحي بن أبي البقاء

كنيته أبو الخير ، ويعرف بابن العطار الطبيب النصراني . أصله من بلدة النيل[2] في العراق . قدم بغداد وسكنها . وكان خبيراً بالعلاج قيماً به ، له ذكر وقرب من دار الخليفة .[3]

كان لأبي الخير خزانة كتب نفيسة . قال القفطي انه « قنى كتباً كثيرة في الحكمة وما يتعلق بها ، بحيث خرجت في الكثرة عن الحصر . وقيل انه كان اذا وقعت في يده نسخة من كتاب ، وخشي المزايدة فيه ، يخرمه لينقص قيمته ويبتاعه[4] . واشتهر هذا عنه ، ورموه بقلة الدين لأجل ذلك . وعاش عمراً طويلاً ، وحصل مالاً جزيلاً ، ومات ببغداد ، في يوم الخميس ثاني عشر شهر رمضان سنة ثمان وستمائة »[5] (١٢١١ م) .

---

(١) معجم الأدباء (٣ : ٢١٦) .

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان (مادة : النيل) : ان النيل بليدة في سواد الكوفة قرب حلة بني مزيد ، يخترقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير . حفره الحجاج بن يوسف وسماه بنيل مصر .

(٣) اخبار الحكماء للقفطي (ص ٣٣٢) ، وتاريخ مختصر الدول (ص ٤١٩) .

(٤) يذكرنا هذا ، بما كان يصنعه ابن الخشاب ، حين يحضر سوق الكتب . راجع الصفحة ٢٥٢ من هذا الكتاب .

(٥) أخبار الحكماء للقفطي (ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣) .

وقد خلّفه أبو الخير ولداً طبيباً لم يكن رشيداً ولا محمود الطريقة فيما قيل. فبدد ثروة أبيه ، ولا يبعد أن تكون خزانة الكتب التي ألمعنا اليها تبعثرت على يده .

خزانة عبد السلام الجيلي

صاحب هذه الخزانة . عبد السلام بن عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست بن أبي عبد الله الجيلي البغدادي ، المدعو بالركن ، المتوفى سنة ٦٩١هـ[١] (١٢٩٤ م) .

ترجمه القفطي فقال : « قرأ علوم الأوائل[٢] وأجادها . واقتنى كتباً كثيرة في هذا النوع واشتهر بهذا الشأن شهرة تامة . وله تقدم في الدولة الامامية الناصرية[٣] ، وحصل له بتقدمه حسد من أرباب الشر ، فثلبه أحدهم بأنه معطل وانه يرجع إلى أقوال أهل الفلسفة في قواعد هذا الشأن . فأوقعت الحفظة عليه وعلى كتبه . فوجد فيها الكثير من علوم القوم ، وبرزت الأوامر الناصرية باخراجها إلى موضع ببغداد يعرف بالرحبة ، وأن تحرق بحضور الجمع الجم منها ، ففعل ذلك واحضر لها عبيد الله التيمي البكري المعروف بابن المارستانية[٤] ، وجعل له منبر صعد عليه وخطب خطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يقول بقولهم . وذكر الركن عبد السلام هذا بشرّ ، وكان يخرج الكتب التي له ، كتاباً كتاباً ، فيتكلم عليه ويبالغ في ذمه وذم مصنفه ، ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار » .[٥]

---

(١) مرآة الزمان (٨ : ٣٧٤) ، والبداية والنهاية (١٣ : ٦٨) .
(٢) يريد بها علوم الفلسفة والفلك .
(٣) أي في أيام خلافة الناصر لدين الله العباسي .
(٤) تكلمنا على « خزانة ابن المارستانية » في الصفحة ٢٥٩ من هذا الكتاب .
(٥) أخبار الحكماء للقفطي (ص ٢٢٨ - ٢٢٩) .

فهذه المأساة التي أحاقت بخزانة كتب عبد السلام الجيلي ، لصفحة سوداء من صحائف اضطهاد العلم ومناهضة حرية الفكر في العصور القديمة .

وقد أكمل القفطي قصة حرق هذه الخزانة بالنادرة التالية لهذا السطر، قال :

« أخبرني الحكيم يوسف السبتي الاسرائيلي ، قال : كنت ببغداد يومئذ تاجراً ، وحضرت المحفل ، وسمعت كلام ابن المارستانية ، وشاهدت في يده كتاب الهيئة لابن الهيثم، وهو يشير إلى الدائرة التي مثّل بها الفلك وهو يقول: وهذه الداهية الدهياء والنازلة الصماء والمصيبة العمياء ، وبعد إتمام كلامه خرقها وألقاها إلى النار . قال : استدللت على جهله وتعصبه ، إذ لم يكن في الهيئة كفر، وإنما هي طريق إلى الايمان ومعرفة قدرة الله جلّ وعزّ فيما أحكمه ودبّره » .[1]

وذكر القفطي، ان عبد السلام الجيلي، لبث في السجن معاقبةً له على اشتغاله بالفلسفة ، إلى أن أُفرج عنه سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣م) وأعيد عليه ما كان له بعد الذي ذهب ، وعاش بعد ذلك عمراً طويلاً[2].

وقصة حرق كتبه ، أوردها ابن العماد الحنبلي عن مصادر أخرى قديمة ، بوجه يختلف في مواطن عما ذكره القفطي . فرأينا أن ننقل ما قاله في هذا الصدد لما ينطوي عليه من فائدة للمؤرخ والمتتبع لهذا الموضوع ، قال : « ... وقد جرت عليه (على عبد السلام) محنة في أيام[3] الوزير ابن يونس ، فانه كبس دار عبد السلام هذا ، وأخرج منها كتباً من كتب الفلاسفة ورسائل إخوان الصفاء وكتب السحر والنارنجات[4] وعبادة السحر . واستدعى ابن يونس

---

(١) أخبار الحكماء للقفطي (ص ٢٢٩) .

(٢) أخبار الحكماء للقفطي (ص ٢٢٩) .

(٣) جرى حرقها ، على ما في مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي (ص ١٢٠) ، في يوم الجمعة ثاني عشر صفر سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) .

(٤) النارنجات ، ويقال فيها النيرنجات والنيرنجيات . واحدتها النيرنج والنيرج . وهي لفظة فارسية معناها السحر والرق وما يشبه ذلك . (أنظر: تكملة المعجمات العربية لدوزي ٢ : ٧٤١ ، والألفاظ الفارسية المعربة للسيد أدي شير . ص ١٥٥) .

العلماء والفقهاء والقضاة والأعيان وكان ابن الجوزي معهم . وقُرئ في بعضها مخاطبة زحل بقوله : أيها الكوكب المضيء المنير ، أنت تدبر الأفلاك وتُحيي وتميت ، وأنت إلهنا ! وفي حق المريخ من هذا الجنس ، وعبد السلام حاضر . فقال ابن يونس : هذا خطك ؟ قال : نعم . قال : لمَ كتبته ؟ قال : لأردّ على قائله ومن يعتقده . فأمر باحراق كتبه . فجلس قاضي القضاة والعلماء وابن الجوزي معهم على سطح مسجد مجاور لجامع الخليفة يوم الجمعة ، وأضرموا ناراً عظيمة تحت المسجد ، وخرج الناس من الجامع ، فوقفوا على طبقاتهم ، والكتب على سطح المسجد وقام أبو بكر بن المارستانية ، فجعل يقرأ كتاباً كتاباً من مخاطبات الكواكب ونحوها ، ويقول : إلعنوا من كتبه ومن يعتقده ، وعبد السلام حاضر ، فتصيح العوام باللعن . فتعدى اللعن إلى الشيخ عبد القادر ، بل وإلى الامام أحمد ... » .[1]

ولقد أورد غير واحدٍ من المؤرخين ، خبر إحراق هذه الكتب ، كسبط ابن الجوزي[2] وأبو شامة[3] وابن الساعي[4] والذهبي[5] وابن كثير[6] وابن حجر العسقلاني[7] . وقبّح بعضهم سيرة صاحبها ورموه بالفسق والفجور .

---

(١) شذرات الذهب (٥ : ٤٥ ـ ٤٦) .
(٢) مرآة الزمان (٨ : ٣٤٤) .
(٣) الذيل على الروضتين (ص ٥٥) .
(٤) مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي (ص ١٢٠ ـ ١٢١) .
(٥) تذكرة الحفاظ (٤ : ١٣٥) .
(٦) البداية والنهاية (١٣ : ٤٥) .
(٧) لسان الميزان (٤ : ١٥) .

خزانة ابن البرفطي

وابن البرفطي هذا، هو محمد بن أحمد بن محمد بن حمزة بن بُرَيك الأنصاري الدسكري المعروف بابن البرفطي[1] . ولد ببغداد سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) ، ومات سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م).

كان هذا الرجل مغالياً في جمع نفائس الخطوط المنسوبة ، حتى اجتمع له منها ما لم يجتمع عند غيره . فذكر ياقوت الحموي في ترجمته ، انه « خلّف خمسة وعشرين قطعة بخط ابن البواب ، لم تجتمع في زماننا عند كاتب ، وكان يغالي في شرائها » .[2]

وكان ابن البرفطي، إلى هذا، من خطاطي عصره . وصفه ياقوت بانه « أوحد عصرنا في حسن الخط ، والمشار اليه في التحرير ، قد تخرج به خلق كثير ، وسافر إلى دمشق وكتب عليه كتابها » .[3]

ثم عاد ياقوت ففصل ما أجمل من رغبة هذا الرجل في تحصيل خطوط ابن البواب ، وأورد نادرة حصلت له في هذا الشأن ، قال :

« وكان يبالغ في أثمان خطوط ابن البواب ، فحصل له منها ما لم يحصل لأحد غيره . وجدتُ عنده أكثر من عشرين قطعة بخطه أرانيها . وحدثني قال : بلغني عن رجل معلم في بعض محال بغداد ، ان عنده جزازاً كثيراً ورثه عن أبيه . فخُيِّل لي أنه لا يخلو من شيء من الخطوط المنسوبة ، فمضيت اليه وقلت له : أحب أن تريني ما خلّف لك والدك ، عسى أن أشتري منه شيئاً . فصعد بي إلى غرفة ، وجلست أفتش . حتى وقع بيدي ورقة بخط ابن البواب[4] قلم الرقاع

---

(١) دسكرة وبرفطا ، قريتان من قرى نهر الملك (معجم الأدباء ٦ : ٣٦٥) .
(٢) معجم الأدباء (٦ : ٣٦٥) .
(٣) معجم الأدباء (٦ : ٣٦٦) .
(٤) سقط هنا بعض الكلام في الأصل .

أرانيها أيضاً . فضممتُ اليها شيئاً آخر لا حاجة بي اليه . وقلت له : بكم هذا ؟ فقال : يا سيدي ما صلح لك في هذا كله شيء آخر ؟ فقلت له : أنا الساعة مستعجل ، ولعلي أعود اليك مرةً أخرى . فقال : هذا الذي اخترته لا قيمة له، فخذه هبةً مني . فقلتُ : لا أفعل ، وأعطيته قطعة قراضة مقدارها نصف دانق فاستكثرها وقال : يا سيدي ، ما أخذت شيئاً يساوي هذا المقدار ، فخذ شيئاً آخر . فقلتُ : لا حاجة لي في شيء آخر . ثم نزلت من غرفته ، فاستحييت وقلت : هذه مخادعة ، ولا شك انه قد باعني ما جهله ، ووالله لا جعلت خط ابن البواب أن يُشترى بالمخادعة . فعدتُ اليه وقلتُ له : يا أخي ، هذه الورقة بخط ابن البواب . فقال : وإذا كانت بخط ابن البواب أي شيء أصنع ؟ قلت له : قيمتها ثلاثة دنانير إمامية . فقال : يا سيدي ، لا تسخر بي ، ولعلك قد عزمت على ردّها فخذها وحط الذهب . فقلتُ : بل أحضر ميزاناً للذهب . فأحضرها فوزنتُ له ثلاثة دنانير ، وقلت له : بعتني هذا بهذا ؟ فقال: بعتك فأخذتها وانصرفت »(١).

خزانة علي بن البوري

كان هذا شيخاً من أعيان المتصرفين . وهو منسوب إلى « بورى »(٢) ، قرية كانت قرب عكبرا . وقد رُتب في وظائف مختلفة ببغداد والحلة وغيرها . وكانت حياته تضطرب بين السعد والنحس ، فقد داهمته نكبات مختلفة .

وليس يعنينا من أمر أعماله هذه في الدولة ، التي حصلت بين سنة ٥٩٧ و ٦٣٣هـ (١٢٠٠ ــ ١٢٣٥م) بقدر ما يعنينا أن نقول انه « كان له اهتمام بالكتب واطلاعها ، وحفظ ما يستحسنه منها ، وكان له شعر »(٣).

---

(١) معجم الأدباء (٦ : ٣٦٦ ــ ٣٦٧) .
(٢) بضم أوله وسكون ثانيه وفتح الراء وآخره مقصور .
(٣) الحوادث الجامعة (ص ١٤٥ ــ ١٤٦) .

ذكر ابن الفوطي ان آخر مصيبة حلت به كانت نهب داره، يوم بويع الظاهر بأمر الله فقد هجم العوام عليها ونهبوها . فلعل خزانة كتبه نهبت فيما نهب .

خزانة ابن النجار

صاحب هذه الخزانة ، هو الحافظ المؤرخ الأديب ، محب الدين محمد بن محمود ، المعروف بابن النجار البغدادي ، المتوفى سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) . كان من جلة المؤلفين ، صنف كتباً كثيرة تزيد على أربعين كتاباً[1] ، منها تاريخه الكبير لمدينة بغداد[2]، جعله ذيلاً على تاريخ مدينة السلام للخطيب البغدادي .

وقد أثنى عليه مترجمو حياته ثناء عطراً . ويؤخذ من أقوال بعضهم ومترجمهم - في ما قالوا ابن الساعي المؤرخ البغدادي الشهير - انه كان يحرز خزانة كتب كبيرة . وهذا شيء منتظر من ابن النجار المؤرخ الثقة المحقق . وقد أحسن صاحبها صنعاً ، بكونه وقفها على المدرسة النظامية ببغداد . فذكر ابن كثير انه أوصى إلى ابن الساعي في أمر تركته ، وكان من جملتها انه « وقف خزانتين من الكتب بالنظامية ، تساوي ألف دينار ، فأمضى ذلك الخليفة المستعصم »[3] .

وخبر هذه الوقفية كنا نقلناه في كلامنا على خزانة المدرسة النظامية .

---

(١) الحوادث الجامعة (ص ٥٠٠) . وقد طبع من مؤلفاته كتاب « أخبار مدينة الرسول » المعروف بالدرة الثمينة في أخبار المدينة (القاهرة ١٣٦٦ هـ) .

(٢) ذكرنا ما انتهى الينا من أجزاء هذا « التاريخ » في مقالنا « ما سلم من تواريخ البلدان العراقية » المنشور في مجلة المقتطف (١٠٥ [نوفمبر ١٩٤٤] ص ٣٧٣ - ٣٧٤) .

(٣) البداية والنهاية (١٣ : ١٦٩) . وانظر : تذكرة الحفاظ (٤ : ٢١٣) وفوات الوفيات (٢ : ٢٦٤) وشذرات الذهب (٥ : ٢٢٧) .

خزانة رضي الدين ابن طاوس

هو السيد الأجل رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن أحمد بن محمد الطاوس ، المولود سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ، المتوفى سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٥ م) . ألّف كتباً عديدة بلغت نيفاً وثلاثين تصنيفاً .

كانت له خزانة كتب ، احتوت في سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) ، على ألف وخمسمائة كتاب(١).

وقد صرح رضي الدين في آخر كتاب اليقين ، من مؤلفاته ، انه « وقف جميع كتب خزانته على أولاده الذكور وقفاً صحيحاً شرعياً على اختلاف الأعصار والدهور » .(٢)

خزانة غياث الدين ابن طاوس

هذه الخزانة لغياث الدين عبد الكريم بن أحمد بن موسى بن جعفر ابن طاوس ، الفقيه النسابة المحدّث النقيب المشهور . ترجمه ابن الفوطي ، وأشار إلى خزانة كتبه ، فقال : « كان جليل القدر نبيل الذكر حافظاً لكتاب الله المجيد ، لم أر في مشايخي أحفظ منه للسير والآثار والأحاديث والأخبار والحكايات والأشعار . جمع وصنف وشجر وألف . وكان يشارك الناس في علومهم ، وكانت داره مجمع الأئمة والأشراف ، وكان الأكابر والولاة والكتّاب يستضيء بأنواره وآرائه . وكتبت لخزانته كتاب الدر النظيم فيمن تسمى بعبد الكريم . وسألته عن مولده ، فذكر انه ولد في شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة (١٢٥٠ م) ، وتوفي في يوم السبت سادس عشر شوال سنة ثلاث وتسعين وستمائة (١٢٩٤م)، وحُمل إلى مشهد الامام علي عليه السلام ، ودفن عند أهله » .(٣)

---

(١) و (٢) الذريعة الى تصانيف الشيعة (١ : ٥٨ الرقم ٢٩٠) .

(٣) تلخيص مجمع الألقاب لابن الفوطي (ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ من النسخة المصورة) .

وقد نوهنا بخزانة جده رضي الدين ابن طاووس . وما من شك في أن جملة من خزانة غياث الدين كانت مما وقفه جده رضي الدين على ذريته .

خزانة عز الدين الفاروثي

كان هذا الرجل من أهل الفاروث ، وهي قرية على شاطىء دجلة بين واسط والمذار[١] . وقد عُرف بالزهد والتصوّف . سمع الحديث ورحل فيه ، فقدم إلى دمشق مرّتين ، ثم عاد إلى وطنه ومات بواسط سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) . وكان الفاروثي ، على ما ذكر ابن كثير ، قد « خلّف ألفين ومائتي مجلد » .[٢]

فخزانته هذه ، هي الخزانة الواسطية الوحيدة التي وقفنا على خبرها .

---

(١) معجم البلدان (٣ : ٨٤٠) . وقد أخبرني الصديق المحقق الأستاذ يعقوب سركيس ، ان آثار الفاروث لا تزال ظاهرة للعيان ، تسمى بهذا الاسم . وهي مرسومة في خارطة رسمت في نحو سنة ١٩٢٠ .

(٢) البداية والنهاية (١٣ : ٣٤٢) .

خزانة معوية الموصلي البغدادي

كانت هذه الخزانة لعز الدين أبي محمد الحسن بن يوسف بن الحسن، المعروف بمعوية الموصلي البغدادي الفقيه . ترجمه ابن الفوطي بقوله : « قدم بغداد ، ورتب فقيهاً بالمدرسة المستنصرية للطائفة الأحمدية .(١) وكان كثير المحفوظ ، دمث الاخلاق ، شديداً في التعصب للسنة . اقتنى كتباً كثيرة . وكان كثير المطالعة ، يحفظ الاشعار ويستشهد بها في مواضعها . كتبت عنه . وسمع معنا على شيخنا كال الدين أبي محمد عبد القادر بن محمد بن مسعود ، وكتب بخطه الكثير من ذلك ».(٢)

ولم يشر إلى سنة وفاته ، وانما ذكر انه من معاصريه . وإذ كانت وفاة ابن الفوطي في سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) ، جاز لنا القول ان صاحب هذه الخزانة ممن كان يحيا في الربع الاول من المائة الثامنة للهجرة .

خزانة علي بن أحمد بن يوسف بن الخضر الآمدي الحنبلي

اشتهر صاحبها بتعبير الرؤيا ، وبمعرفة لغات مختلفة . فكان إلى إجادته اللغة العربية ، يتكلم التركية والفارسية والمغولية والرومية(٣) . وقد أضرّ في أوائل عمره ، واتخذ الاتجار في الكتب مهنةً له . وكانت وفاته ببغداد ، بعد سنة اثنتي عشرة وسبعمائة للهجرة بقليل (بعد ١٣١٢ م) .

---

(١) منسوبة الى أحمد بن حنبل .
(٢) تلخيص مجمع الألقاب لابن الفوطي (ص ١ ــ ٢ من النسخة المصورة) .
(٣) نكت الهميان في نكت العميان (ص ٢٠٧) .

وقد جمع هذا الرجل كتباً كثيرة جداً . قال الصفدي انه « كان إذا طُلب منه كتاب وكان يعلم انه عنده ، نهض إلى خزانة كتبه واستخرجه من بينها كأنه قد وضعه لساعته . وإن كان الكتاب عدة مجلدات وطُلب منه الاول مثلاً أو الثاني أو الثالث أو غير ذلك ، أخرجه بعينه وأتى به . وكان يمس الكتاب أولاً ثم يقول : يشتمل هذا الكتاب على كذا وكذا كراسة ، فيكون الأمر كما قال . وإذا أمرّ يده على الصفحة قال عدد أسطر هذه الصحيفة كذا وكذا سطراً ، وفيها بالقلم الغليظ كذا ، وهذا الموضع كُتب به في الوجهة وفيها بالحمرة هذا وهذه المواضع كتبت بالحمرة . وان اتفق انها كُتبت بخطين أو ثلاثة ، قال : اختلف الخط من هنا إلى هنا ، من غير إخلال بما يمتحن به . ويعرف أثمان جميع كتبه التي اقتناها بالشراء ، وذلك انه كان إذا اشترى كتاباً بشيء معلوم أخذ قطعة ورق خفيفة وفتل منها فتيلة لطيفة وصنعها حرفاً أو أكثر من حروف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الجمل ، ثم يلصق ذلك على طرف جلد الكتاب من داخل ويلصق فوقه ورقة بقدره لتتأبد . فاذا شذّ عن ذهنه كمية ثمن كتاب ما من كتبه ، مسّ الموضع الذي علّمه في ذلك الكتاب بيده فيعرف ثمنه من تنبيت العدد الملصق فيه » .(١)

خزانة ابن الفوطي

كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد ، المعروف بابن الفوطي البغدادي(٢)، في طليعة مؤرخي عصره . عُرف بحسن التأليف ووفرته ونفاسته . وُلد ببغداد سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) ، ومات بها سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) .

---

(١) نكت الهميان (ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨) . وقصة وقوفه على مشتملات خزانته ، وردت باختصار في الدرر الكامنة (٣ : ٢٢) .

(٢) ذكرنا مراجع ترجمته ، في كلامنا على « خزانة المدرسة المستنصرية » . (أنظر الصفحة ١٦٦ ، الحاشية ١ من هذا الكتاب) .

ألّف تصانيف كثيرة ضاع أغلبها ، ولم يتنه إلينا منها ، في ما نعهد ، إلا « الحوادث الجامعة » ، والمجلد الرابع من « تلخيص مجمع الألقاب » . وقد أشرنا إليهما كثيراً في كتابنا هذا ، ونقلنا من فوائدهما غير مرة .

اشتهر ابن الفوطي ، بكونه من الأفراد القليلين الذين توفروا على تنظيم الكتب والنظر في أمورها . فلقد « باشر كتب خزانة الرصد بمراغة ، وهو على ما نقل ، أربعمائة ألف مصنَّف أو مجلد ، واطّلع على نفائس الكتب »[1] . وظل بها « بضع عشرة سنة ، وظفر بها بكتبٍ نفيسة ، وحصل من التواريخ ما لا مزيد عليه »[2] .

وقد عُهد إلى ابن الفوطي ، بالاشراف على خزانة كتب المستنصرية ، فظل على ذلك إلى أن مات ، وقام بما عُهد اليه خير قيام .

وكان ابن الفوطي ، إلى ذلك ، من خطاطي عصره . ذكر ابن حجرالعسقلاني انه « كان له نظم حسن وخط بديع جداً . قلتُ : ملكتُ بخطه خريدة القصر للعماد الكاتب في أربع مجلدات في قطع الكبير، وقدّمتها لصاحب اليمن ، فأثابني عليها ثواباً جزيلاً جداً . وكان له نظر في علوم الأوائل ، وكان مع حسن خطه ، يكتب في اليوم أربع كراريس . قال الصفدي : أخبرني من رآه ، ينام ويضع ظهره إلى الأرض ويكتب ويداه إلى جهة السقف »[3] .

ولقد جمع هذا العلامة ، خزانة كتب ثمينة ، حوت كل طريف ونفيس من كتب التاريخ والتراجم والأدب والحديث والفقه وغير ذلك . « وكان منزله وخزانته هذه في بغداد ، ملتقى طلبة العلم ومجتمع الطبقة المهذبة من البغداديين والطارئين على بغداد . ومن عادته أن يشير في معجمه إلى زوّاره وزوار خزانته

---

(١) الدرر الكامنة (٢ : ٤٦٤) .
(٢) شذرات الذهب (٦ : ٦٠) .
(٣) الدرر الكامنة (٢ : ٣٦٥) . وقد سبق لنا نقل هذا النص في الصفحة ١٦ من هذا الكتاب .

من العلماء والأعيان أو من المعجبين بمؤلفاته المتنافسين في اقتناء آثاره في شتى المواضيع »(١).

و « المعجم » المنوه به في هذا الكلام ، هو « مجمع الآداب في معجم الأسماء والألقاب » . وقد مرّ بنا ذكر مختصره الموسوم بـ « تلخيص مجمع الألقاب » الذي لا نعرف منه سوى مجلده الرابع ، بخط المؤلف ، في الخزانة الظاهرية بدمشق(٢) . وعنه نسخة مصورة في خزانة المتحف العراقي ببغداد .

خزانة قوام الدين الشيباني

صاحبها قوام الدين علي بن عبدالله الشيباني النعماني البغدادي الواعظ الخطيب الكتبي . ترجمه ابن الفوطي ولم يعيّن سنة وفاته ، ومما قاله فيه انه « من بيت معروف بالرياسة والعدالة والتصرّف والقضاء . رُتّب خطيباً بجامع بهليقا من الجانب الغربي (من بغداد) وناظراً في وقفه ، ووعظ بالمدرسة الغازانية ... وكان قوام الدين صديقي ، يتردد إليّ . وكان عارفاً بخطوط المصنّفين وبقية الكتب . واقتنى كتباً نفيسة ، وسافر إلى الشام ، وكان يعرض عليّ ما يحصله من النسخ المختارة بخطوط الأدباء . كتبتُ عنه ، وكان حسن العشرة ، يحفظ كثيراً من الأشعار »(٣).

فيكون قوام الدين هذا ، معاصراً لابن الفوطي ، المتوفى سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣) . ولعله مات بعده .

---

(١) مؤرخ العراق ابن الفوطي : للعلامة الشبيبي (ص ٩) .
(٢) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ليوسف العش (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق . ص ١٦٥ ، الرقم ٢٦٧ تاريخ) .
(٣) تلخيص مجمع الألقاب (ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣ من النسخة المصورة) .

خزانة ابن عبد الحق

وهو صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق الحنبلي[1] ، المولود سنة ٦٥٨ هـ (١٢٥٩ م) ، المتوفى سنة ٧٣٩ هـ (١٣٣٨ م) .

اشتهر بوقوفه الحسن على فروع العلم المختلفة : كالهيئة والحساب والهندسة والفرائض والفقه والأدب والنحو . وكان ينظم الشعر ويكتب الخط المنسوب . وقد ألّف جملة كتب، وأشهر ما نعرفه منها « مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع » ، اختصر فيه معجم البلدان لياقوت الحموي ، وعلق عليه في بعض المواضع .

وقد جمع ابن عبد الحق خزانة كتب ، ذكر بعض مترجمي سيرته انه وقفها على « المدرسة المجاهدية » ، وهي أكبر مدارس بغداد في ذلك الزمن .[2]

خزانة ابن الثردة

واسمه الكامل ، علي بن ابراهيم بن علي بن يعقوب بن عبد المجيد بن وفاء علاء الدين الواسطي البغدادي ثم الدمشقي ، المعروف بابن الثردة ، وقيل ابن الفردة ، المولود سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) ، المتوفى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) . تعاني الآداب والوعظ، وتغير في آخر عمره بالسوداء، وهو مع ذلك ينظم الشعر، فالتحق بعقلاء المجانين !

وقد أحرز هذا الرجل خزانة كتب ، سُرق جانب منها على ما ذكره بعض المؤرخين، فقد « كان يدّعي انه سُرق له من بغداد من الكتب بقدر ألفي مجلدة ، وان جماعة من التجار باعوها بدمشق » .[3]

(١) ترجمته في : منتخب المختار لتقي الفاسي المكي (ص ١٢٢ ـ ١١٧) ، والدرر الكامنة (٢ : ٤١٩) ، وشذرات الذهب (٦ : ١٢١ ـ ١٢٢) ، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (١ : ٤٠٤ ـ ٤٠٥) .

(٢) منتخب المختار (ص ١٢٤) .

(٣) الدرر الكامنة (٣ : ٨) ، وفوات الوفيات (٢ : ٣٩) .

ملاحظات واستدراكات

« لا يكتب انسان كتاباً في يومه ، الا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد لكان يستحسن ؛ ولو قدم هذا لكان أفضل ؛ ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر . وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .

القاضي عبد الرحيم البيساني

الصفحة	السطر	
٩	١٨	كان أبو عيسى اسحق بن سعيد الرملي ، وراقاً لأبي داود السجستاني .[1]
١٩	٢–٥	أنفس ما وقفنا عليه في موضوع الوراقة ، بعد طبع شطر من الكتاب ، مقال طويل نفيس ، للعلامة المحقق الكبير الاستاذ حبيب زيات ، عنوانه « الوراقة والوراقون في الاسلام »[2] ، استند فيه إلى أمهات المراجع المخطوطة والمطبوعة . ويشهد كل سطر من سطوره ، على ما لكاتبه الجليل من سعة العلم والوقوف الدقيق على مختلف الأسفار العربية القديمة .
٣٩		(موضوع : غرق الكتب) : ذكر ابن أبي أصيبعة،في ترجمة المبشر بن فاتك ، وهو الأمير محمود الدولة أبو الوفاء المبشر بن فاتك

---

(١) سنن أبي داود (١ : ٩ مقدمة الناشر محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٣٥) .

(٢) المشرق (٤١ [بيروت ١٩٤٧] ص ٣٠٥ – ٣٥٠) ثم نشر في رسالة قائمة بذاتها .

الصفحة السطر

الآسري ، من أعيان أمراء مصر وأفاضل علمائها في أواخر المائة الخامسة للهجرة ، انه « كان كثير الكتابة ، وقد وجدتُ بخطه كتباً كثيرة من تصانيف المتقدمين . وكان المبشر بن فاتك قد اقتنى كتباً كثيرة جداً ، وكثير منها يوجد وقد تغيرت ألوان الورق الذي له بغرق أصابه .

وحدثني الشيخ سديد الدين المنطقي بمصر ، قال : كان الأمير ابن فاتك محباً لتحصيل العلوم ، وكانت له خزائن كتب . فكان في أكثر أوقاته ، إذا نزل من الركوب ، لا يفارقها ، وليس له دأب إلا المطالعة والكتابة ، ويَرَى أن ذلك أهم ما عنده . وكانت له زوجة كبيرة القدر أيضاً من أرباب الدولة . فلما توفي ، رحمه الله ، نهضت هي وجوار معها إلى خزائن كتبه ، وفي قلبها من الكتب ، وانه كان يشتغل بها عنها . فجعلت تندبه ، وفي أثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار ، هي وجواريها . ثم شيلت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق أكثرها . فهذا سبب ان كتب المبشر بن فاتك ، يوجد كثير منها وهو بهذه الحال » .(١)

٣٢ ٢ حكاية غرق « كتاب الجيم » في النهروان ، وردت أيضاً في نزهة الألباء (ص ٢٦١) .

٣٤ـ٣٦ في موضوع : « دفن الكتب » : ذكر المطران أقرام نقاشة(٢)، ما فرط

---

(١) عيون الأنباء (٢ : ٩٨ ـ ٩٩) .

(٢) عناية الرحمان في هداية السريان (ص ٢٦٢ ، بيروت ١٩١٠) .

الصفحة	السطر	
		من أهل قرية قره قوش ، حين طرحوا سنة ١٧٨٠ م في بئر كنيسة الطاهرة بتلك القرية، مخطوطات كثيرة جداً، لزعمهم ان فيها من الأمور ما يخالف معتقدهم الديني !
٧٣	١٠	حكاية كتاب « جاويذان خرد » والعثور على نسخته تحت الايوان بالمدائن في أيام المأمون ، وردت أيضاً في « ذيل زهر الآداب » للحصري القيرواني (ص ٧٤ — ٧٨ ، القاهرة ١٣٥٣ هـ) .
٨٠	٩	قال البطريرك رحماني[1] : إن الكتاب المنسوب الى ديونوسيوس الاريوفاغي — ويُظن ان مؤلفه عاش ما بين السنة ٤٨٢ و ٥٠٠ للميلاد — قد نقله من اليونانية الى السريانية ، القس سرجيس الراسعيني (المتوفى سنة ٥٣٦ م) الكاتب المشهور. وعلّق عليه فوقا بن سرجيس الرهاوي شروحاً مفيدة . واختلف الكتبة في تعيين زمان فوقا ، فذهب قوم إلى أنه اشتهر في القرن الثامن. بيد اننا نرى انه أقدم عهداً .
٨٨	الحاشية ٣	راجع أيضاً كتاب «عناية الرحمان» لنقاشة (ص٤٥١) .
١٣٣	الحاشية ١	ممن وصف خزانة كتب الامام علي (ع) في النجف ، الاستاذ علي الخاقاني . (انظر : مجلة الغري ٢ «١٩٤١» العدد ٧٤ — ٧٥ ، ص ١٢٦٣ — ١٢٦٤).
١٧٤	١	ذُكر هذا الشارع في الحوادث الجامعة (ص ٩١٧) باسم « شارع رزق الله » . وفي « موجز تاريخ الحضارة العربية » للاستاذين ناجي معروف وعبدالعزيز الدوري (ص ١٦٦) باسم « شارع أمين رزق الله » .
٢٧١	السطر الأخير	ورد ذكر خزانة الفاروثي في مرآة الجنان لليافعي (٤:٢٢٣).

(١) دير مار متى الشيخ ودير مار بهنام الشهيد(ص١٠ الحاشية ١) .

فهارس الكتاب

الفهارس

- ١ -

فهرس اعلام الناس

(أ)

فهرس أعلام الناس

فهرس أعلام الناس

﴿ فهرس أعلام الناس ﴾

فهرس أعلام الناس

فهرس أعلام الناس

﴿ فهرس أعلام الناس ﴾

فهرس أعلام الناس

﴿ فهرس أعلام الناس ﴾

﴿ فهرس أعلام الناس ﴾

فهرس أعلام الناس

فهرس أعلام الناس

فهرس أعلام الناس

﴿ فهرس أعلام الناس ﴾

﴿ فهرس أعلام الناس ﴾

﴿ فهرس أعلام الناس ﴾

﴿ فهرس أعلام الناس ﴾

(ن)

(ه)

فهرس أعلام الناس

﴿ فهرس أعلام الناس ﴾

— ٢ —

فهرس الأقوام والملل والجماعات

﴿ فهرس الأقوام والملل والجماعات ﴾

— ٣ —

فهرس الامكنة والمواضع

فهرس الأمكنة والمواضع

(ت)

فهرس الأمكنة والمواضع

فهرس الأمكنة والمواضع

(ر)

فهرس الامكنة والمواضع

﴿ فهرس الامكنة والمواضع ﴾

فهرس الامكنة والمواضع

﴿ فهرس الأمكنة والمواضع ﴾

فهرس الأمكنة والمواضع

- ٤ -

﴿فهرس خزائن الكتب﴾

فهرس خزائن الكتب

فهرس خزائن الكتب

﴿ فهرس خزائن الكتب ﴾

﴿ فهرس خزائن الكتب ﴾

* * *

فهرس أسماء الكتب والرسائل (من مطبوعة ومخطوطة) والمقالات والمجلات (*)

أولاً : باللغات الشرقية

(أ)

(*) ق = مقالة
م = مجلة

﴿ فهرس أسماء الكتب والرسائل (من مطبوعة ومخطوطة) والمقالات والمجلات ﴾

(ب)

(ت)

﴿ فهرس أسماء الكتب والرسائل (من مطبوعة ومخطوطة) والمقالات والمجلات ﴾

(ث)

(ج)

فهرس أسماء الكتب والرسائل (من مطبوعة ومخطوطة) والمقالات والمجلات

﴿ فهرس أسماء الكتب والرسائل (من مطبوعة ومخطوطة) والمقالات والمجلات ﴾

فهرس أسماء الكتب والرسائل (من مطبوعة ومخطوطة) والمقالات والمجلات

(غ)

(ف)

فهرس أسماء الكتب والرسائل (من مطبوعة ومخطوطة) والمقالات والمجلات

فهرس أسماء الكتب والرسائل (من مطبوعة ومخطوطة) والمقالات والمجلات

فهرس أسماء الكتب والرسائل (من مطبوعة ومخطوطة) والمقالات والمجلات

(ن)

﴿ فهرس أسماء الكتب والرسائل (من مطبوعة ومخطوطة) والمقالات والمجلات ﴾

فهرس أسماء الكتب والرسائل (من مطبوعة ومخطوطة) والمقالات والمجلات

ثانياً : باللغات الافرنجية

﴿ فهرس الالفاظ الدخيلة والمصطلحات وما الى ذلك ﴾

فهرس الألفاظ الدخيلة والمصطلحات وما الى ذلك

﴿ فهرس محتويات الكتاب ﴾

﴿ فهرس محتويات الكتاب ﴾

الصفحة

﴿ فهرس محتويات الكتاب ﴾

الصفحة

فهرس محتويات الكتاب

﴿ فهرس محتويات الكتاب ﴾

مطابع « دار الرائد العربي »
ص.ب: ٦٥٨٥ ـ تلكس ٤٣٤٩٩ LE . رائد

ANCIENT LIBRARIES OF ʿIRAQ

From the Earliest Times to the Year 1000 A.H.
(1591 A.D.)

By
Gurguis Awwad



DAR AL-RAED AL-ARABI
Beirut, Lebanon

